

كتابي

٣٨

الجزء الأول

غرام سوان

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

اهداء المؤلف

إلى مسيو جاستون كالميت

GASTON CALMETTE

دليل اعتراف عميق وودود بالفضل :

(مارسيل بروست)



— ١ —

تعودت منذ وقت طويل أن آوى إلى فراشي مبكراً . وفى بعض الأحيان ، بعد أن أكون أطفأت شمعتى ، تنغلق عيناى بمنتهى السرعة بحيث لا يتسع لى الوقت لأقول : « سأنام » . وبعد نصف ساعة توقظنى فكرة أن الوقت حان لكى أنام ، فأحاول أن أضع من يدى الكتاب الذى كنت إخالنى لم أزل أحمله فى يدى، وأن أطفىء الشمعة : وقد كنت أفكر طول الوقت وأنا نائم فيما كنت أطالعه منذ برهة ، إلا أن أفكارى جنحت فى مسار خاص بها ، إلى أن يخيل لى أنى صرت فعلا موضوع كتابى هذا : صرت كنيسة ، أو معزوفة رباعية ، أو المنافسة فيما بين فرانسوا الأول وشارل الخامس. ويظل هذا الانطباع ماثلا لحظات بعد استيقاظى ، أجل أنه لم يبلبل عقلى ، ولكنه يربن كالقشور فوق عينى ويمنعهما من إدراك الواقع ، وهو أن الشمعة لم تعد مشتعلة . ثم يبدو هذا الانطباع لى غير معقول ، على نحو ما تبدو أفكار حياته الأولى لمن تجسد ثانية طبقاً لنظرية تناسخ الأرواح ، وهكذا تنفصل موضوعات كتابى عن شخصى ، تاركة لى الحرية فى أن أكون جزءاً منه ، أو أن أجد نفسى راقداً فى الظلام الذى يريح العينين ويطيب لهما ، ولعله أطيب وأروح أيضاً لعقلى الذى كان يرى تلك التخيلات غير مفهومة ولا سبب لها .

وأسأل نفسى ما عسى أن تكون الساعة الآن ، وأتسمع صفير القطارات الذى يترامى لى عن بعد أو عن قرب ، فيحدد لى المسافة ،

كما يحددها صوت طائر فى الغابة . هذا الصفير كان يرينى فى الظلام صورة الريف المقفر الذى يخترقه المسافر المتعجل صوب أقرب محطة ، والمسار الذى يمشى فيه ، وقد رسخ فى ذاكرته إلى الأبد ، وسط استثارة أعصابه لوجوده فى مكان غريب ، وللأعمال غير العادية التى يقدم عليها ، والكلمات الأخيرة من المحادثات ، وكلمات التوديع المتبادلة تحت مصباح غير مألوف ما زالت ترن فى أذنيه فى سكون الليل ، مختلطة بتوقعه المبهج للعودة مرة أخرى إلى البيت :

أتسمع هذا الصفير ، وأتخيل تلك الرؤى ، وأضع خدى بلطف على وجنتى وسادتى المريحة ، وهما وجنتان بضتان مزدهرتان مثل وجنتى الطفولة . وقد أشعل عود ثقاب لأنظر إلى ساعتى ، الوقت يقترب من منتصف الليل . وهى بعينها تلك الآونة التى يستيقظ فيها عليل اضطر للقيام برحلة وللنوم فى فندق غريب .. يستيقظ فى لحظة ألم ويرى بسرور وارتياح خيطاً من ضوء النهار يطل من تحت باب حجرة نومه . يا لفرحته الطاغية عندئذ ! إنه الصبح ! وما هى إلا دقيقة حتى يستيقظ الخدم ، ويصير فى وسعه أن يرن الجرس ، فيأتى أحدهم ليلبى نداءه . ويعمل على راحته . وتفكيره فى هذا يمده بالقوة ليتحمل آلامه . إنه متأكد من أنه سمع وقع أقدام . واقتربت هذه الأقدام ، ثم خفتت وخمدت : وانطفأ الشعاع الذى كان ينفذ من تحت بابه. إنه منتصف الليل، ولابد أن أحداً أطفأ نور الغاز الآن، ثم ذهب آخر خادم إلى فراشه . وعليه إذن أن يرقد طيلة الليل غارقاً

فى عذابه ، وما من أحد يخف لنجدته أو يقدم له العون :

وقد أستغرق فى النوم مرة أخرى ، وكثيراً ما أستيقظ بعد ذلك لفترات قصيرة لا أكثر ، لا تطول إلا ريثما أسمع خشخشة منتظمة مصدرها بطانة الجدار الخشبية ، أو ريثما أفتح عينى لأتمعن فى الظلام السائد حولى ، ولأتذوق — فى لمحة إدراك حسى خاطفة — ذلك النوم العميق الذى يرين على الأثاث ، وعلى الحجرة ، وعلى كل الأشياء المحيطة بى ، التى أنا جزء هين منها ، وسوف أعود لمشاركتها لأوعيها حين أنام بعد برهة قصيرة جداً : أو ربما أكون وأنا نائم قد عدت بدون أدنى مجهود منى إلى مرحلة مبكرة من حياتى ، تجاوزتها الآن تماماً ، وارتددت إلى عبودية مخاوف الطفلية ، مثل رعبى القديم من أن يجذب عمى الأكبر خصلات شعرى : ذلك الرعب الذى تبدد منذ اليوم الذى قصوا لى فيه هذه الخصلات ، فكان هذا إيذاناً بعهد جديد لى : وكنت قد نسيت حادث قص شعرى وأنا نائم ، ولكنى نجحت فى استعادته بعد أن أفلحت فى استيام يقظتى ، وبذلك صرت بنجوة من أصابع عمى الأكبر : ومع هذا أجدنى — على سبيل الاحتياط المطلق — أدفن رأسى كله فى الوسادة قبل أن أعود إلى عالم الأحلام .

وأحياناً أيضاً ، على نحو ما خلقت حواء من ضلع آدم ، كذلك قد تتمثل لى امرأة وأنا نائم ، نتيجة شىء من التوتر أو الإرهاق فى وضع أطرافى : وقد تكونت هذه المرأة من الاشتهاء الذى كنت

على وشك إشباعه وأنا نائم ، فأتصور أنها هى التى أتاحت لى إشباع شهوتى . ويحس جسدى بأن حرارته هى التى كانت تغمر حرارتها ، وتمتزج بها ، فيتوق إلى أن يندمج فيها ، وعندئذ أستيقظ . ويبدو لى سائر البشر بعيدين عنى جداً بالمقارنة بهذه المرأة التى لم أترك صحبتها إلا منذ هنيهة : فخذى لم يزل حاراً بتأثير قبلتها ، وجسمى لم يزل منحنياً تحت ثقل جسمها . وإذا كانت هذه المرأة — كما هو الحال أحياناً — على صورة امرأة ممن عرفتهن فى ساعات اليقظة ، فإنى أرخى لنفسى العنان تماماً للبحث عنها دون سواها ، شأن من يمضون فى سفر أو رحلة لكى يروا بأعينهم مدينة معينة كانوا دائماً فى شوق إلى زيارتها ، ويخيل إليهم أنهم يمكن أن يتذوقوا فى الواقع ما كان قد فتن مخيلتهم وسحرها : ثم رويداً رويداً تخفت ذكراها وتتلاشى ، إلى أن أنسى تماماً فتاة حلمى هذا :

وعندما يكون المرء نائماً ، تكون من حوله حلقة من سلسلة الساعات ، وتعاقب السنوات ، ونظام الأجرام السماوية . وبدافع من غريزته ينظر إلى هذه الأمور عندما يستيقظ ، وفى لمحة واحدة يدرك وضعه الخاص على وجه الأرض ، ومقدار الوقت الذى انقضى أثناء نعاسه . ولكن هذه النظم يمكن أن يختلط ترتيبها وتنحل صفوفها وعراها . وهب أنه ، قرب الصباح ، وبعد ليلة أرق ، هبط عليه الكرى وهو يقرأ ، فى وضع مختلف عن ذلك الوضع الذى تعود أن يلم به النعاس فيه ، فإذا به إذا رفع ذراعه يتصور أنه ما إن يرفع

ذراعه حتى يمسك بالشمس ويعيدها إلى الوراء فى مسارها ، وفى لحظة اليقظة لا تكون لديه فكرة عن الوقت ، ويحسب أنه إنما أوى إلى فراشه منذ لحظة واحدة . أو فلنفرض أنه أغفى فى وضع أشد شذوذاً ، وهو جالس فى مقعد وثير مثلا بعد العشاء ، عندئذ ينقلب الكون كله رأساً على عقب ، ويحمله المقعد الوثير بطريقة سحرية وبأقصى سرعة عبر الزمان والمكان ، وعندما يفتح عينيه مرة أخرى سيخيل إليه أنه نام قبل ذلك بعدة شهور ، فى بلد بعيد جداً . ولكن الأمر فى حالتى ، إذا ما نمت فى فراشى الخاص ، أن نومى يكون فى غاية الثقل بحيث يسترخى وعيى تماماً ، وأفقد كل إحساس بالمكان الذى ذهبت للنوم فيه . وعندما أصحو فى منتصف الليل ، لا أعرف أين أنا ، بل ولا أعرف فى بادئ الأمر من أنا ، ولا يكون لدى إلا إحساس أولى جداً بالوجود ، كذلك الإحساس الذى يكمن ويومض فى أعماق وعى حيوان . وأكون عندئذ أشد تجرداً من الصفات والخواص البشرية من سكان الكهوف البدائيين . ولكن الذاكرة تبدأ فى الازدحام — لا بالمكان الذى أنا فيه فعلا — بل بأماكن أخرى شتى كنت قد عشت فيها من قبل ، ومن الممكن جداً أن أكون موجوداً بها الآن ، فإذا بهذه الذكريات كأنها حبل تدلى من السماء ليرتفع بى ويخرجنى من هاوية اللاوجود ، التى ما كنت لأستطيع النجاة منها بمفردى . وإذا بى فى لحظة واحدة ، كومضة البرق ، أجتاز وأتخطى قروناً من المدينة ، ومن سلسلة متعاقبة من

مصابيح البترول نصف المرئية ، تعقبها قمصان ذات ياقات مفتوحة مطوية ، وأفلح فى تجميع الأجزاء المكونة لذاتى تدريجاً .

ولعل ثبات الأشياء التى تحيط بنا مفروض عليها من جانب اقتناعنا بأنها هى هى بذاتها ، وليست أى شىء آخر ، ومن جانب ثبات مفهومنا عنها . لأنه كان يحدث دائماً عندما أستيقظ على هذه الصورة ، ويناضل عقلى فى محاولة فاشلة لاكتشاف أين أنا ، أن أحس بكل شىء يدور من حولى فى الظلام : كل شىء يدور ، من أشياء ، وأماكن ، وسنين . وإذا بجسمى ، الذى لم يزل مثقلا جداً بالنوم بحيث لا يستطيع حراكاً ، يبذل جهداً ليتبين ما فرضه تعبه من اتجاه على مختلف أعضائه ، لكى يستنتج من ذلك أين مكان الجدار ، وأين مواضع الأثاث ، ولكى يجمع الأشتات المبعثرة ويطلق اسماً على البيت الذى لابد أنه يقطنه . وذاكرة جسمى — التى هى ذاكرة مركبة من ذاكرات أضلاعه وركبتيه وألواح كتفيه — تقدم لجسمى سلسلة كاملة من الحجرات التى نام فيها فى هذا الوقت أو ذاك : وفى هذه الأثناء تظل الجدران غير المرئية تتغير وتتبدل ، مكيفة نفسها بشكل كل حجرة تتعاقب على الذاكرة ، ولا تكف الجدران على هذه الوتيرة عن الدوران والتدويم بجنون تحت جنح الظلام : وقبل أن يتمكن مخى الذى يتمعن متى حدثت الأمور وماذا كان شكلها من تجميع انطباعات كافية تكفل له تحديد هوية الحجرة ، يكون جسمى قد استدعى من كل حجرة على التوالى كيف كان الفراش ،

وأين كانت الأبواب ؟ وكيف كان ضوء النهار يدخل من نوافذها ؟ وهل هناك ممر خارجها ، وماذا كان يدور بذهنى عندما غفوت ، وماذا وجدت فى ذهنى من الخواطر عندما صحوت ؟ ومن الجائز مثلا أن جنبى الذى تصلب من تحت جسمى ، يتخيل وهو يحاول أن يحدد وضعه ، أنه راقد ، ووجهه للحائط ، فى فراش كبير له ظلة ، وعندئذ أقول لنفسى على الفور :

— لابد أنى نمت بعد كل شىء ، ولم تأت ماما لتقول لى طابت ليلتك !

لأننى — هكذا تخيلت — كنت فى الريف عند جدى ، الذى مات منذ سنين : ولكن جنب جسمى الذى كنت راقداً فوقه احتفظ فى إخلاص وولاء من ذلك الماضى بانطباع ما كان عقلى لينساه أبداً ، وأعاد أمام عينى الشعلة المتوهجة للضوء الليلى فى وعائها من زجاج بوهيميا المصنوع على شكل قدر ، ومعلق ليتدلى من سلاسل مثبتة فى السقف ، والمدفأة المصنوعة من رخام سيينا Sienna فى حجرتى بكمبراى ، فى منزل عمتى الكبرى ، فى تلك الأيام الغابرة ، التى بدا لى عند يقظتى أنهـا الحاضر ، من غير تحديد واضح ، ولكنها تزداد وضوحاً بعد قليل عندما يتم صحوى .

وبعد ذلك تأتى ذكرى وضع مختلف . فيتنحى الجدار فى اتجاه مختلف : وإذا بى فى حجرتى بمنزل مدام دى « سان لو » فى الريف . رباه ! لابد أن الساعة الآن العاشرة ، ولابد أنهم فرغوا من تناول

العشاء ! لابد أننى نمت أكثر مما يجب ، فى تلك الغفوة الصغيرة التى أغفوها دائماً عندما أعود من السير مع مدام دى سان لو St. Loup، قبل أن أرتدى ثياب السهرة : وقد غبرت الآن سنوات كثيرة منذ أيام كمبراى . عندما كنت أعود من أطول وآخر المسيرات ، ويكون الوقت لم يزل متسعاً لكى أدرك انعكاس وهج الغروب على زجاج نافذة حجرتى . والحياة الآن مختلفة فى تانسنفيل Tansonville مع مدام دى سان لو ، ولون آخر من المتعة ذلك الذى أستمده الآن من المشى فى المساء فقط ، ومن ارتيادى فى ضوء القمر الطرق التى كنت ألعب فيها فى ضوء الشمس ، أما حجرة النوم التى سأنام فيها بعد قليل بدلا من ارتداء ثيابى للعشاء ، فإنى أستطيع أن أراها من بعد سحيق ، ونحن عائدان من مسيرتنا ، ومصباحها يشع نوره من النافذة ، كمنارة وحيدة فى ظلام الليل :

* * *

ولم تكن هـذه التحولات والتفجرات المختلطة من الذكريات تطول أكثر من بضع ثوان : وكثيراً ما كان يحدث لى ، وأنا تحت سلطان عـدم التأكد من أين أنا ، ألا أميز النظريات المتعاقبة التى يتألف منها هـذا الشك ، بأكثر ممـا نستطيع أن نميز — ونحن نرى جواداً يركض — الأوضاع المتعاقبة لأعضائه المتفرقة وهى معروضة أمامنا بالفانوس السحرى : ولكنى رأيت أولا إحدى الغرف التى كنت قد نمت فيها أثناء حياتى ، ثم ثانية ، ثم ثالثة وهكذا ، وفى

النهاية أعيد زيارتها جميعاً فى ثوانى حلم استيقاظى : فإذا حجرات فى الشتاء ، عندما آوى فيها إلى الفراش أدفن على الفور رأسى فى عش أبنيه من أشياء بالغة التباين : من ركن وسادتى ، وقمة بطانيتى ، وجانب من شال ، وحافة فراشى وفوق هذا ظلة من صحيفة مسائية، أجمع هذا كله وأركبه بمثل صبر الطائر حين يبنى عشه ويجعل من مختلف عناصره كلا متماسكاً . وإذا حجرات نمت فيها فى أوقات الصقيع وأنا جد سعيد بأننى محتم بها من العالم الخارجى (مثل طائر البحر الذى يبنى عشه فى نهاية نفق ويشعر بالدفء بين الثرى المحيط به) وحيث تظل النار مشتعلة طول الليل ، وأنام ملتفاً بعباءة مستكنة من الهواء الدافئ الطيب العبير ، الذى تشق ظلماته نار الكتل الخشبية التى لا تلبث أن يرتفع لهيبها ، وأنا فى نوع من الخلوة أو الخدر بلا جدران . فى كهف من الدفء منحوت فى قلب الحجرة نفسها، فى منطقة حرارية تتغير تخومها باستمرار مع تغير درجات الحرارة ، يبدو وكأنه لفحات هواء تهب على وجهى من أركان الحجرة، أو من أجزاء فيها قرب النافذة ، أو بعيدة عن المدفأة التى انتهى أمرها إلى البرودة . أو أرى نفسى فى حجرات نوم فى الصيف ، حيث يمتعنى أن أحس نفسى جزءاً من دفء المساء ، وحيث يلقى ضياء القمر الذى يضرب مصراع النافذة نصف المغلق على أسفل فراشى سلمه السحرى ، فأنام وكأننى فى الهواء الطلق ، كالطائر الصغير المسمى القرقف الذى يبقيه النسيم وادعاً فى بؤرة شعاع الشمس — وأحياناً

آنس نفسى فى حجرة من طراز لويس السادس عشر ، وأنا فى منتهى الحبور بحيث لا أستطيع أبداً أن أشعر بالشقاء الحقيقى ، حتى فى ليلتى الأولى بها : فهى تلك الحجرة التى كانت أعمدتها النحيلة تدعم سقفها ، وتنفرج لتكشف عن الفراش وتبقيه على حدة . وأحياناً أخرى فى تلك الحجرة الصغيرة التى كان سقفها مجوفاً على شكل هرم يشغل ارتفاع طابقين، وجدرانها مبطنة بخشب المهوجانى، ومنذ أول لحظة أسكر عقلى فيها عبير غير مألوف لأعشاب مزهرة،وأحسست عداء الستائر البنفسجية واللامبالاة الوقحة لدقات ساعات كانت تدق دقها المتواصل بكل قوتها كأننى لست موجوداً ! فى حين أن مرآة غريبة بلا رحمة ذات قوائم مربعة كانت تقف فى أحد أركان الحجرة وتنطبع فيها صورة ما حولى . فى هذه الحجرة كان عقلى يناضل ساعات متوالية ليقلع من مراسيه ، ويتجه إلى أعلى كى يدرك الشكل الحقيقى لها ، ويصل إلى نهاية هذا القمع الوحشى . وهكذا قضيت بها ليالى كثيرة قلقة بينما جسمى مستلق فى الفراش ، وعيناى تحملقان إلى أعلى ، وأنا أصيخ السمع مرهف الأذنين ، وخياشيمى تتشمم فى غير ارتياح ، وقلبى يخفق ، إلى أن تولى الاعتياد تغيير لون الستائر ، وألزم الساعة بالسكون ، وأضفى شيئاً من الرحمة على وجه المرآة المائل القاسى ، وأخفى أو بدد تماماً عبير الأعشاب المزهرة ، وقلل كثيراً من ارتفاع السقف.

العادة ! إنها لمدبر بارع ولكنه بطيء ، تبدأ بتعذيب العقل أسابيع

متوالية وإرهاقه بتدبيراتها الوقتية ، التى من حسن طالع العقل مع هذا أن يكتشفها، لأنه بدون معاونة العادة لن يستطيع بجهده الخاص أن يجعل الحجرة تبدو صالحة للسكنى .

* * *

يقيناً أنا الآن متيقظ تماماً . وقد تقلب جسمى للمرة الأخيرة ، وقام ملاك اليقين الطيب بجعل كل الأشياء المحيطة بى تستقر فى مواضعها ، وكذلك جعلنى أستقر تحت أغطية فراشى فى حجرة نومى ، كما بثت فى أماكنها الصحيحة على وجه التقريب ، وفى الضوء الحائل ، صوانى ، ومنضدة كتابتى ، ومدفأتى ، والنافذة المطلة على الشارع ، والبابان كليهما . ولكن لم تكن هناك فائدة لمعرفتى أنى لم أكن فى أى بيت من تلك البيوت التى كنت – فى لحظة الاستيقاظ البلهاء لو لم أنعم النظر جيداً – حرياً أن أعتقد للآن فى إمكان وجودها: ذلك أن الذاكرة كانت قد شرعت الآن فى الحركة . وفى العادة لم أكن أحاول العودة للنوم فى الحال ، بل كنت أنفق معظم الليل فى تذكر حياتنا فى أيام كمبراى الخوالى مع عمتى الكبرى ، وفى بلبك Balbec ، وفى باريس ، وفى دنسيير ، وفى فينسيا (البندقية) وسائر تلك البلدان . وأتذكر من جديد كل الأماكن والناس الذين عرفتهم ، وما رأيته فعلا منهم ، وما أخبرنى به الآخرون .

* * *

فى كمبراى ، مع نهاية فترة ما بعد ظهر كل يوم ، وقبل

الموعد الذى ينبغى أن أصعد فيه إلى فراشى بوقت طويل ، لأرقد هناك بلا نوم ، بعيداً عن أمى وجدتى ، كانت حجرة نومى تتحول إلى النقطة الثابتة التى تتركز عليها كآبتى وأفكارى المكروبة . وكان أحدهم قد خطرت له الفكرة السعيدة ، فكرة إهدائى – رغبة فى تلهيتى فى الأمسيات التى أبدو فيها بالغ الاكتئاب بصورة خارقة – فانوساً سحرياً ، كان يوضع فوق مصباحى ونحن ننتظر حلول موعد العشاء: وعلى منوال أساتذة المعمار ورسامى الزجاج فى العصر القوطى، كان هذا الفانوس السحرى يحول كثافة جدرانى إلى ألوان قوس قزح غير ملموسة ، وظاهرة خارقة للطبيعة متعددة الألوان ، تصور لى الأساطير كأنما هى منقوشة على نافذة متحركة . بيد أن أحزانى ازدادت بفعل هذه التلهية ، لأن هذا التغيير فى الإضاءة دمر انطباعى المعتاد عن حجرتى تدميراً لا يدانيه تدمير ، مع أن هذه الانطباعات المعتادة هى التى جعلت هذه الحجرة محتملة ، لولا عذاب اضطرارى للإيواء إلى فراشى فيها ، ولذا فأنا الآن لم أعد أتعرف عليها، وصرت قلقاً، كأنما أنا فى حجرة غريبة بأحد الفنادق، أو فى مسكن مفروش ، بمكان وصلت إليه لتوى ، بالقطار ، ولأول مرة .

وماذا كنت أرى فى ضوء هذا الفانوس السحرى ؟

من قلب الغابة الصغيرة المثلثة التى صبغت باللون الأخضر الداكن منحدر التل برز « جولو » Golo راكباً جواده فى خبب

مهتز ، وذهنه غاص بنيته الشريرة ، وتقدم فى وثبات وقفزات صوب قلعة جنيفييف دى برابان Geneviève de Brabant المسكينة .

وكانت هذه القلعة مبتسرة بخط منحن كان فى الواقع محيط إحدى البيضاويات الشفافة فى الشرائح التى كانت توضع فى أماكنها من الفانوس من خلال شق فيه . كان البادى جناحاً من أجنحة القلعة ، وأمامه يمتد المستنقع الذى وقفت على شطه جنيفييف ، غارقة فى خواطرها وأفكارها ، مرتدية نطاقها الأزرق . وكانت القلعة والمستنقع ملونين باللون الأصفر ، ولكنى كنت أستطيع أن أعرف لونهما من غير أن أراهما ، لأنه قبل ظهور الشرائح كان اللون الذهبى العتيق لاسم برابان الرنان قد دلنى على ذلك دلالة لا محل معها للخطأ . وتوقف « جولو » برهة وأصغى للخطبة القصيرة التى تلتها عمتى الكبرى ، وبدا عليه أنه فهمها تماماً ، لأنه عدل سلوكه بوداعة لا تخلو من شىء من الجلال ، لكى يتلاءم مع الإشارات الواردة فى النص . ثم ابتعد بجواده بنفس الخبب الارتجاجى الذى جاء به . ولم يكن هناك شىء يمكن أن يوقف تقدمه البطىء ، فلو تحول الفانوس السحرى عن موضعه لأمكننى أن أتبين جواد جولو وهو يتقدم عبر ستائر النافذة ، وينتفخ مع انحناءاتها ويغوص فى ثناياها . ولما كان جسم جولو نفسه من نفس المادة الخارقة للطبيعة التى صيغ منها جواده ، لذا كان يتخطى كل العقبات المادية ... يتخطى كل ما يبدو أنه يمكن أن يسد عليه الطريق ، بأن يمتصه فى داخل كيانه،

ويتمثله : فمقبض الباب مثلا ، تكيف به على الفور ، وطفا فوقه بلا توقف بعباءته الحمراء أو وجهه الشاحب الذى لم يفقد قط نبله أو اكتئابه ، ولم يظهر عليه شىء من علائم الاضطراب لمثل ذلك التحول فى مادته .

والواقع أنى وجدت الكثير من الفتنة فى هذه العروض الزاهية ، التى بدت وكأنها قادمة لتوها مباشرة من صميم الماضى الميروفنجى Merovingien لكى تنشر حولى انعكاسات مثل هذا التاريخ القديم . ولكنى لا أستطيع أن أعبر عن عدم الارتياح الذى أحسسته لمثل هذا الاقتحام من جانب الغموض والسحر والجمال لحجرة كنت قد أفلحت فى ملئها بشخصيتى ، حتى لم أعد أفكر فى الحجرة أكثر مما أفكر فى نفسى .

وبما أن المفعول المخدر للعادة قد تدمر ، لذا أشرع فى التفكير والشعور بأمور داعية للاكتئاب . فمقبض باب حجرتى ، الذى كان بالنسبة لى مختلفاً عن كل مقابض الأبواب الأخرى فى العالم ، بحيث بدا أنه ينفتح من تلقاء نفسه ومن غير أن أديره ، من فرط ما صارت إدارته لا شعورية ، إذا به الآن وقد صار جسماً خيالياً لجولو : وما إن يرن جرس العشاء حتى أجرى هابطاً السلم إلى حجرة المائدة ، حيث أرى المصباح الكبير المعلق ، الذى يجهل كل شىء عن جولو وذى اللحية الزرقاء ، ولكنه يعرف جيداً أسرتى وطبق لحم الضأن ... أراه يلقى نفس الضوء كالعهد به فى كل أمسية أخرى ، وألقى بنفسى

بين ذراعى أمى، التى جعلتها المصائب التى حاقت بجنيفييف دى برابان أعز على وأغلى من ذى قبل ، كما أن جرائم جولو قد دفعتنى إلى فحص أدق من المعتاد لسريرتى وطوايا ضميرى .

ولكنى بعد العشاء ، وا أسفاه ! ، كان محتماً على أن أغادر أمى ، التى تبقى للحديث مع الآخرين ، فى الحديقة إذا كان الجو بديعاً ، أو فى الرواق الصغير الذى يلوذ به الجميع عندما يكون الجو مطيراً ، فيما عدا جدتى التى كانت تؤمن أنه « من المؤسف أن يغلق المرء على نفسه الأبواب فى الريف » وتدخل فى مناقشات لا نهاية لها مع أبى فى أشد الأيام مطراً ، لأنه يصر على إرسالى إلى حجرتى ومعى كتاب بدلا من تركى أخرج إلى العراء : وتقول له بأسى :

— ليس بهذه الطريقة تجعله قوياً نشطاً ... هذا الرجل الصغير الذى يحتاج إلى كل القوة والصلابة اللتين يمكنه تحصيلهما :

ولكن أبى يهز كتفيه ، ويدرس البارومتر ، لأنه كان ذا ولع بالأرصاد الجوية . أما أمى فتلزم الصمت التام حتى لا تزعجه ، وترمقه باحترام حنون رقيق ، وتتحاشى أن تنفذ إلى خفايا عقله المتفوق . أما جدتى فهى كالعهد بها من الولع بالطبيعة فى جميع الأجواء ، حتى عندما ينهمر المطر كالسيول ، وعندئذ تسرع فرنسواز Francoise إلى الداخل بكراسى الجريد المجدول الثمينة ، حتى لا تغرقها العاصفة ، إلا أن جدتى تظل تذرع الحديقة المقفرة التى تلهبها العاصفة بسياطها ، وهى تدفع شعرها الأشيب المشعث

إلى الوراء ، لكى يتسنى لجبينها أن يتشرب أنفاس الحياة من هبات الريح والمطر ، وتقول لنفسها :

— أخيراً يستطيع المرء أن يتنفس !

وتجرى جيئة وذهاباً فى الممرات الغارقة فى ماء المطر ، وهى ضيقة الصدر باستقامة هذه المماشى وتماثلها ، لافتقار التذوق الحقيقى للطبيعة لدى البستانى الجديد ، الذى ظل أبى طيلة الصباح يسأله هل سيتحسن الجو ...

كانت جدتى تذرع الحديقة فى خطوات عصبية ارتجاجية طبقاً لإيقاع تأثيرات العاصفة على نفسها وأعصابها ، وهى مستاءة من غباء تربيتى الصحية ومن تماثل مماشى الحدائق فى آن واحد ، لا بأى دافع آخر من القلق (فهو شىء لم تعرفه) على تنورتها التى بلون البرقوق أن تلطخها بقع الطين إلى حد كان يسبب مشكلة لخادمتها ويملأ نفسها باليأس وهى تنظفها .

وعندما كانت هذه الجولات التى تقوم بها جدتى بعد العشاء تبدأ ، لم يكن هناك إلا شىء واحد لا يمكن أن يعجز عن إعادتها إلى داخل البيت ، وذلك (عندما تأتى بها قدماها إلى نطاق ضوء المصباح فى الرواق الصغير حيث وضعت أوانى الشراب على مائدة لعب الورق) حين تناديها عمتى الكبرى (أخت جدى) من ذلك المكان :

— يا باتيلد Bathilde ! تعالى كى زوجك عن شرب البراندى !

ذلك أن عمتى الكبرى — لمجرد رغبتها فى إغاظتها (لأنها جلبت إلى أسرة جدى عقلية غريبة جداً جعلت الجميع يضحكون منها) كانت تجعل جدى الممنوع من تناول الخمر يحتسى بضع قطرات من البراندى . وعندئذ تدخل جدتى المسكينة وترجو وتتوسل إلى زوجها ألا يذوق البراندى ، ويتظاهر بالضيق والاستياء ويتجرع قطرات الشراب القليلة على كل حال . وتخرج هى مرة أخرى حزينة مثبطة الهمة ، إلا أنها ما تزال مبتسمة ، لأنها كانت شديدة التواضع والعذوبة ، لأن لطفها مع الآخرين ، وإذعانها المستمر مهما كانت متاعبها الخاصة ، كانا يبدوان على محياها مندمجين فى ابتسامة تختلف عن الابتسامات التى ترى على وجوه معظم الناس ، لا أثر فيها للسخرية ، إلا من نفسها ، أما بالنسبة لنا فالقبلات تكاد تطفر من عينيها ، فهى لا تستطيع أن تنظر إلى من تحبهم من غير أن تتوق إلى إغداق الملاطفات الحانية عليهم . وألوان التعذيب التى كانت تصبها عليها عمتى الكبرى ، ومنظر توسلات جدتى التى لا جدوى منها ، ومنظرها فى ضروب ضعفها التى تقهر قبل أن تبدأ ، إلا أنها لا تكف عن استماتتها فى فطام جدى من كأس شرابه ... كل هذه الأمور كانت من النوع الذى يمكن للمرء أن يألفه ويتعود عليه فى سنواته التالية بحيث يبتسم ضاحكا منها ، وينضم إلى جانب معذبتها بكل التصميم الذى يوهم المرء أنها لا تنطوى على تعذيب حقيقى . ولكنها فى تلك الأيام الخوالى كانت تملؤنى بارتياع وسخط شديدين ، حتى أننى كنت

أتوق حينئذ لضرب عمتى الكبرى ! ولكنى فى تلك الأيام ، كنت بمجرد سماعها تصيح :

— باتيلد ! تعالى وكفى زوجك عن شرب البراندى !

كنت بسبب جبنى أتحول فوراً إلى رجل ، وأصنع ما نصنعه جميعاً نحن الرجال الناضجون عندما نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام العذاب والظلم ، فكنت أفضل ألا أراهما ، وأجرى صاعداً إلى قمة البيت لأبكى بمفردى فى حجرة صغيرة بجوار حجرة الدرس ، تحت السقف مباشرة ، كانت تفوح منها رائحة جذور السوسن ، وكانت معبقة أيضاً بعبير العنب البرى الذى كانت شجيرته قد تسلقت بين أحجار الجدار الخارجى ، ودست فرعاً مزهراً منها من خلال النافذة نصف المفتوحة . وكانت هذه الحجرة مخصصة لاستعمال معين ، ولذا فهى مهجورة . ومن نافذتها كنت أستطيع أن أمد بصرى حتى قلعة « روسانفيل لى بان » Roussainville - le - Pin . فصارت لوقت طويل المكان المفضل الذى ألوذ به ، وربما كان هذا لأنها الحجرة الوحيدة التى يسمح لى أن أغلق بابها بالمفتاح ، عندما يحتاج الأمر إلى عزلة تامة لا يقتحمها أحد ، كالقراءة ، أو الاسترسال فى الأحلام ، أو ذرف العبرات أو الاستسلام لنوبات الشهوة .

وا أسفاه ! لم أكن أعلم أن افتقارى إلى قوة الإرادة ، وضعف صحتى ، وما ترتب على هذا من حيرة فى أمر مستقبلى ، كانت تقلق بال جدتى أكثر كثيراً من خرق زوجها للقواعد والتعليمات ، وهى



واجرى صاعدا إلى قمـة البيت لأبكى بمفردى فى حجرة صغيرة بجوار حجرة الدرس ، تحت السقف مباشرة ..

تقوم بجولاتها تلك بعد الظهر وفى المساء ، ونحن ننظر إليها ذاهبـة آيبـة ، وقد رفعت إلى السماء وجههـا الوسيم بوجنتيهـا السمراوين المغضنتين اللتين اكتسبتا مع التقـدم فى السن اللون القرمزى الذى تكتسى به الحقول المحروثة فى الخريف ، وقد غطته ـ إن كانت خارج حـدود الحـديقة ـ بقنـاع نصف مرقوع ، وعلى هـاتين الوجنتين ترى آثار جفاف دموع سالت بغير إرادتها إما بتأثير البرد أو الخواطر الحزينة .

وكان عزائى الوحيد عندما أكون فى الطابق العلوى لقضاء الليل أن أمى خليقة أن تدخل على وتقبلنى وأنا فى فراشى : ولكن تحية المساء هذه كانت تستغرق وقتاً قصيراً جداً ، لأن أمى كانت تنزل ثانية بمنتهى السرعة ، بحيث ان اللحظة التى كنت أسمع فيها وقع خطاها وهى تصعد السلم ، ثم أسمع حفيف ثوب الحديقة الذى ترتديه من الموسلين الأزرق ، تتدلى منه شرابات صغيرة من القش المجدول ، وهى قادمة فى الدهليز الذى تحف به الأبواب من الجانبين ، كانت بالنسبة لى لحظة أسى عميق غاية العمق : وكان حبى شديداً جداً لتحية المساء هذه منها إلى حد أننى تمنيت أن تتأخر إلى أقصى وقت ممكن ، لكى أطيل وقت الإرجاء الذى لا تظهر فيه أمى : وأحياناً ، عندما تفتح الباب بعد تقبيلى لتمضى ، كنت أتوق إلى مناداتها لتعود ، ولأقول لها :

ـ قبلينى مرة أخرى واحدة !

ولكنى كنت أعلم أنها خليقة عندئذ أن يبدو عليها الاستياء ، لأن التنازل الذى كانت تقدم عليه، تحت ضغط اضطرابى وتعاستى ، بالصعود إلى بقبلة المصالحة هذه كان يغضب أبى ويثير ضيقه ، لأنه كان يرى أن هذه « الطقوس » سخيفة ، وكانت هى تود لو حاولت إقناعى بأنى كبرت وتجاوزت الحاجة إليها والتعود على وجودها معى على الإطلاق ، وذلك أمر مختلف جداً عن تعويدى على أن أطلب منها قبلة أخرى وهى تهم باجتياز العتبة . ومنظر استيائها كان كافياً للقضاء على كل إحساس بالطمأنينة كانت قد أتتنى به منذ لحظة ، عندما انحنت بوجهها المحب فوق فراشى ، ومدته نحوى كأنه القربان المقدس ، عند تناول الأسرار المقدسة ، وترشف شفتاى الإحساس بوجودها الواقعى ، ومعه أرشف القدرة على النوم :

ولكن هذه الأمسيات التى كانت أمى تقضى فيها وقتاً بالغ القصر فى حجرتى ، كانت عذبة حقاً بالقياس إلى الأمسيات التى كان لدينا فيها ضيوف على مائدة العشاء . لأنها فى هذه الليالى لم تكن تصعد إلى حجرتى إطلاقاً .

وكان « ضيوفنا » فى الواقع محدودين جداً . إنهم عبارة عن « المسيو سوان » Swann الذى كان — فيما عدا بعض الغرباء العابرين — هو الشخص الوحيد تقريباً الذى كان يأتى إلى البيت فى كمبراى ، لتناول عشاء غير رسمى كالعادة بين الجيران . (ولكن هذاقل حدوثه منذ زواجه المنكود ، لأن أسرتى لم تكن ترحب

باستقبال زوجته) وكان يحضر أحياناً بعد العشاء ، بغير دعوة : وفى تلك الأمسيات ، بينما نحن جلوس أمام البيت تحت شجرة الكستناء الكبيرة ، حول المائدة الحديدية المستديرة ، كنا نسمع من أقصى طرف الحديقة لا الجلجلة الكبيرة الصاخبة التى تعلن وتصم الآذان إذا ما دخل أحد الخدم ، بل نسمع الصليل المزدوج الحيى الذهبى لجرس الزوار ، وعندئذ يصيح كل واحد منا :

— هذا زائر ! ترى من يكون ؟

ولكنهم جميعاً كانوا يعلمون تمام العلم أنه لا يمكن أن يكون إلا مسيو سوان : وتقول عمتى الكبرى للآخرين بصوت مرتفع ، لكى تكون قدوة لهم ، ألا يتهامسوا هكذا ، لأنه ما من شىء يمكن أن يكون أشد إساءة للزائر الغريب عند دخوله من هذا الهمس، لأن ذلك يوحى إليه أنهم كانوا يقولون عنه شيئاً لا يريدونه أن يسمعه : ثم تنهض جدتى لتكون الطليعة الكشفية . وهى سعيدة دائماً بهذه الذريعة لجولة إضافية فى الحديقة ، وتستغل هذه الجولة فى تقويم أوتاد شجرة ورد أو إزالة ما علق بها من أوراق جافة كى تبدو الورود طبيعية ، على نحو ما تجرى يد أصابع الأم بين خصلات شعر ابنها بعد أن رجله الحلاق ، لتجعله يبدو أنيقاً حول رأسه .

ونظل كلنا فى أماكننا ، متشوقين إلى الكلمات التى عساها تند عن شفتى جدتى عندما تأتينا ببلاغها عن « العدو » ، كأنما كان هنالك

شيء من الشك والحيرة بين عدد كبير من الغزاة المحتملين ، وعندئذ سرعان ما يقول جدى :

— إنى أسمع صوت سوان :

والواقع أن المرء يمكن أن يتبينه من صوته وحده ، لأنه كان من العسير تبين وجهه بأنفه المعقوف وعينيه الخضراوين ، تحت جبين مرتفع يتوجه شعر أشقر ، يكاد يكون أحمر اللون ، حليقاً على طراز بريسانت . ذلك أننا كنا معتادين فى الحديقة على استخدام أقل إضاءة ممكنة ، كى نتجنب البعوض : وأنسل أنا مبتعداً كأنى لا أرمى إلى هدف معين ، لأطلب منهم أن يخرجوا الأشربة والعصائر ، لأن جدتى كانت حريصة — لأنها تظن ذلك أظرف وأليق — على ألا يبدو تقديمها خارقاً للعادة الجارية بين أهل البيت ، مع أننا لم نكن نقدمها إلا للضيوف فحسب :

ومع أن المسيو سوان كان أصغر سناً من جدى بكثير ، إلا أنه كان شديد الارتباط به ، ذلك أن جدى كان فى زمانه صديقاً حميماً لوالد سوان ، وهو رجل ممتاز ولكنه غريب الأطوار ، كان أتفه شيء قادراً على تحويل تيار أفكاره فيما يبدو : وكنت أسمع عدة مرات فى السنة جدى يروى على المائدة القصة التى لم تتغير قط عن سلوك المسيو سوان الأكبر عند وفاة زوجته ، التى ظل بجوار فراشها ليلا ونهاراً : وكان جدى — الذى لم يكن رآه منذ مدة طويلة — قد سارع إليه فى ضيعة آل سوان فى ضواحى كمبراى ،

واستطاع أن يستدرجه للخروج لحظة وهو منخرط فى النحيب إلى خارج حجرة المتوفاة ، حتى لا يكون موجوداً بها عند وضع الجثة فى التابوت . وجال معه جولة أو جولتين فى الحديقة التى كان بها شيء من شعاع الشمس : وفجأة أمسك المسيو سوان الكبير بذراع جدى وصاح :

— أوه يا صديقى العزيز ! ما أسعد حظنا لأننا نمشى ها هنا معاً فى مثل هذا اليوم البديع ! ألست ترى معى كم هى جميلة كل هذه الأشجار : انظر إلى طائرى البرى ! وانظر إلى بركتى الجديدة التى أعاتبك الآن لأنك لم تهنئنى بإنشائها ! ثم مالى أراك واجم المحيا بهذه الصورة ؟ ألست مستمتعاً بهذا النسيم العليل ؟ آه ! قل ما شئت ! فما أطيب الحياة على كل حال يا عزيزى أميديه Amédée !

وعندئذ عاودته فجأة ذكرى زوجته الميتة . ولعله تبين إلى أى حد يبدو معقداً أنه سمح لنفسه بأن يغمره الآن هذا الشعور بالسعادة والبهجة ، فصدرت عنه إيماءة كان من عادته أن تصدر عنه كلما حيره أمر من الأمور يعجز ذهنه عن تفسيره ، وذلك أنه مر بيده على جبينه ، وجفف عينيه ، ومسح نظارته : ولم يمكن أن يتعزى قط عن فقد زوجته ، ولكنه تعود أن يقول لجدتى ، على امتداد العامين اللذين عاشهما بعدها :

— يا له من أمر سخيف مضحك ! إنى كثيراً جداً ما أفكر فى

زوجتى الراحلة ، ولكنى لا أستطيع أن أفكر فيها كثيراً فى الآونة الواحدة :

وصارت عبارة : « مرات كثيرة ، ولكن لمدة وجيزة فى كل مرة ، مثل صديقى القديم سوان » من العبارات الأثيرة لدى جدى ، التى كان يرددها ويطبقها على كافة أنواع الموضوعات ؛ وكنت خليقاً أن أظن والد المسيو سوان هذا وحشاً ، لولا أن جدى — الذى كنت أعده حكماً أفضل منى ، وكانت كلمته قانوناً لى وكثيراً ما جعلتنى أحكامه على المدى الطويل أغتفر إساءات كنت لولا هذا خليقاً أن أدينها — كان يردف القصة بقوله عن المسيو سوان الأب :

— ولكنه على كل حال كان ذا قلب من ذهب :

ومع أن المسيو سوان الابن ظل لسنوات طويلة — ولا سيما قبل زواجه — كثير التردد لزيارة جدى والأسرة فى كمبراى ، إلا أن عمتى الكبرى وجدى وجدتى لم يخامرهم الشك قط فى أنه انقطع تماماً عن الحياة فى نفس المجتمع الذى كانت تعيش فيه أسرته وتتردد عليه ، أو أنهم — تحت الاسم التنكرى الذى كان يمثله المسيو سوان لدينا — كانوا يخالطون — بكل براءة أسرة من التجار الشرفاء يعيش فى وسطهم قاطع طريق من غير أن يرتابوا فيه — واحداً من ألمع أعضاء نادى الجوكى ، وصديقاً خاصاً

للكونت دى بارى C. de Paris ، وللأمير ويلز ، وواحداً من أكثر الرجال الذين يسعى إليهم ويخطب ودهم الوسط الأرستقراطى فى فوبور سان جرمان St. germain :

وكان جهلنا التام بالدور المتألق الذى يؤديه سوان فى الوسط الراقى راجعاً بالطبع — إلى حد ما — إلى تحفظه وتكتمه ، ومن جهة أخرى إلى أن أهل الطبقة الوسطى فى تلك الأيام كانت نظرتهم إلى المجتمع أشبه بالنظرة الهندية ، وبناء على هذه النظرة كان المجتمع — عندهم — مقسماً إلى طبقات شديدة التحديد، بحيث إن كل واحد كان يجد نفسه عند مولده مدعواً لشغل نفس المكان الذى كان يشغله والداه فى المجتمع ، وما من شىء عدا النجاح الباهر فى العمل أو « الزواج الطيب » يمكن أن ينقلك من هذا المكان الموروث أو يدخلك فى طبقة أعلى .

ومسيو سوان الأب كان سمساراً فى المصفق (البورصة) ، وهكذا وجد « سوان الابن » نفسه مندمجاً — مدى الحياة — فى طبقة تتفاوت المكانة فيها — كما هو الحال فى قوائم دافعى الضرائب — طبقاً لمستويات الدخل . وكنا نعرف الناس الذين كان الأب يخالطهم ؛ وبالتالى صرنا نعرف من هم مخالطوه ، أى الذين تؤهله مكانته الاجتماعية المحددة للاختلاط بهم : ولئن اتضح أنه عرف إلى جانب هؤلاء أشخاصاً آخرين ، فأولئك معارف حديثو السن ، يغض معارفه القدامى — أمثال أسرتى — أبصارهم عنهم فى تسامح .

ولا سيما لأن سوان الابن ، الذى صار يتيماً ، زاد حرصه على مواصلة زيارتنا : ولكننا كنا واثقين أن معارفه الجدد لابد أن يكونوا من طراز لا يجرؤ سوان أن يرفع قبعته له إن صادفهم فى الطريق وهو سائر معنا !

ولو كان هناك تصميم على تحديد مجتمع خاص بسوان، مختلف عن المفروض فى كل أبناء السماسرة فى سوق الأوراق المالية من طبقة والده الراحل ، لكان تصورهم لهذا المجتمع الخاص به أدنى من مجتمعهم شخصياً ، فهو من قوم يحيون حياة بالغة البساطة ، وكان لهم ولع شديد بالعاديات والصور ، لذا فهو يعيش ويكدس الآن مجموعاته فى بيت عتيق كانت جدتى تتوق لزيارته ، ولكن هذا البيت كائن فى رصيف أورليان Orléans ، فى منطقة كانت عمتى الكبرى تعتقد أنه مما يحط قدر الإنسان أن يقطنها ؛ وكانت تقول له :

— أأنت الآن خبير حقاً بالفنون ؟ إنى أوجه إليك هذا السؤال حرصاً على صالحك أنت ، فمن الممكن أن يدس عليك التجار لوحات مزورة :

ذلك أنها فى الواقع لم تكن ترى فيه أى ملكة ناقدة ، وليست لديها أى فكرة عن مواهب رجل وذكائه ، وهى تراه فى أحاديثه يتجنب الموضوعات الجادة ويظهر دقة مملة لا عندما يتكلم عن وصفات الطهو فحسب ، بحيث يدخل فى تفصيلات دقيقة ، بل

وعلى الخصوص عندما تخوض معه شقيقات جدتى فى حديث عن الفن : وعندما يتحدينه أن يبدى رأيه أو يظهر إعجابه بصورة ما، يظل صامتاً بشكل مناف فى عرفهن للتهذيب ، ثم يعوضهن عن ذلك بالكلام (إن أمكن) عن المتحف المعلقة فيه الصورة ، أو عن تاريخ رسمها . ولكنه فى العادة يكتفى بمحاولة تسليتنا بسرد قصة آخر مغامرة له — ولديه قصة جديدة يرويها لنا فى كل مرة — مع أحد من نعرفهم ، مثل صيدلى كمبراى ، أو طباختنا ، أو حوذينا . وكانت هذه الحكايات تضحك عمتى الكبرى ، ولكنها لم تكن تستطيع القطع هل ما أضحكها هو الأدوار العبثية التى يعزوها مسيو سوان لنفسه فى هذه المغامرات ، أم هو روح الفكاهة التى يبديها وهو يرويها لنا :

— من الجلى أنك نمط قائم بذاته يا مسيو سوان !

ولما كانت عمتى الكبرى هى العضو الوحيد فى أسرتنا الذى يمكن أن يوصف بأنه « عامى » بعض الشىء ، لذا كانت تحرص دائماً على أن تقول للغرباء ، عندما يجرى ذكر سوان : إنه كان بمقدوره بسهولة — لو شاء — أن يقطن فى بولفار أوسمان Haussmann أو شارع الأوبرا ، وإنه ابن نجل سوان الكبير الذى لابد أنه ترك أربعة أو خمسة ملايين فرنك ، ولكن سكنه حيث يقيم كان إحدى نزواته . وهى « تقليعة » كانت تعتقد أنها تسلى الناس ، حتى أنها عندما تكون فى باريس ويزورها مسيو سوان فى يوم رأس

السنة حاملا إليها لفافة صغيرة من « المارون جلاسيه » ، لا تنسى أبداً أن تقول له ، إن كان فى الحجرة غرباء :

— أما زلت يا مسيو سوان تقطن بالقرب من أقبية النبيذ ، حتى تضمن أن القطار لن يفوتك إذا كنت متوجهاً إلى ليون ؟

وتنظر بطرف عينها ، من فوق نظارتها للزائرين الآخرين .

ولكن لو أن أحداً قال لعمتى الكبرى هذه إن سوان هذا بعينه ، الذى كان مؤهلا تمام الأهلية بصفته ابن المسيو سوان الكبير لأن تستقبله الطبقة المتوسطة العليا ، وأجدر المحامين بالاحترام فى باريس (وإن كان ميالا لترك هذا الامتياز الوراثى فى حالة ركود بعض الشىء) — أجل لو قيل لها : إن سوان هذا بعينه له حياة أخرى تكاد تكون سرية من نوع مختلف تماماً ، وإنه عندما يغادر بيتنا فى باريس ، قائلا : إنه يجب أن يمضى إلى بيته الآن لينام ، ما إن يدور فى منعطف شارعنا حتى يقف ، وينكص على عقبيه ، ويذهب إلى حجرة استقبال لم تقع قط على مثيلتها عينا سمسار أو مخالط سماسرة ، لكان هذا خليقاً أن يبدو لعمتى الكبرى أمراً خارقاً ، مثلما يبدو لامرأة أخرى أوسع منها اطلاعاً لو أنها على صلة حميمة بأرستايوس Aristaius أنه بعد أن يتم حديثه معها يغوص فى أغوار ممالك تيتيس Thétis ، فى عالم محجوب عن أعين البشر الفانين ، ويصفه فرجيل virgile بأنه يستقبل هناك بأذرع مفتوحة. أو لكى نكتفى بصورة يمكن أن تخطر لعمتى الكبرى فعلا — لأنها

رأتها مصورة على الصحاف التى كنا نستخدمها لتقديم البسكويت فى كمبراى — فلنقل إنها تناولت العشاء وعلى مائدتها على بابا ، وإنه بمجرد أن وجد نفسه منفرداً خالياً بذاته ولا يرقبه أحد ، شق طريقه إلى المغارة الزاخرة بكنوزها التى لا يتصورها أحد :

وذات يوم ، بعد أن حضر لزيارتنا بعد العشاء ، وبعد أن قدم اعتذاره لحضوره فى ثياب السهرة ، أخبرتنا فرانسواز بعد انصرافه أنها عرفت من حوذى مركبته أنه كان يتعشى « مع إحدى الأميرات » : فتشدقت عمتى الكبرى متهكمة :

— أميرة من نوع أعرفه جيداً !..

وهزت كتفيها من غير أن ترفع عينيها عن الصوف الذى تحبكه، فى سخرية وزراية رصينة !

وعلى وجه العموم ، كانت عمتى الكبرى تعامله باستخفاف بعض الشىء : ولما كانت تعتقد أنه ينبغى أن يشعر بالزهو لتوجيهنا الدعوات إليه ، لذا كانت ترى من واجبه — من باب اللياقة — ألا يحضر أبداً لزيارتنا فى الصيف بدون سلة من الخوخ أو الشليك من قطاف بستانه ، وأنه يجب كلما عاد من إحدى زياراته لإيطاليا أن يأتينا معه من هناك ببعض الصور الفوتوغرافية للوحات كبار الرسامين ، هدية لى .

وبدا لها من الطبيعى جداً — والحالة هذه — أن ترسل إليه طالبين — كلما أردنا — وصفة عمل نوع خاص من الصلصة أو سلطة

الأناناس لإحدى حفلات عشائنا الكبرى ، التى لا ندعوه شخصياً إليها ، لاعتقادنا أنه من غير اللائق تقديم مثله لأصدقاء جدد يزورون بيتنا للمرة الأولى !

وكانت عمتى الكبرى حين يجرى فى الحديث ذكر أمراء بيت فرنسا ، تقول للمسيو سوان بلهجة لاذعة :

— أولاء قوم لا أنت ولا نحن سنعرفهم. ولا نريد أن نعرفهم ؛ أليس كذلك ؟

ولعله كان فى جيب مسيو سوان فى هذه اللحظة رسالة من « تويكنهام » Twickenham ! وقد تكلفه فى بعض الأمسيات بعزف الموسيقى المصاحبة عندما تغنى شقيقة جدتى . وهكذا كانت تعامل ذلك المخلوق — الشديد الندرة والرهافة فى أزمنة وأمكنة أخرى — بالبساطة الخشنة التى يلهو بها طفل غرير بتحفة يتناولها من الخزانة بكل الاستهانة كما لو كانت دمية لا يزيد ثمنها عن درهم ! وما من شك فى أن سوان للذى كان وجهاً مألوفاً فى كل الأندية الراقية فى تلك الأيام ، كان يختلف أشد الاختلاف عن سوان الذى ارتسم فى ذهن عمتى الكبرى ، عندما أهل علينا ذات مساء فى حديقتنا الصغيرة بكمبراى ، بعدالرنتين الحييتين الصادرتين من البوابة ، ولم نتبين وجهه فى البداية وهو قادم وفى أثره جدتى ، ومن وراء خلفية من الظلال ، ولكننا عرفناه من صوته المتميز ؛

ولكن ، وسط تفصيلات حياتنا اليومية البالغة التفاهة ،

لا يمكن أن يقال إن أى واحد منا له كيان متكامل متماسك ، هو هو بعينه بالنسبة لكل إنسان ، ويمكن أن يتعرفوا عليه ويقلبوه كأنه صفحة فى دفتر حسابات أو نص فى وصية . فشخصيتنا الاجتماعية تخلقها أفكار الآخرين عنا . وحتى قولنا ببساطة إننا رأينا شخصاً نعرفه ، إنما هو إلى حد ما عملية ذهنية . فنحن نحزم الشكل الخارجى لهذا المخلوق الذى نراه مع كل الأفكار التى كوناها بالفعل ، وفى الصورة التامة التى لدينا عنه والتى نركبها نحن فى أذهاننا يكون لتلك الأفكار بالتأكيد المكان الرئيسى . وفى النهاية تأتى هذه الأفكار لتملأ بالكامل منحنى خديه ، وتحدد بالضبط شكل أنفه ، وتندمج تماماً فى جرس صوته ، بحيث إننا كلما رأينا وجهه أو سمعنا صوته تكون فكرتنا عنه هى التى نتعرف عليها ، وهى التى نصغى إليها ؛

وتأسيساً على هذا تكون أسرتى بلا شك قد كونت عن سوان لأغراضها الخاصة صورة أغفلت فيها — بسبب جهلها — حشداً كبيراً من تفصيلات حياته اليومية فى عالم الأناقة ، وهى تفصيلات بواسطتها كان الآخرون يرون — حين يلتقون بسوان — كل ربات الفنون والإلاهات متوجة فى محياه ، وواقفات عند خط أنفه الأقنى وقفتهن عند تخومهن الطبيعية، ولكن أهلى فى الوقت نفسه حرصوا على أن يطبعوا على هذا الوجه — الذى أخلوه من كل امتياز ، حتى صار كالبيت المتسع الخاوى — سيماء أنس غير محدد ولكنه

لطيف ، نصفه تذكر ونصفه نسيان ، معطر برائحة تلك الساعات الفارغة الرخية التى قضوها معه بعد عشائنا الأسبوعى معاً حول مائدة لعب الورق المستديرة ، أو فى حديقتنا ، أثناء معيشتنا فى الريف .

وكان هيكل جسم صديقنا مبطناً بهذا الإحساس ، وبذكريات أخرى متباينة عن أسرته ، حتى أن سوان الخاص بأسرتنا صار فى نظرها مخلوقاً تام التكوين موجوداً فى الواقع . إلى درجة أننى الآن حين أرجع بذاكرتى من سوان الذى عرفته بعد هذا معرفة جيدة إلى سوان القديم ، أحسبنى بإزاء شخص مختلف تماماً . فسوان القديم أتعرف فيه على أخطاء طفولتى ، وهو أيضاً مختلف عن خلفه الذى عرفته فيما بعد أكثر من اختلافه عن الناس الذين عرفتهم فى ذلك الحين : كأنما حياة المرء سلسلة من المتاحف أو صالات العرض معلقة فيها كل صور من كان يجمعهم شبه فى الشكل ، أو الصوت . فسوان الأول القديم كان كثير الفراغ ، معبقاً بعبير شجرة الكستناء الكبيرة ، وسلال الشليك (الفراولة) ، وعصير الطرخون .

ومع هذا حدث ذات يوم ، عندما ذهبت جدتى لتسأل مكرمة من سيدة كانت قد عرفتها فى مدرسة القلب المقدس (وكانت بناء على نظريتنا فى فوارق الطبقات الحاسمة لم تحرص على استدامة الصلة الوثيقة بها برغم ما بينهما من اهتمامات مشتركة) ؛

وهذه السيدة هى المركيزة دى فيلبارسيس Mar. de villeparsis من بيت بويون الشهير .. حدث أن قالت لها هذه المركيزة :

– أظنك تعرفين المسيو سوان معرفة جيدة جداً ، وهو صديق حميم لأبناء أختى ، آل دى لوم De Laumes!

فعادت جدتى من هذه الزيارة وهى تثنى أطيب الثناء على الدار ، التى تطل على الحدائق ، والتى نصحتها المركيزة بأن تكترى طابقاً منها ، وتتحدث عن خياط يصلح الثياب القديمة يملك هو وابنته حانوتاً صغيراً فى الفناء، وقد دخلت ذلك الحانوت وطلبت منهما حياكة فتق فى ثوبها أصابه وهى تصعد السلالم . وقالت جدتى : إنها وجدت الرجل وابنه لطيفين جداً ، وإن هذه الفتاة جوهرة ، ووالدها الخياط رجل ممتاز ، بل إنه من أحسن من التقت بهم . ذلك أن الامتياز فى نظر جدتى كان شيئاً مستقلا تماماً عن الوضع الاجتماعى ، وكانت فى غاية الإعجاب بإجابة سمعتها من ذلك الخياط ، وقالت لأمى :

– إن مدام دى سفينييه Sevigné نفسها ما كانت لتقول ما هو أبدع من هذا .

وعلى سبيل المفارقة ، قالت عن ابن أخت للمركيزة التقت به هناك :

– آه يا عزيزتى ! كم هو عامى !

ومن هذا يتضح أن تلك الإشارة إلى سوان لم ترفعه فى نظر

عمتى الكبرى ، بل خفضت المركيزة دى فيلبارسيس وحطت من قدرها : ويبدو أن الاحترام الذى كنا نكنه — اعتماداً على شهادة جدتى — للمركيزة كان يفرض على هذه المركيزة واجباً فى مقابله هو ألا تصنع شيئاً يمكن أن يجعلها أقل جدارة باحترامنا ، وها هى قد قصرت فى هذا الواجب بأن نزلت إلى مستوى الإحساس بوجود سوان ، والسماح لأعضاء فى أسرتها بمخالطته !

— كيف جاز لها أن تعرف سوان ؟ وهى السيدة التى كنت دوماً تؤكدين قرابتها للمارشال مكماهون Mac Mahon ؟!

وهذه النظرة إلى وسط سوان الاجتماعى السائدة فى أسرتى ، يبدو أنها تأكدت فيما بعد بزواجه بامرأة من أسوأ طبقة ، ويكاد يحق لك أن تسميها متهتكة : ولكنه — ونقول هذا إنصافاً له — لم يحاول قط أن يقدمها لنا ، لأنه ظل يحضر لزيارتنا بمفرده ، وإن كان حضوره تناقص بمرور الأيام ، ولكن ذلك جعلهم يتخيلون — بما أنه التقى بها فى تلك البيئة الخاصة به — ما هى حقيقة هذه البيئة التى كان يتحرك فى داخلها عادة :

ولكن حدث ذات مرة أن قرأ جدى فى إحدى الصحف أن المسيو سوان من أكثر المدعوين المخلصين إلى مائدة غداء يوم الأحد فى قصر الدوق س : الذى كان والده وعمه فى عداد أبرز رجال الدولة فى عهد الملك لوى فيليب Louis - Philippe . وكان جدى تشوقاً جداً إلى معرفة كل التفصيلات الصغيرة التى يمكن أن

تساعده على معرفة شىء عن الحياة الخاصة لرجال مثل « موليه » Molé ، والدوق دى بسكييه Pasqier ، أو الدوق دى برولى Broglie : وقد أسعده أن يكتشف أن سوان يخالط أقواماً ممن عرفوهم . إلا أن عمتى الكبرى قطعت عليه هذا الخبر المنشور بأسلوب له ذم وحط من قدر سوان : ففى نظرها أن كل شخص ، وأى شخص ، يختار مخالطيه من خارج طبقته التى ولد فيها ، وفيها نشأ ، ومن خارج مكانته الاجتماعية الصحيحة ، مقضى عليه فى حكمها بالهوان والسقوط : وبدا لها أن من يفعل هذا يتنازل عن كل حق له فى الاستمتاع بثمرات هذه العلاقات الودية مع أناس من ذوى المكانة الحسنة التى نماها الوالدان وادخراها لابنهما ، حتى أن عمتى الكبرى هذه انقطعت عن استقبال ابن أحد المحامين ممن كنا نعرفهم ، لأنه تزوج «صاحبة سمو» وبذلك هبط — فى نظرها — عن الوضع المحترم لابن المحامى إلى حضيض المغامرين الأفاقين والوصوليين من الخدم والسياس ممن نقرأ أن الملكات قربنهم واتخذن منهم الخلان فى بعض الأحيان : ولذا اعترضت عمتى الكبرى على أن يسأل جدى المسيو سوان ، عندما يأتى فى المرة التالية ليتعشى معنا ، عن هؤلاء الناس الذين اكتشف جدى صداقة سوان لهم . ومن جهة أخرى ، كانت شقيقتا جدتى ، وهما عانستان مسنتان تشاركان جدتى نبل طبعها وخلقها ولكنهما تفتقران إلى ذكائها ، قد قالتا : إنهما لا تستطيعان أن تتصورا أى



وكانت فى يد عمتى الكبرى نسخة من صحيفة الفيجارو مكتوب فيها تحت صورة بريشة كورو فى معرضه أنها « من مجموعة مسيو شارل سوان »

لذة يمكن لزوج أختهما أن يجدها فى الحديث عن مثل هذه التفاهات.

وكانت شقيقتا جدتى سيدتين شديدتى الطموح ، لذا كانتا لا تطيقان الاهتمام بما يمكن أن يسمى تفاهات الحياة الرخيصة ، حتى ولو كانت لها قيمة تاريخية ، أو بوجه عام كل ما ليس وثيق الارتباط بشىء قيم من الناحية الجمالية . ومن ثم كان عدم اهتمامهما التام بأى شىء يبدو جزءاً من حياتنا العادية ، من قبيل الخوض فى الأحاديث الدنيوية ، ولو على مائدة الطعام ، فتسارعان بالاتجاه بالحديث إلى موضوعات أشد أناقة وسمواً ، أو يشرد ذهنهما تماماً ! فإذا ما أراد جدى أن يجتذب انتباه الشقيقتين ، فعليه أن يستخدم حيلة أشبه بالحيل التى يستخدمها أطباء الأمراض العقلية لاستلفات انتباه مرضاهم ، فيدق بحد سكينه على أحد الأكواب عدة مرات ، ويرشقهما فى الوقت نفسه بكلمة حادة ونظرة زاجرة . وهى أساليب يستخدمها أطباء المجانين فى حياتهم العادية أيضاً بين الأصحاء ، إما بحكم العادة المهنية ، أو لأنهم يحسبون كل الناس مجانين بعض الشىء !

وازداد اهتمامهن مع هذا ، عندما أرسل سوان فى اليوم السابق لتناوله العشاء معنا ذات مرة هدية خاصة هى صندوق من نبيذ أستى Asti . وكانت فى يد عمتى الكبرى نسخة من صحيفة الفيجارو مكتوب فيها تحت صورة بريشة كورو Corot فى معرضه إنها « من مجموعة مسيو شارل سوان » ، فسألت :

— أرأيتم أن اسم سوان « مذكور » فى الفيجارو Figaro ؟

فقالت جدتى :

— ولكنى كنت أقول لك دائماً إنه يتمتع بقسدر كبير من حسن الذوق :

فردت عليها عمتى الكبرى :

— إنك حرية أن تقولى أى شىء ، لمجرد أن تبدى مختلفة عنا ؛

ذلك أنها كانت تعلم أن جدتى لم تتفق معها قط فى الرأى ، ولما كانت غير واثقة بأن رأيها الخاص هو ما يؤيده سائرنا بلا اختلاف ، لذا أرادت أن تنتزع منا إدانة عامة إجمالية لآراء جدتى ، وكانت تطمع أن تجبرنا على التساند معها ضد آراء جدتى :

ولكننا جلسنا صامتين ، وأعربت شقيقتا جدتى عن رغبتهما فى التنويه أمام سوان بذكر الفيجارو لاسمه ، فثنتهما عمتى الكبرى عن هذا العزم. فكلما رأت فى الآخرين مزية — مهما كانت تافهة — تفتقر هى شخصياً إليها ، أقنعت نفسها بأنها ليست مزية على الإطلاق ، بل نقيصة ، تأسى عليها ، لكى لا تضطر إلى حسدها . وقالت :

— لا أحسب هذا يمكن أن يسره على الإطلاق : هذا شىء أعرفه جيداً ، فأنا شخصياً خليقة أن أكره أن أرى اسمى مطبوعاً على هذه الصورة ، واضحاً وضوح الشمس فى الضحى ، فى إحدى الصحف . وما كنت لأشعر بالغبطة أو الزهو إذا ما حدثنى أحد عن هذا !

ولكنها ، مع هذا ، لم تقم بالضغط الشديد جداً على شقيقتى جدتى ، لأنهما لفرط فزعهما من السوقية توصلتا إلى أن تجعلا من تجنب الإسهاب فى الإشارة إلى الأمور الشخصية فناً جميلا ، بحيث يمر تلميحهما الموجه إلى الشخص المقصود من غير أن يفطن إليه هذا الشخص الذى أرادتا الثناء عليه :

أما والدتى ، فكان كل تفكيرها منحصراً فى محاولة استدراج أبى للموافقة على التحدث إلى سوان ، لا عن زوجته ، بل عن ابنته التى كان يعبدها ، والتى خصيصاً لأجلها كان مفهوماً أنه قرر فى النهاية عقد هذا الزواج المنكود :

— لا حاجة بك إلا أن تقول كلمة واحدة . اسأله فقط كيف حالها . فلا بد أن تجاهلنا لها ثقيل الوقع عليه .

ولكن أبى ضاق بهذا الكلام ، وقال لها :

— لا . لا . ما أسخف أفكارك : هذا غير معقول ... كم سيكون هذا سخيفاً ومضحكاً ؟

ولكن الشخص الوحيد من بيننا الذى كان قرب وصول المسيو سوان نذير شؤم له ، كان أنا ! والسبب فى هذا أن الأمسيات التى يكون فيها عندنا زوار ، ولو لم يكن هناك إلا مسيو سوان وحده ، هى الأمسيات التى لم تكن أمى تصعد فيها إلى حجرتى . وكنت فى ذلك الحين لا أتناول العشاء مع الأسرة ، بل كنت أخرج إلى الحديقة بعد العشاء ، وفى الساعة التاسعة أقول:

طابت ليلتكم وأصعد إلى فراشى : ولكنى فى هذه الليالى كنت أتعشى مبكراً ، قبل الآخرين ، ثم أدخل بعد ذلك وأجلس إلى المائدة حتى الثامنة ، وهى الساعة التى يكون مفروضاً أننى لا بد أن أصعد فيها إلى حجرتى : أما تلك القبلة الرقيقة الثمينة التى كان من عادة أمى أن تتركها دائماً على شفتى وأنا فى فراشى ، وعلى وشك النوم ، فعلى فى هذه الأمسيات أن أحملها معى من حجرة المائدة إلى حجرتى ، وأن أظل حريصاً عليها طيلة الوقت الذى أستغرقه فى خلع ثيابى ، حتى لا ينحل سحرها ويتبدد ، ولا يتشتت عطرها ويتبخر . وفى تلك الأمسيات بالذات التى يجب أن أحرص فيها على تناول هذه القبلة بأسلوب رسمى للغاية ، كنت أختطفها ؛ هكذا على رءوس الأشهاد ، من غير أن يتسع أمامى الوقت أو تتوفر لى الحرية كى أتحرى فى هذا الإجراء ذلك الالتزام بالشكليات وحرص الذهن ، الذى يتسم به تصرف المجانين الذين يفلحون فى تنحية كل الأفكار الأخرى من أذهانهم وهم يغلقون باباً ، حتى إذا هاجمهم الوسواس واجهوه وانتصروا عليه بتذكر اللحظة المحددة التى أغلقوا فيها الباب فعلا !

وكنا جميعاً فى الحديقة عندما صلصل الجرس عند البوابة على استحياء ، وعرف الجميع أنه لابد أن يكون سوان ، ومع هذا نظر كل واحد إلى الآخر فى تساؤل ، وبعثوا جدتى للاستطلاع : وقال جدى لشقيقتى زوجته محذراً !

— تحريا أن يكون شكركما له على هدية النبيذ مفهوماً وواضحاً ، فأنتما تعرفان أنه من النوع الفاخر ، وأن الصندوق من الحجم الكبير !

فقالت عمتى الكبرى :

— كفوا عن التهامس ! أتحبون أن تدخلوا بيتاً فتجدوا كل من فيه يغمغمون لأنفسهم ؟

وصاح أبى :

— ها هو المسيو سوان ! فلنسأله أيعتقد أن الجو سيكون جميلا غداً ! ؟

وتصورت أمى أن كلمة منها ستكون كفيلة أن تمحو كل الكدر الذى حرصت أسرتى على إشعار سوان به منذ زواجه : وانتهزت فرصة فانتحت به جانباً لحظة ، ولكنى تبعتها ، فلم يكن بمقدورى أن أدعها تبتعد عنى وأنا أشعر أنه سيتعين على بعد بضع دقائق أن أتركها فى قاعة المائدة وأصعد لآوى إلى فراشى من غير الفكرة المعزية لى فى الأمسيات العادية ، وهى توقع صعودها فيما بعد لكى تقبلنى :

وقالت له أمى :

— والآن يا مسيو سوان ، كلمنى عن ابنتك : أنا واثقة أنها منذ الآن تنبئ عن تذوق جميل للأشياء الجميلة ، مثل أبيها :

وقالت جدتى ، وهى تتجه نحوه :

— تعال واجلس الآن معنا جميعاً هنا فى الشرفة :

فاضطرت أمى لقطع الحديث، وترك السؤال، ولكنها استطاعت أن تستمد من القيد نفسه رهافة فى الإحساس والتعبير، على نحو ما يصنع كبار الشعراء عندما يضطرهم الوزن والقافية إلى ابتداع مزيد من الروعة فى أبياتهم، فقالت — أو بالأصح همست — لمسيو سوان :

— سيمكننا الكلام عنها ثانية عندما نكون وحدنا، فالأم وحدها هى التى تستطيع أن تفهم هذه الأمور، وأنا واثقة أن والدتها ستتفق معى فى هذا :

وهكذا جلسنا جميعاً حول المنضدة المستديرة، وكنت أتمنى ألا أفكر فى ساعات القلق والكرب التى يتحتم على أن أقضيها هذا المساء وحدى فى حجرتى، عاجزاً عن النوم. ورحت أحاول أن أقنع نفسى بأن هذه الساعات من العذاب لا أهمية لها فى الواقع، لأنى سأكون قد نسيتها فى الصباح التالى، وحاولت أن أركز ذهنى فى أفكار عن المستقبل الذى سيحملنى، كما يحملنى الجسد، عبر الهاوية التى تفغر فاها تحت قدمى، ولكن ذهنى المثقل برهبة هذا النذير المشئوم لم يمكننى — وأنا أديم النظر إلى أمى — من السماح لأى انطباع آخر أن يتطرق إلى تفكيرى. أجل إن أفكاراً أخرى دخلت إلى ذهنى، ولكن بشرط أن تتجرد عند دخولها فيه من كل جمال أو طرافة يمكن أن يسليانى أو يلهيانى : وكما ينظر المريض الراقد فى حجرة العمليات الجراحية وهو تحت تأثير مخدر موضعى إلى

تفصيلات جراحة تجرى له بوعى كامل، ولكنه مع ذلك لا يشعر بشىء، كذلك كان بمقدورى أن أعيد فى ذاكرتى بعض الأشعار التى أحبها، أو أرقب جدى وهو يحاول أن يحدث سوان عن الدوق دودريفيه — باسكييه، من غير أن أستمد من الشعر جذوة شعور، أو أجد فى حديث جدى بارقة متعة :

وما كادت شقيقتا جدتى اللتان رن فى أذنيهما سؤال جدى ذاك، وكأنه فترة صمت وخواء غير لائقة يحتم عليهما تهذيبهما قطعها بإثارة حديث جدى ملائم، حتى قالت إحداهما للأخرى :

— تصورى يا فلورا Flora ! لقد قابلت اليوم مربية سويدية شابة روت لى أموراً شائقة عن الحركة التعاونية فى اسكندينافيا : ينبغى حقاً أن ندعوها للعشاء هنا ذات ليلة :

فقالت أختها فلورا :

— طبعاً ! ولكنى لم أضيع وقتى عبثاً أنا الأخرى ! فقد التقيت بسيد مسن لدى المسيو فانتى Vanteuil، يعرف موبان Maubant معرفة جيدة. وقد أخبره موبان كيف يؤلف أدواره. وهذا أطرف شىء سمعته. وهو جار للمسيو فانتى : ولم أكن أعرف هذا، ثم إنه ظريف جداً.

فقالت خالتى سلين Celine بصوت بدا لها عالياً لأنها كانت شديدة الخجل والتهيب، ولكنها بدت كالمضطرة لهذا لأنها كانت قد خططت لإلقاء خطبتها القصيرة منذ زمن طويل؛ ورمقت

المسيو سوان بمـا تسميه هى « نظرة ذات معنى خاص » :

ــ ليس المسيو فانتى هو الشخص الوحيد الذى له جـيران لطفاء ظرفاء ...

وأدركت خالتى فلورا أن هذه العبارة المقنعة هى طريقة سلين الخاصـة لشكر المسيو سـوان « بصورة واضحة ومفهومة » على هديته من نبيذ أستى الفاخر ، فنظرت إليه هى أيضاً بمزيج من التهنئة والسخرية ، إما لأنها أرادت أن تؤكد وتبرز عبارة أختها البارعة ، أو لأنها حسدت سوان على أنه ألهمها ؛ أو لمجرد أنها تخيلت أنه محرج ، فلم تتمالك نفسها من الرغبة فى التسلية على حسابه .

وواصلت فلورا كلامها قائلة :

ــ أظن أنها مسألة تستحق النظر أن ندعو هذا السيد المسن إلى العشاء . فأنت متى استدرجته للحديث عن موبان أو مدام مترنا Meterna ، انطلق يتحدث ساعات وساعات بلا توقف .

وتنهد جدى وقال :

ــ لابد أن يكون هذا مبهجاً .

وكانت الطبيعة قد نسيت أو أغفلت لسوء الحظ أن تزود ذهن جـدى بأى قدرة من أى نوع على الاهتمام أو الولع بالحـركة التعاونية بين سيدات السويد ، أو بطريقة تأليف موبان لأدواره ، تمـاماً كما أغفلت الطبيعة إضـافة قليـل من الملح الثمين إلى ذوق

شقيقتى جدتى لتحسين مذاق أى حديث عن الحياة الخاصة لموليه Molé أو الكونت دى بارى .

وقال سوان لجدى :

ــ ما كنت بسبيل إخبارك به له علاقة أكثر مما يمكن أن نتصور بمـا كنت تسألنى عنه الآن ؛ لأن الأمور لم تتغير إلا بمقدار قليل جداً من بعض الوجوه ؛ فقد وقع نظرى هذا الصباح على فقرة فى « سان سيمون » St. Simon كانت حرية أن تثير اهتمامك وتشوقك . وهذه الفقرة موجودة فى المجلد الذى يغطى بعثته إلى أسبانيا . وهى ليست من أحسن كتاباته ، فهى ليست أكثر كثيراً من مذكرات أو يوميات ، ولكنها يوميات مكتوبة كتابة جيدة ، بل رائعة ، تميزها عن هذه الصحافة التى نشعر أننا مضطرون لقراءتها فى هذه الأيام ، صباحاً وظهراً ومساء .

فقاطعته خالتى فلورا قائلة ، لكى تبين لسوان أنها قرأت ما ذكرته الفيجارو عن لوحة كورو :

ــ لست أتفق معك فى هذا الرأى . فإننى فى بعض الأيام أجد قراءة الصحف ممتعة حقاً !

فقالت خالتى سلين بمزيد من الوضوح :

ــ أجل ! وذلك عندما تكتب عن أشياء أو أشخاص يهمنا أمرهم !

فأجاب سوان فى شىء من الحيرة :

— لست أنكر هذا : وما أعيبه على الصحافة أنها ترغمنا على الاهتمام ببعض التفاهات الجديدة فى كل يوم : فى حين أن ثلاثة أو أربعة كتب فقط فى مدى العمر كله تكفى لإمدادنا بأى شىء له قيمة حقيقية . لنفرض مثلا أننا فى كل صباح ، ونحن نمزق رباط صحيفتنا بأيد محمومة ، وجدنا تحولا حاسماً قد حدث ، فنجد فى داخلها — أوه ! لا أدرى بالضبط . أنقول نجد فيها « أفكار » بسكال ؟

وتفوه بهذا العنوان بتركيز تهكمى حتى لا يبدو متحذلقاً، ثم أردف مظهراً ازدراءه للأمور الدنيوية الفانية .

— ثم قرأنا فى المجلدات المذهبة المزخرفة التى نفتحها مرة كل عشر سنين أن ملكة اليونان وصلت إلى مدينة كان ، أو أن أميرة ليون أقامت حفلة رقص تنكرية . عندئذ نصل إلى النسبة الصحيحة بين « الإعلام » و « الدعاية » .

وندم على الفور على أنه سمح لنفسه أن يتكلم — ولو مازحاً — عن أمور جدية ، فأردف ساخراً :

— أرى حديثنا شائقاً جداً ، ولست أدرى لماذا يتسلق إلى هذا الارتفاع الشاهق .

ثم التفت إلى جدى وقال له :

— نعود إلى « سان سيمون » ، إنه يروى كيف تجاسر موليفرييه Moulevrier على مد يده إلى أولاده . وأنت تتذكر

ولا شك قوله عن موليفرييه : « إنى لم أجد قط فى هذه القنينة الفظة شيئاً سوى الجهامة والملل وضيق الصدر والحماقة » .

فقالت فلورا بخفة ، وهى تشعر أن من واجبها شكر سوان كما شكرته أختها ، بما أن هدية صندوق نبيذ أستى Asti الفاخر كانت مقدمة إلى كلتيهما :

— قنينة فظة أو غير فظة ، سيان ! أنا أعرف قنانى فيها شىء مختلف جداً عن هذا .

وبدأت سلين تضحك .

وارتبك سوان ولكنه استطرد :

— ويكتب سان سيمون بعد ذلك « لست أدرى هل فعل هذا عن جهالة ، أم كان هذا فخاً . لقد أراد أن يقدم يده إلى أولادى ؛ ولكنى فطنت إلى هذا فى الوقت المناسب ومنعته » :

وكان جدى منتشياً بتعبير « عن جهالة أم كان فخاً » . ولكن الآنسة سلين كان اسم سان سيمون — الأديب — قد أيقظ سمعها من شلله التام ، فغضبت وقالت :

— ماذا ؟ أتعجب بهذا ؟ هذا قول فيه براعة ! ولكن ما جدواه ؟ أهو يعنى أن الناس ليسوا سواسية ؟ وما عسى أن يكون الفرق سواء أكان الرجل دوقاً أم خادماً ، ما دام ذكياً وطيباً ؟ إن صاحبك سان سيمون له طريقة حسنة حقاً فى تربية أولاده ، إن لم يكن قد علمهم أن يصافحوا كل الناس الشرفاء ؟ هذا شىء

بشع حقاً وصدقاً ! ثم ها أنت تجسر على الاستشهاد بنص منه !

واكتأب جدى اكتئاباً شديداً ، ولم يستطع أمام هذه المعارضة أن يحاول حمل سوان على الإفضاء إليه بالحكايات التى كان من الممكن أن تمتعه ، وهمس لأمى :

— اذكرى لى مرة أخرى ذلك البيت الذى يريحنى سماعه فى مثل هذه المناسبات . آه ! تذكرت !

« كم من الفضائل ، يا ربى تجعلنا نمقتها ! » وهذا قول جميل جداً حقاً !

ولم أكن حولت عينى قط عن أمى ، فقد كنت أعلم أنهم متى جلسوا إلى المائدة ، لم ينبغ لى أن أبقى هناك طيلة مدة تناول العشاء ، وأعلم كذلك أن أمى — خشية إغضاب أبى — لن تسمح لى على الملأ بأن ألثمها تلك السلسلة من القبلات التى أمطرها بها فى حجرتى ، ولذا وعدت نفسى بأننى ، ونحن فى حجرة المائدة ، وقد شرعوا فى الأكل والشرب ، ومتى أحسست اقتراب الساعة ، سأشحن مقدماً هذه القبلة الواحدة — التى لابد أن تكون مختصرة وكالمسترقة فى قطافها — بكل ما يمكننى أن أشحنها به من المشاعر ، وسوف أنتقى بعناية بالغة جداً النقطة المضبوطة من خدها التى أطبع عليها هذه القبلة ، وسوف أهيئ أفكارى سلفاً بحيث أتمكن بفضل هذا الإعداد الذهنى لتكريس اللحظة التى تسمح لى فيها أمى بتقبيلها ، وأن تمس شفتاى وجنتها ، لتكون أشبه بما يصنعه الرسام الذى لا يجلس

أمامه موضوعه أو نموذجه إلا لحظات قصيرة ، بحيث يختزن هذه اللمحات ومن استعادتها فى ذاكرته ، ومن الرسوم التخطيطية التى أعدها سلفاً ، أن يقطر إحساساته كلها ويعتصرها فى غيبة موضوعه الحبيب إلى نفسه . ولكن فى هذه الليلة بالذات ، وقبل أن يرن جرس العشاء ، قال جدى بقسوة لا شعورية :

— فتانا الصغير يبدو مجهداً . وخير له أن يأوى لفراشه .. ثم إننا سنتعشى فى وقت متأخر الليلة .

وعندئذ قال أبى ، الذى كان أقل من جدتى أو أمى تدقيقاً فى تنفيذ حرفيات المعاهدة بيننا :

— نعم . هيا انهض . واذهب إلى فراشك !

وكنت خليقاً أن أقبل أمى هناك ، فى تلك اللحظة على الفور ، لولا أن جرس العشاء رن وقال أبى :

— لا . لا . دع أمك . لقد قلت : طابت ليلتكم بما فيه الكفاية . ثم إن هذه الاستعراضيات سخيفة جداً . هيا اصعد إلى فوق !

وهكذا تحتم على أن أنصرف على الفور ، صفر اليدين من كل تعويض ، وأن أصعد كل درجة من درجات السلم رغم أنفى ، وكأنى أدوس على قلبى ... أجل صعدت فى اتجاه مضاد لتيار رغباتى جميعاً ، التى كانت تتلخص فى العودة إلى أمى ، لأنها

لم تأذن لقلبي بقبلتها المشتهاه أن يصحبني فى هذا الصعود . وهكذا صعدت أنا وظل قلبي معها !

يا لذلك السلم البغيض ! الذى كنت أصعده دائماً برعب شديد، وتنبعث منه باستمرار رائحة « الورنيش » الذى تشبعت به أخشابه إلى حد ما ، فتساعد على تحديد وتثبيت ذلك اللون الخاص من الأسى الذى كنت أحسه كل مساء وأنا أصعده ، وتجعل هذا الصعود أقسى على حساسيتى ، بما تشركه فى إحساساتى من وظيفة الشم ، بحيث لا يستطيع ذهنى صداً ولا مقاومة .

إننا حين نذهب لننام وفى أحد أسناننا ألم حاد يورث الجنون، ويكون إحساسنا به لا يزيد عن إحساسنا ببنت صغيرة تحاول المرة بعد المرة انتشالها من الماء ، أو ببيت من شعر موليير نكرره لأنفسنا بلا انقطاع ، تكون اليقظة من ذلك النوم مصدر راحة كبيرة لنا ، لكى يتمكن ذكاؤنا من تمييز فكرة ألم الأسنان من أى مشابهة صناعية للبطولة أو الإيقاع الشعرى . ولقد كان نقيض هذا الارتياح تماماً هو ما شعرت به عندما اقتحم كرب صعودى بهذه الصورة إلى حجرتى وعيي بأسلوب أسرع بكثير ، بل يكاد يكون فورياً . بأسلوب غادر وفظ ووحشى فى آن واحد وأنا أشم رائحة هذا « الورنيش » فوق ذلك السلم ، فكان لهذه الرائحة نفاذ سام أشد سمية من أى إيلام معنوى .

وبمجرد أن دخلت إلى حجرتى كان على أن أسد كل منفذ ،

وأن أغلق المصاريع الخشبية ، وأحفر لحدى الخاص وأنا أرفع أغطية الفراش ، لكى ألف نفسى فى كفن قميص نومى . ولكن قبل أن أدفن نفسى فى السرير الحديدى الذى وضعوه هناك، لأننى فى ليالى الصيف أشعر بحرارة شديدة جداً بين أستار السرير الخشبى الضخم ، ثارت نفسى ، وحاولت الإقدام على تنفيذ حيلة يلجأ إليها سجين محكوم عليه بالإعدام : فكتبت إلى أمى أرجوها أن تصعد لسبب هام جداً لا يمكننى تسجيله كتابة ! وكان كل خوفى أن فرنسواز — طباخة عمتى التى جرت العادة على تكليفها برعاية أمورى عندما أكون فى كمبراى — قد ترفض أخذ قصاصتى ؛ وجال بذهنى أنها قد تنظر إلى حمل رسالة وتوصيلها إلى أمى وهناك ضيف غريب فى حجرة المائدة، على أنه أمر لا يمكن تصوره ، تماماً كإقدام بواب المسرح على تسليم خطاب إلى ممثل وهو على خشبة المسرح أثناء التمثيل . فلدى فرنسواز قانون خاص لما يجوز وما لا يجوز ، وهو قانون صارم، غزير المواد ، متشعب ، دقيق، خفى ولا هوادة فيه ، وينطوى على اعتبارات لا علاقة لها بصلب الموضوع ، مما يجعل قانونها هذا أشبه بالقوانين القديمة التى تنص على أوامر ونواه صارمة ، مثل قتل الأطفال الرضع فى حالات معينة ، وتحريم « سلق الجدى فى لبن أمه » أو « أكل العصب الذى فوق تجويف الفخذ » . إنه قانون لو حكمنا عليه بالعناد المفاجئ الذى قد تبديه عند رفض تنفيذ بعض أوامرنا ، لوجدناه لا يمكن

أن يكون صادراً عن تربيتها أو حياتها العملية لخادمة فى بيت ريفى. ولذا كنا مضطرين إلى افتراض وجود سابق لها عاشته فى تاريخ فرنسا القديم ، وجود فيه نبل غامض لا نفهمه ، مثلما توجد قصور قديمة فى المدن الصناعية الآن تشهد بما كان لها من أيام مجد ملكية ؛ وفى هذه المدن نرى عمال الصناعات الكيماوية يكدحون وسط جدران منقوش عليها لوحات تمثل معجزة ثيوفيلوس أو أبناء إيمون الأربعة .

وفى هذه الحالة بالذات ، كانت مادة من قانونها المقدس تمنعها ــ اللهم إلا فى حالة نشوب حريق ! ــ أن تنزل وتزعج أمى والمسيو سوان موجود . ولماذا تزعجها ؟ من أجل شخص لا أهمية له مثلى ! هذه المادة من قانونها كانت تستمد قوتها بصفة خاصة ، من الاحترام الذى تبديه ــ لا لأسرتى فحسب ــ بل ومثلما تبديه من الاحترام أيضاً للكهنوت (القسوس) والموتى والأسرة المالكة .. بل وأيضاً للضيف الغريب الموجود داخل حرم بيتنا . وهو احترام لعلى كنت أجده مؤثراً لو قرأته فى صفحات كتاب ، ولكنه كان يغيظنى دائماً عندما أسمعه من شفتيها ، بسبب رصانة لهجتها ورقتها وهى تتفوه به ؛ وكان يغيظنى أكثر وأكثر من المعتاد فى هذه الليلة ، لأن الشخص الذى أقيمت من أجله حفلة العشاء قد يجعلها إجلاله تتشبث بالمحافظة على إطارها الرسمى . ولكنى احتلت لنجاح مقصدى فكذبت عليها بدون تردد ، فقلت لها :

إن رسالتى ليست عن رغبة منى فى الكتابة إليها من تلقاء نفسى ؛ بل إن أمى هى التى طلبت منى وهى تلتقى على تحية المساء ألا أنسى الكتابة إليها عن شىء طلبت منى البحث عنه ؛ وأنها بلا شك سوف تغضب جداً ما لم تصلها هذه الرسالة فوراً .

وأعتقد أن فرنسواز لم تصدقنى ، لأنها ــ شأنها شأن أولئك البدائيين الذين وهبتهم الطبيعة حواساً أشد حدة من حواسنا ــ تعرف على الفور من علامات لا ندركها نحن مدى صدق أو كذب أى شىء نحب إخفاءه عنها . ولذا ظلت تفحص المظروف خمس دقائق كأنما الورقة نفسها ومنظر خط يدى يمكن أن يدلاها على طبيعة المحتويات ، أو على أى مادة من قانونها تنطبق عليها هذه المسألة . ثم انصرفت فى إذعان يكاد يقول :

ــ ما أشقى والدين لهما مثل هذا الطفل !

وبعد لحظة عادت لتقول : إنهم ما زالوا فى مرحلة المثلجات ، وإنه كان من المستحيل على كبير الخدم أن يسلم الرسالة فوراً ، أمام أنظار الجميع . ولكن متى وضعت أمامهم أوعية الماء لغمس أصابعهم فيها سينتهز فرصة لدسها فى يد أمى . وعلى الفور هدأ قلقى . فالآن لم يعد أمامى الانتظار (كما كان الحال منذ لحظة) حتى الصباح لأحظى برؤية أمى . ذلك أن ما سطرته إليها وإن كان سيضايقها ولا شك ، ولا سيما لأن هذه الحيلة ستجعلنى أبدو سخيفاً فى عينى المسيو سوان ، إلا أنه سيتيح لى على كل حال أن أنشر

لخاطرها وكأنى معها فى نفس الحجرة ، بل وكأنى أهمس فى أذنها بكلماتى وشوقى ورغبتى فى تلك الحجرة المحرمة المعادية التى كانت المثلجات بما فيها من بندق محمص تقدم فيها ، وكأنها لذات تثير الحزن وتحمل نوازع الشر ، لا لشىء إلا لأن أمى تنعم بها وأنا بعيد عنها . ولكن حيلتى فتحت لى أبوابها المحرمة ، ومثل فاكهة ناضجة توشك أن تطفو من قشرتها إلى حلقى ، بل إلى قلبى المنتشى ، ستتدفق لذة اتجاه فكر أمى نحوى وهى تطالع رقعتى : كلا ! لم أعد الآن بعيداً عنها . لقد تهتكت الحواجز ، ونفذ منها خيط من السعادة يجمع بيننا . ليس هذا فحسب ! لأن أمى ستأتى قطعاً !

وأما عن العذاب الذى مررت به ، فلأنى تخيلت أن سوان خليق أن يضحك منى لو أنه قرأ رسالتى وحدس هدفها ، فى حين كان الحال بالعكس ، كما عرفت من أحداث حياتى التالية ، فكرب مماثل كان سم حياة سوان لسنوات عديدة ، ولعله ما من أحد كان يمكن أن يفهم مشاعرى فى تلك اللحظة تمام الفهم مثله شخصياً . فقد عرف كرب علمه أن المخلوقة التى يعبدها فى مكان تنعم فيه وتستمتع ،وهو بعيد عن ذلك المكان وليس فى مقدوره أن يلحق بها فيه : فسوان قد عرف هذا الضرب من الكرب عن طريق العشق ، وهو كرب مكتوب سلفاً على العاشق ، ولا بد له أن يتمرس به . ولكن عندما يستولى مثل هذا الكرب ، مثلما استولى على وتملك نفسى وروحى ، قبل أن يدخل العشق حياة

المرء ، فلا بد لهذا الإحساس الموجع الوبيل أن يظل طافياً : فى انتظار قدوم العشق ، غامضاً طليقاً ، بدون تعلق محدد ، رهن إشارة عاطفة ما اليوم ، وعاطفة أخرى غداً ، أو رهن إشارة البر البنوى أو إعزاز صديق . وهكذا غمرنى الحبور عندما عادت فرنسواز لتقول لى إن رسالتى سوف تسلم قريباً .

وسوان أيضاً كان قد عرف جيداً ذلك الحبور الكاذب الذى يمكن أن يغمرنا به صديق أو قريب للمرأة التى نحبها ، عندما يرانا هذا الصديق أو القريب عند وصوله إلى البيت أو المسرح الذى لا بد أن توجد فيه المعبودة — أو إلى الحفل الراقص أو السهرة أو الليلة الافتتاحية التى سيراها فيها — يرانا نتجول فى الخارج ، أمام الباب ، ننتظر فى يأس فرصة ننتهزها للاتصال بها . ويتعرف علينا هذا الصديق أو القريب ، ويحيينا بألفة ويسألنا ماذا عسانا نصنع هناك . وعندما نخترع قصة عن ضرورة ملحة لتوصيل رسالة إلى قريبته أو صديقته ، يقول لنا إنه ما من شىء أسهل من هذا ، ويأخذنا إلى باب المكان ، ويقول لنا إنه سوف يبعث بها إلينا فى مدى خمس دقائق ! لكم نحبه عندئذ — وفى هذه اللحظة أحببت فرنسواز جداً ! — لأنها الوسيط الطيب القلب الذى بكلمة واحدة منه قلب الحال رأساً على عقب ، فإذا الحياة محتملة ، وإذا جحيم الأعداء الذين يؤلبون على المرء حبيبته ويجعلونها تهزأ به وتضحك منه ، وقد أضاءه نور البهجة والأمل والمودة ويشع

الخير العميم والنعيم المقيم ! وإذا ما حكمنا على سائر ضيوف ذلك المكان المحرم علينا بنموذج هذا الصديق للطبيب الودود الرحيم ، لقلنا إن الباقين لا يمكن أن يكونوا على ما تصورناهم من السوء والخبث الشيطاني ! وإذا هذه الساعات من العذاب التي قضتها المعبودة لتتذوق فيها اللذائذ المجهولة ، وقد انشق الجدار فجأة ، وها نحن ندخل إلى هناك ! ونتصور وسط سلسلة اللحظات التي تعذبنا بتخيلها لحظة لا يقل صدقها وأصالتها عن سائر تلك اللحظات ، ولكنها لحظة سعيدة ، لأنها اللحظة التي يقول فيها ذلك الصديق للمشوقة إننا ننتظرها أسفل البيت ، في الشارع . ويستولى تصورنا لهذه اللحظة على حواسنا فكأننا خلقناها خلقاً . وعندئذ لن يكون لسائر لحظات ذلك الحفل أهمية تذكر ، ويخف عذابنا لأن خيالنا كف عن إذكائها بالصور الموجعة المحرقة ، ويتركز خيالنا كله على توقع قدومها ، فالصديق قد أكد لنا أنها « بالطبع سيسرها أن تنزل إليك ! فلاشك أنه سيسعدها أن تتحدث إليك بدلا من أن تسأم بأحاديث الآخرين المملة هناك ! » .

واأسفاه ! لقد عرف سوان وعلمته التجربة المرة أن نيات « الطرف الثالث » الطيبة لا قدرة لها على التحكم في امرأة يضايقها أن تجد نفسها مطاردة حتى في حفل راقص ، من جانب رجل لا تحبه . وما أكثر الحالات التي يعود فيها الصديق للهبوط إليك وحده !...

ولم تظهر أمي ، ولكنها بدون أي حرص أو مراعاة لكرامتي (وكان ذلك يتوقف على تدعيمها لادعائي أنها هي التي طلبت مني أن أحيطها علماً بنتيجة بحثي عن شيء ما) كلفت فرنسواز أن تقول لي ، بصريح العبارة :

— ليس هناك أي رد .

وهي كلمات كثيراً ما سمعتها بحذافيرها بعد ذلك من بوابي « القصور » والخدم في نوادي القمار وما إلى هذا يكررون قولها لفتاة مسكينة ، فتجيبهم في حيرة وارتباك :

— ماذا ؟ ألم يقل شيئاً ؟ هذا غير ممكن . أأعطيته رسالتي ؟ أليس كذلك ؟ ليكن ! سأنتظر برهة أخرى !

وتقول إنها ليست بحاجة إلى مصباح الغاز الإضافي الذي يعرض عليها البواب أن يوقده لها ، وتجلس هناك ، ولا تسمع بعد ذلك شيئاً سوى ملاحظة عابرة عن الجو قد يتبادلها البواب مع ساع سيبعث به فجأة في مهمة ، وينظر بعد ذلك في ساعته ويضع نبيذ أحد الزبائن في الثلج .

ورفضت ما عرضته على فرنسواز أن تعد لي فنجاناً من الشاي أو أن تبقى معي ، وتركتها تذهب إلى بهو الخدم ، ورقدت وأغلقت عيني ، وحاولت ألا أسمع أصوات أسرتي التي كانت تشرب القهوة في الحديقة :

ولكن بعد بضع ثوان أدركت أني بكتابة هذه الخطاب إلى أمي ،

وباقترابى بهذه الوسيلة منها مجازفاً بإغضابها، جعلنى هذا الإحساس بقربها الذهنى أكاد أمد ذراعى لألمس اللحظة التى سوف أراها فيها ثانية. وكنت قد قطعت الصلة بينى وبين النوم إلى أن أراها بالفعل. وزاد وجيب قلبى كلما طالبته بالهدوء والإذعان لحظى العاثر. وأخيراً هدأ قلقى، وغمرتنى موجة من السعادة، مثلما يبدأ فجأة الدواء فى إحداث أثره ويتلاشى الألم بلا مقدمات. فقد قررت أن أكف عن أى محاولة للنوم ما لم أر أمى، وصممت أن أقبلها مهما كان الثمن، ولو كان الثمن هو سخطها على فترة طويلة بعد ذلك. نعم سأقبلها عندما تصعد لتأوى إلى فراشها. وجعلتنى هذه الطمأنينة التى غمرتنى بعد طول كربى شديد التنبه، لا بفعل التوقع فحسب، بل لفرط عطشى إلى هذا الخطر، وشدة خوفى منه!

ومن غير أن أحدث صوتاً فتحت النافذة، وجلست عند موضع القدمين من فراشى، وأنا لا أكاد أجسر على الحركة خشية أن يسمعونى من أسفل: وبدت الأمور فى الخارج جامدة فى توقع صامت، حتى لا تزعج ضوء القمر الذى كان يضاعف شكل كل منهم ويمد له ظلا أكثف وأكثر تحققاً فى مرأى العين من الأصل، فبدا المنظر كله فى آن واحد أنحف وأطول، مثل خريطة بسطت على الأرض بعد أن كانت مطوية. وما كان لا بد أن يتحرك — كورقة من أوراق شجرة الكستناء — كان يتحرك؛ ولكن ارتجاف الورقة الضئيلة، الذى كان يتم بكل تفاصيله وبكل

الرهافة، لم يكن يدخل التنافر على سائر المنظر، ولكنه فى الوقت نفسه لم يكن مندمجاً فيه، بل يظل مرتسماً على حدة وبوضوح تام: وعلى سطح هذا الصمت — الذى لم يمتص شيئاً من الأصوات الموغلة فى البعد، وهى تلك الأصوات التى لابد أنها كانت آتية من الحدائق القائمة عند الطرف الأقصى من البلدة، بحيث كانت تميزها الأذن بكل دقة، حتى أن انطباع قدومها من بعيد كان يبدو راجعاً إلى الرقة البالغة فى الأداء. فما أشبهه بالحركات التى تصدر عن الأوتار مخففة الأصوات التى يؤديها أوركسترا الكونسرفتوار جيداً، حتى أن المرء وإن لم تضع منه نغمة واحدة يظن مع هذا أنها معزوفة فى مكان ما بالخارج، بعيداً جداً عن قاعة الكونشرتو، وبلغ من روعة ذلك الأداء أن كل السامعين القدامى، وشقيقتى جدتى أيضاً — عندما منحهما المسيو سوان مقاعده هناك — كانوا يرهفون السمع كأنما قد التقطت آذانهم اقتراباً من بعيد لجيش زاحف، لم يلتف بعد حول ناصية الشارع:

وكنت تام الإدراك، واعياً أنى جلست فى موضع لا يمكن التعويل على ما هو أفضل منه لتوريطى فى أوخم العواقب على يد والدى. وهى عواقب أوخم حقاً من أن يتصورها شخص غريب؛ ومن قبيل ما يخطر بباله أنه لا يمكن أن يوقع إلا بسبب خطأ يورث الخزى حقاً: ولكن الأخطاء — فى نظام تربيتهما لى — لم تكن مصنفة على غرار تصنيف أخطاء الأطفال الآخرين: وقد علمونى

أن أجعل على رأس القائمة (والسبب فى هذا بلا شك عدم وجود أى فئة أخرى من الأخطاء التى يجب أن أكون أحرص الناس على توقيها وحماية نفسى منها) تلك الأخطاء التى أستطيع الآن أن أقول إنها تتسم عموماً بأن التردى فيها ناجم عن الانقياد لاندفاع عصبى: ولكن أمثال هذه الألفاظ الأخيرة لم تكن بلغت مسامعى قط، فلا أحد كان قد عزا عثراتى إلى خضوعى للإغراء بحيث يمكن أن أعتقد أن لى بعض العذر فى الانقياد لها، أو أننى غير قادر فعلا على الامتناع عنها والتأبى عليها. ولكنى كنت أستطيع أن أتعرف بسهولة على هذه الفئة من التجاوزات من علائم القلق والكرب العقلى التى تسبقها، ومن صرامة العقوبة التى تعقبها: وقد عرفت أن ما فعلته الآن هو من نفس فئة ذنوب أخرى معينة سبق لى أن عوقبت عليها، ولكن هذه الفعلة أخطر جداً منها بما لا يقاس.

وعندما أخرج من حجرتى لألتقى أمى وهى صاعدة إلى فراشها، وترى أنى ما زلت مستيقظاً ساهراً لكى أقول لها طابت ليلتك مرة أخرى فى الممر، لن يسمح لى بالبقاء فى البيت بعد ذلك يوماً واحداً، بل تحزم حقائبى وأرسل إلى المدرسة فى الصباح مباشرة: وكنت واثقاً بهذا كله غاية الثقة. ليكن! بل إنه لو قضى على فى اللحظة التالية أن أرمى بنفسى من النافذة، لفضلت هذا المصير على الامتناع عما صنعت: فما أريده الآن هو ماما، وأن أقول لها طابت

ليلتك. وها أنا قد مضيت فى طريق تحقيق هذه الرغبة شوطاً كبيراً بحيث لا يمكننى التراجع.

واستطعت أن أسمع وقع أقدام والدى وهما ذاهبان مع المسيو سوان لتوديعه، وعندما أكدت لى صلصلة جرس البوابة أنه قد انصرف فعلا، زحفت متسللا إلى النافذة. وسمعت ماما تسأل أبى: هل كانت الاستاكوزا جيدة؟ وهل تناول المسيو سوان شيئاً من مثلجات القهوة والفستق؟ وسمعته يقول:

— أظن هذه المثلجات كانت لا بأس بها (نصف نصف) فلنجرب نكهة أخرى فى المرة القادمة:

وقالت عمتى الكبرى:

— لا أستطيع أن أقول ما هو التغيير الذى آنسته فى سوان. لقد شاخ!

وكانت قد تعودت تماماً أن تراه دائماً فى نفس مرحلة المراهقة التى عرفته فيها لأول مرة، ولذا صدمها أن تجده فجأة أقل شباباً من تلك السن التى كانت تعزوها إليه. وبدأ الآخرون أيضاً يلاحظون فى سوان هذه الشيخوخة الغريبة المفرطة الفاضحة التى لا نجدها إلا لدى العزاب، من أفراد تلك الطبقة التى يجب أن يكون الشباب فيها أطول مما لدى غيرهم من الرجال، لأن حاضر هذه الطبقة خال من الوعود بالغد، فى صورة ذرية...

واستطردت عمتى الكبرى:

ـ أحسبه يعانى المتاعب الكثيرة مع زوجته الحقيرة هـذه ، التى « تعيش » مع من يدعى مسيو دى شارلى M. de Charlus ، وهذا أمر تعرفه كمبراى بأسرها ؛ فالمسألة حديث البلدة الذى تلوكه الألسن.

ولاحظت أمى أنه برغم هذا يبدو فى الآونة الأخيرة أقل تعاسة و..:

ـ وهو لا يكثر من تلك اللازمة التى تشبه لازمة أبيه ، وهى مسح عينيه والمرور بيده على جبينه ؛ وأعتقد شخصياً أنه فى أعماق قلبه لم يعد يحب زوجته هذه.

فأجابها جدى قائلا :

ـ طبعاً ، لم يعد يحبها ؛ وقد كتب لى رسالة بهذا الخصوص منذ زمن مديد ، ولكنى حرصت على ألا ألقى إليها بالا ؛ ولكنها لم تترك عندى شكاً فيما يتعلق بمشاعره ، ودعى عنك حبه لزوجته ؛ آه ! مرحى يا هاتان ! إنكما لم تشكراه على نبيذ أستى !

وكانت هذه العبارة الأخيرة موجهة إلى شقيقتى زوجته. فقالت له خالتى فلورا :

ـ ماذا ؟ لم نشكره؟ أعتقد أننى عبرت له عن ذلك بكل أناقة !

فقالت خالتى سلين :

ـ نعم ؛ لقد أحسنت أداء ذلك جداً.

ـ وأنت كذلك كنت فى غاية الرقة والبراعة ؛

ـ نعم ؛ وأحببت تعبيرى الطريف : « الجيران الظرفاء ».

فصاح جدى :

ـ ماذا ! أتسميان هذا إزجاء الشكر ؟ لقد سمعت ما قلتما فعلا ، ولكن ليأخذنى الشيطان إن كنت قد أدركت أن المقصود به هو سوان ؛ وثقا أنه لم يلاحظ هذا ؛

ـ على رسلك ! سوان ليس غراً. وأنا متأكدة من أنه قدر هذا الإطراء كل التقدير. ولا إخالك كنت تريد منى أن أذكر له عدد الزجاجات أو أن أخمن ما دفعه فيها !

وترك الجميع أبى وأمى وحدهما ، فجلسا معاً برهة ثم قال أبى :

ـ ألم يحن لنا أن نصعد إلى الفراش ؟

فقالت أمى :

ـ كما تحب يا عزيزى. وإن كنت لا أشعر بميل إلى النوم إطلاقاً ؛ ولست أدرى لماذا. لا يمكن أن تكون مثلجات القهوة هى السبب ، فلم تكن قوية بما فيه الكفاية لكى توقظنى بهذا الشكل. ولكنى ألمح ضوءاً فى بهو الخدم : إن فرنسواز المسكينة ظلت ساهرة لأجلى ، سأنهض إذن لكى تنضو عنى ملابسى بينما تذهب أنت وتخلع ثيابك :

وفتحت أمى الباب الذى يفضى من البهو إلى السلم ؛ وسرعان ما سمعتها تصعد كى تغلق نافذتها ، فخرجت بهدوء إلى الممر. وكان قلبى يدق بعنف حتى كدت أعجز عن الحركة ، ولكنه على الأقل

لم يعد يدق قلقاً وكرباً ، بل فزعاً وفرحاً ! ورأيت فى بئر السلم ضوءاً يصعد إلى فوق منبعثاً من شمعة ماما : ثم رأيت ماما نفسها، فألقيت بنفسى عليها . وللحظة نظرت إلى فى دهشة ، غير مدركة ماذا يمكن أن يكون قد حدث . ثم اتخذ محياها سيما الغضب ، ولم تقل لى كلمة واحدة . وكنت متعوداً على خصام وقطيعة تدومان أياماً متصلة لأخطاء أقل من هذا . ولذا كانت أى كلمة من ماما بمثابة قبولها إمكان الاتصال بى ، وكان ذلك من الممكن أن يثير رعبى بالأكثر ، لأننى أتصور أن العقوبة ستكون أشد من القطيعة ، بحيث تبدو القطيعة عملا طفولياً بالقياس إليها .

كلمة منها إذن كانت ستدلنى على ذلك الهدوء الزائف الذى يتحدث به المرء إلى خادم قرر أن يطرده من الخدمة ، أو كالقبلة التى يطبعها المرء على ابن حزم أمتعته ليلتحق بالجيش ، ولكنها لم تكن تمنح له لو كان الأمر مقصوراً على الغضب والقطيعة بضعة أيام . ولكنها سمعت أبى صاعداً من حجرة الملابس حيث خلع ثيابه : ولكى تتحاشى « المشاجرة » التى سيثيرها لو أنه رآنى ، قالت لى فى صوت يكاد يخنقه الغضب :

— اهرب على الفور . ولا تدع أباك يراك واقفاً هنا كالمخبول !

ولكنى رجوتها مرة أخرى أن « تأتى وتقول لى طابت ليلتك » وقد تملكنى الرعب عندما رأيت ضوء شمعة أبى يزحف على الحائط فعلا ، ولكنى فى الوقت نفسه جعلت من اقترابه وسيلة للابتزاز ،



ورأيت فى بئر السلم ضوءاً يصعد إلى فوق منبعثاً من شمعة ماما . ثم رأيت ماما نفسها ، فألقيت بنفسى عليها .

على أمل أن أمى – لشدة رغبتها فى ألا تجدنى هناك، كما لابد سيحدث لو استمرت فى تمنعها – ستنقاد لرغبتى وتقول :

– عد إلى حجرتك، وسوف آتى !

ولكن فات الأوان ! ودهمنا أبى، وبوحى الغريزة غمغمت – وإن لم يسمعنى أحد :

– لقد قضى على !

ولكن لم يقض على، وكان من عادة أبى دائماً أن يرفض تركى أصنع أموراً كان مسموحاً بها بوضوح فى المواثيق الليبرالية التى منحتنى إياها أمى وجدتى، لأنه لم يكن يقيم وزناً للمبادئ، ولأنه لا وجود فى نظره لشىء اسمه « حقوق الإنسان » : ولسبب غير مفهوم، أو لغير سبب على الإطلاق يمكن أن يمنعنى فى اللحظة الأخيرة من المشى فى وقت معين، فى نزهة جرت العادة بالسماح لى بها حتى غدت عندى مقدسة، بحيث يبدو حرمانى المفاجئ منها خرقاً لميثاق مقدس. أو قد يحدث منه – مثلما حدث هذه الأمسية – أن يصيح قبل الموعد المعتاد :

– اصعد إلى حجرتك فوراً. لا معاذير ؟!

ولكن لأنه أيضاً مجرد من المبادئ (بالمعنى الذى تفهمه جدتى) لا يمكن أن نسميه عنيداً متصلباً لا يرحم. وفى هذه المرة نظر إلى بشىء من الضمايق والدهشة، وعندقالت له ماما ما حدث، فى شىء من الحرج، قال لها :

– اذهبى معه إذن. أنت نفسك قلت الآن إنك لا تشعرين بالنعاس : امكثى إذن فى حجرته قليلا. فلست فى حاجة إلى أى شىء ؟

فأجابته أمى بتهيب :

– ولكن يا عزيزى، ليست المسألة شعورى بالنوم من عدمه، بل إننا ينبغى ألا نعود الطفل ...

فقال أبى وهو يهز كتفيه :

– ليس هناك محل لتعويده. وها أنت ترين أن الطفل تعس. ونحن بعد كل شىء لسنا سجانين. وأنت هكذا ستتسببين فى مرضه ؛ فهل سيروقك هذا ؟ إن فى غرفته سريرين، فمرى فرنسواز أن تعد السرير الكبير لك. وامكثى بجانبه بقية الليلة. وأنا ذاهب إلى فراشى على كل حال. فلست عصبياً مثلك. طابت ليلتك !

وكان من المستحيل أن أشكر أبى، لأن ما يسميها « عاطفيتى » كانت ستثير سخطه. ووقفت هناك لا أجسر على الحركة، وكان ما يزال يواجهنا، بهيكله الضخم، فى قميص نومه الأبيض، متوجاً بلفاعه الوردى والبنفسجى من الكشمير الهندى الذى تعود – منذ أصيب بالصداع العصبى – أن يعصب به رأسه. كان واقفاً قبالتنا مثل إبراهيم فى الصورة المنحوتة للفنان بينوتزو جوتزولينى التى كان المسيو سوان قد جاءنى بنسخة مصورة منها، وإبراهيم يقول لسارة إنها ينبغى أن تبتعد، وتنتزع نفسها من إسحاق.

وقد مرت سنوات كثيرة منذ تلك الليلة. وحائط السلم الذى

كنت قد رأيت ضوء شمعته يزحف منعكساً عليه قد انهدم منذ وقت طويل ، وأشياء كثيرة فى نفسى قد انهدمت أيضاً ، وكنت أحسبها ستدوم إلى الأبد . وقامت أبنية جديدة ، تولدت عنها أفراح جديدة وأحزان جديدة لم أكن لأتوقعها فى ذلك الحين . وقد مضى وقت طويل أيضاً منذ قال أبى لماما :

ـ اذهبى مع الطفل .

ولن تتاح لى هذه الساعات مرة أخرى . ولكنى فى الفترة الأخيرة كنت أحس بقدرة متزايدة على سماع النحيب الذى استطعت كتمانه فى مواجهة أبى ، لو أنى أرهفت السمع ، ولكنى انخرطت فيه عندما صرت وحدى مع ماما . والواقع أن أصداء هذا النحيب لم تتوقف قط : ذلك أن الحياة صارت الآن أهدأ حولى مما كانت ، بحيث صرت أسمع شهقاتى من جديد ، مثل نواقيس الدير التى تغرقها فى النهار أصوات الشوارع حتى أن المرء يحسبها توقفت إلى الأبد ، إلى أن تتجاوب أصداؤها من جديد فى هواء المساء الساكن :

وقضت أمى تلك الليلة فى حجرتى : وها أنا وقد اقترفت ذنباً مميتاً كنت أتوقع أن أعاقب عليه بالإبعاد من البيت ، أتلقى من والدى مكافأة أضخم مما كنت خليقاً أن أتلقاه جزاء عمل حسن محمود ؛ وحتى فى اللحظة التى كان فيها موقف أبى منى متوجاً بهذه الرحمة البالغة ، إلا أن موقفه هذا لم يزل تعسفياً لا ضابط له ؛ وبصرف النظر عما أستحقه . ذلك أن كل تصرفاته كانت مستوحاة من خطراته

وبمحض المصادفة ، لا على أساس خطة مستقرة ثابتة . وما سميته أنا صرامته حين صرفنى إلى حجرة نومى مبكراً ، كان راجعاً لا إلى صرامته ، بل إلى عدم إدراكه لمدى تعاستى كل ليلة عندما يتحتم على الصعود إلى حجرتى : وكان شعوره هذا أقل من شعور أمى وجدتى بى ، فقد كانتا تدركان هذا تمام الإدراك ، ولكنهما كانتا تحبانى إلى حد أنهما لم ترضيا تجنيبى هذا الشقاء الذى كانتا تريدان لى أن أتعلم كيف أقهره وأتغلب عليه ، لكى تقل حساسيتى العصبية وتقوى إرادتى . أما إعزاز أبى لى فكان من نوع آخر ، ولا أظنه كان يتمتع بشجاعتهما الروحية ، لأنه ما إن أدرك أننى تعس ، حتى قال لأمى :

ـ اذهبى ورفهى عنه .

ومكثت أمى طول الليل فى حجرتى . وبدا منها أنها لا تريد أن تفسد بالتأنيب تلك الساعات التى كانت مختلفة جداً عن أى شىء مما كنت أتوقعه ، فعندما قالت لها فرانسواز ، التى حدست أن شيئاً غير عادى لا بد قد حدث عندما رأت ماما جالسة بجوارى ، ممسكة بيدى ، تاركة إياى أبكى بغير كبح :

ـ ولكن لماذا يبكى السيد الصغير يا سيدتى ؟

أجابتها :

ـ هو شخصياً لا يعرف . إنها أعصابه . أعدى السرير الكبير لى بسرعة ثم اذهبى إلى فراشك .

وهكذا لأول مرة لم ينظر إلى تعاستى على أنها خطأ يجب أن أعاقب عليه ، بل على أنه داء اعترفت رسمياً بأنه حالة عصبية لم أعد مسئولا عنها : وعزانى كثيراً وخفف عنى أننى لم أعد بحاجة إلى مزج التوجس والندم بمرارة دموعى ، بل فى استطاعتى الآن أن أبكى بلا خطيئة . وشعرت كذلك بزهو غير قليل لوجود فرنسواز وشهودها للعودة إلى الأحوال الإنسانية التى رفعتنى ، بعد أقل من ساعة من رفض ماما الصعود إلى حجرتى وإرسالها رسالتها الزاجرة بوجوب النوم ، إلى مرتبة الأشخاص البالغين ، وإلى نوع مفاجئ من مراهقة الأسى ، والتحرر من الدموع ...

وكان ينبغى عندئذ أن أكون سعيداً ، ولكنى لم أكن سعيداً ، فقد خطر لى أن أمى قد أقدمت على أول تنازل من نوعه ، ولا بد أنه كان مؤلماً لها ، وأن هذا التصرف هبط بتصورها المثالى لى درجة ، وأن هذه أول مرة تضطر فيها — بكل شجاعتها — للاعتراف بالهزيمة . أجل خطر لى أننى إن كنت سجلت انتصاراً ، فهو انتصار عليها ، وأننى نجحت ولكن مثلما يمكن أن ينجح المرض أو الحزن ، أو التقدم فى السن ، فى ترويض إرادتها وتغيير رأيها . وأن هذه الليلة قد افتتحت عهداً جديداً ويجب أن تظله تاريخاً أسود فى صفحة التقويم : ولو جسرت الآن لكنت خليقاً أن أقول لماما :

— لا لست أريدك . وينبغى ألا تنامى هنا .

ولكنى كنت واعياً بالحكمة العملية التى يمكن أن تسمى الآن

الواقعية التى كانت تلطف بها مثالية طبيعة جدتى : وعرفت أن الضرر ما دام قد وقع فهى تفضل أن تدعنى أنعم بمتعة صحبتها المسرية عنى ، وألا تقلق أبى مرة أخرى .

ويقيناً كانت ملامح أمى الجميلة تبدو متألقة من جديد بالشباب فى ذلك المساء ، وقد جلست بلطف ممسكة يدى وتحاول أن تكبح دموعى ، ولكن لهذا السبب بدا لى أن هذا ما كان ينبغى له أن يحدث ، فغضبها كان أهون احتمالا من هذه الرقة الجديدة التى لم تكن قد عرفتها طفولتى . وشعرت بأننى بأصبع خفية جريئة غير تقية قد خططت أول تجعيدة على صفحة روحها ، وجعلت أول شعرة بيضاء تظهر على رأسها . فضاعفت هذه الفكرة عبراتى ونشيجى ؛ وعندئذ رأيت أن ماما ، التى لم تسمح قط لنفسها من قبل أن تسترسل فى الحنان معى ، قد غلبتها دموعى على أمرها وصار عليها أن تغالب دموعها . وعندما لاحظت أنى أدركت هذا ، قالت لى باسمة :

— لماذا يا زهرتى الصغيرة . لماذا يا كنارى تهم أن تجعل ماما تبكى بهذه الصورة الحمقاء مثلك ، إن أنت واصلت البكاء ؟ اسمع ! ما دمت لا تستطيع النوم ، وماما أيضاً لا تستطيعه ، فلا يجوز لنا أن نبقى هكذا ، بل لابد لنا أن نصنع شيئاً . وسآتى بأحد كتبك :

ولكن لم يكن شىء من كتبى فى حجرتى : فقالت :

— أتحب أن أخرج لك الآن الكتب التى ستعطيك جدتك إياها

فى عيد ميلادك ؟ فكر جيداً فى الأمر ، ولا تشعر بخيبة الأمل إن لم يكن هناك شيء جديد لك فى ذلك اليوم .

وفرحت بهذه الفكرة فرحاً شديداً ، وذهبت ماما لتأتى بطرد من الكتب التى لم أستطع أن أميز من الورق الذى يغلفها شيئاً أكثر من حجمها ، فقد كان طرداً مربعاً . ولكن هذه اللمحة الأولى على عجالتها كانت كافية لكى تكسف هدية علبة ألوان رأس السنة الماضية ، ودود القز فى السنة التى قبلها . وكانت هذه الكتب تضم : مستنقع الشيطان ، فرنسوا الشامى F. le Champi . وفاديت Fadette الصغيرة .. وكانت جدتى ــ كما علمت فيما بعد ــ قد اختارت فى البداية أشعار موسيه ومجلداً لروسو ، وإنديانا . لأنها تعد القراءة الخفيفة غير مغذية شأنها شأن الكعك والحلوى ، ولكنها لم تدرك أن أنفاس العبقرية القوية لها من التأثير على روح الطفل ما يشبه فى خطورته وتقليل تنميته وتنشيطه للذهن مثل ما للهواء الطلق ونسائم الريف على بدنه . ولكن عندما أوشك أبى أن يعدها مخبولة عندما سمع بعناوين الكتب التى اعتزمت تقديمها لى ، سافرت بنفسها إلى « جوى لى فيكونت» Jouy - le - Vicomte حيث ذهبت إلى محل لبيع الكتب ، لكى تضمن حصولى على هديتى فى موعدها : وكان اليوم محرق الحرارة ، وعادت من هذه الرحلة منهكة حتى أن الطبيب حذر ماما من عواقب مثل هذا الإرهاق ، ونبه عليها

ألا تسمح لها بإعادة الكرة . وهناك وقعت على كتب جورج صاند الرعوية . وقالت لماما :

ــ يا عزيزتى : ما كنت لأسمح لنفسى أن أعطى الطفل كتاباً ليس جيد الأسلوب .

والحقيقة أنها ما كانت لتستطيع شراء أى شيء ليست له فائدة ذهنية وثقافية . وبالأخص تلك الأشياء التى تعلمنا أن نسعى إلى ملذاتنا فى غير نطاق المتعة الدنيوية العقيم . وحتى عندما كانت تضطر لتقديم هدية « نافعة » إلى شخص ما ، كأن تهديه مقعداً وثيراً أو أدوات فضية للمائدة أو عصا للمشى ، كانت تتخيرها من العاديات والتحف القديمة ، كأنما استخدامها الطويل قد محا منها أى شبهة نفعية ، وجعلها مصدر تثقيف وتنوير لنا عن حياة أهل الأزمان السالفة ، أكثر مما هى ذات فائدة فى استعمالنا العادى . لذا كانت تحب لى أن أحتفظ فى حجرتى بصور المبانى القديمة أو الأماكن الجميلة . ولكنها عند شرائها ، وبرغم ما لها من قيمة جمالية ، قد تجد « السوقية » و « النفعية » واضحتين فيها ، لا لشيء إلا لأنها صور فوتوغرافية : وتبحث عن ذريعة تحولها إلى أعمال فنية ، أو على الأقل تقلل من صبغتها التجارية ، إن لم تقض عليها تماماً : وهكذا بدلا من صور فوتوغرافية لكاتدرائية شارتر أو نوافير سان كلو ، أو بركان فيزوف ، كانت تسأل سوان ألم يصنع رسام عظيم لوحات لتلك الصروح ، لها صور فوتوغرافية ، وتفضل أن

تقدم لى صوراً فوتوغرافية للوحة كاتدرائية شارتر Chartres لكورو Corot ، ولنوافير سان كلو St. Cloud ، لهبير روبير H. Robert ، وبركان فيزوف من ريشة تيرنر Turner ، لأنها أعلى فى عالم الفن ولو بدرجة واحدة . ولكن مع أن المصور الفوتوغرافى قد حيل بينه وبين التصوير المباشر لروائع الطبيعة أو المعمار ، وحل محله فى ذلك الرسام الكبير ، إلا أنه استعاد مكانه ، أو موضعه الكريه عندما صور بآلته القبيحة تصوير الفنان . وفى هذه المرة لا بد لها من تقبل هذه السوقية ، إلا أن جدتى كانت تجتهد وسعها فى تأجيل لحظة الاتصال بها ، وتسأل سوان مرة أخرى ألم تتم طباعة صور لهذه اللوحات بالحفر ، مفضلة هذه الصور على الفوتوغرافيات . فذلك النوع القديم المندثر من الطباعة يتيح لنا أن نرى صوراً لروائع فنية قديمة لم يعد ميسوراً لنا أن نراها الآن . مثل مطبوعة مورجن للوحة سيناكولو لليوناردو قبل أن تفسد بمحاولة ترميمها . وينبغى أن نعترف أن هذه الطريقة فى النظر إلى فن الإهداء لم تكن لها على الدوام نتائج سارة . فالفكرة التى تكونت لدى عن مدينة البندقية من رسم لتيسيان Titien يجعل الخليج فى المؤخرة كانت أقل دقة من الفكرة التى حصلت عليها بعد ذلك من الصور الفوتوغرافية العادية . ولم يعد فى وسعنا أن نحصى فى الأسرة (وكان ذلك عندما حاولت عمتى الكبرى صياغة اتهام توجهه إلى جدتى لأمى) لكل الكراسى التى أهدتها إلى العرائس الشابات والمسنات

وانهارت عند أول محاولة للجلوس عليها تحت ثقل الجالس . ولكن جدتى كانت ترى من الخساسة أن تعنى نفسها بمدى متانة قطعة أثاث لم تزل فيها لمحة فن ، أو مسحة عز من الماضى الغابر : فكأن هذه التحف فى نظرها من قبيل الاستعارات الموروثة عن اللغة القديمة التى ما زلنا نستخدمها فى الاستعمال الفظ للغتنا العصرية .

وعلى هذا النحو بالضبط كانت الكتب الرعوية من قلم جورج صاند G. Sand التى أهدتنى إياها لعيد ميلادى أشبه بحجرات سقط المتاع التى تختزن فيها قطع الأثاث الأثرية . فهى حافلة بتعبيرات بطل استعمالها وصارت ضرباً من الكناية ، قد لا نجد له أثراً إلا فى بعض اللهجات الريفية . وقد اشترت جدتى هذه الكتب وفضلتها على كتب أخرى ، تماماً كما كان من الممكن أن تفضل استئجار بيت له برج حمام على الطراز القوطى ، أو أى تحفة أثرية لها تأثير يروق العقل ، وتملأ حجراته بحنين شديد إلى رحلات لا سبيل إليها فى ممالك الزمن .

... جلست أمى بجوار فراشى واختارت كتاب «فرنسوا الشامبى» الذى كان غلافه الضارب للحمرة وعنوانه غير المفهوم قد أضفيا عليه شخصية متميزة فى عينى وجاذبية غامضة . ولم أكن حتى ذلك الحين قد طالعت أى رواية حقيقية ، وكنت قد سمعت أن جورج صاند روايته نموذجية ، فهيأنى هذا مقدماً لتصور أن « فرنسوا الشامبى » ينطوى على شىء لذيذ للغاية : وبدا لى سياق السرد — الذى نما

صوب إيقاظ الفضول أو الشفقة — وكذلك بعض التعبيرات التى تقلق القارئ أو تحزنه ، والتى قد يظنها لقلة خبرته « الصورة العامة » للروايات ، بدا لى هذا كله شديد التميز ؛ فبالنسبة لى لم يكن الكتاب الجديد فى عداد الأشياء العادية ، بل هو أشبه بإنسان متفرد ، بغير نظير ، وليس له غاية للوجود عدا ذاته . لذا كان « فرنسوا الشامبى » أشبه بنفحة عطر مسكر : ومن وراء الأحداث اليومية ، والأفكار العادية والألفاظ المبتذلة استطعت أن أسمع نبرة وأقوالا إيقاعية راقية وغريبة .

وبدأ « العمل » : وبدا لى ذلك كله غامضاً لأنى فى تلك الأيام ، عندما كنت أقرأ لنفسى ، كنت كثيراً ما أحلم بأشياء مختلفة تماماً وأنا أقلب الصفحات . وإلى تلك الفجوات التى كانت تخلفها هذه العادة معرفتى بالقصة أضيفت فجوات أخرى مرجعها إلى أن ماما عندما كانت تقرأ لى بصوت عال كانت تغفل كل مشاهد الغرام . ولذا كانت كل التغيرات الغريبة التى تحدث فى العلاقات بين زوجة الطحان والفتى ، وهى تغييرات لا يمكن أن يفسرها إلا مولد الحب ونموه بينهما ، صارت تبدو لى غامضة ، بل مغرقة فى الغموض ؛ وكان مفتاحها (كما اعتقدت) هو ذلك الاسم الغريب العذب الرنين « شامبى » الذى جمل الفتى الذى يحمله وأضفى عليه — لست أدرى لماذا — لوناً أرجوانياً زاهياً سحرياً ؟

ولئن لم تكن أمى قارئة أمينة ، إلا أنها كانت مع هذا رائعة

عندما تقرأ كتاباً تحس فيه الشعور الصادق ، فتترجم ذلك ببساطة شديدة بجرس صوتها الرقيق الرخيم : وكان الأمر هكذا أيضاً فى الحياة اليومية ، عندما تكون موضوعات إعجابها أو شفقتها هم البشر من الرجال والنساء لا الأعمال الفنية : فكان من المؤثر أن تلاحظ بأى عناية كانت تستبعد من صوتها كل نغمة سرور ، ومن إشاراتها كل إيماءة بهجة عندما تتحدث إلى أم فقدت طفلها منذ زمن بعيد ، أو تتجنب تذكر عيد ميلاد يمكن أن يذكر شيخاً بتقدمه فى السن ووقر الأعوام الذى يثقل كاهله . أو تتحاشى الموضوعات البيتية التى يمكن أن تضجر شاباً أديباً . وهكذا عندما كانت تطالع بصوت مرتفع رواية جورج صاند ، تجعل هذا النثر كالأرج بعبير مكارم الأخلاق وسموها ، وهى خصال تعلمتها من جدتى ، ولم أعلمها إلا فيما بعد أن تتحاشى زجه فى كل أنواع الأدب الأخرى ، وأن تكبح هذا الميل فيها لكى تترك لقوة اللغة أن تتدفق . ولكنها فى تلك الليلة صبت ما تطالعه فى قالب هذه العذوبة وهذا السمو بمجرد استخدام ملكات صوتها . فإذا فى الكلمات ما ليس فيها ، وبذلك قضت على أى وعورة فى الألفاظ أو أى عنفوان فى الصور . مسرعة حيناً ، ومبطئة حيناً آخر ، لكى يتداخل الكل فى إيقاع موسيقى منغوم ، نفث فى هذا النثر العادى جداً روحاً وحياة ليست فيه .

وكان عذابى قد امحى ، وهدأت [illegible] ، وتركت أجنحة هذه الليلة النادرة الرقة والحنان تحملنى وأنا أنعم بوجود أمى فى جوارى .

وكنت أعلم أن مثل هذه الليلة لا يمكن أن تتكرر ، وأن أقوى رغبة لى فى هذا العالم ، ألا وهى بقاء أمى بجوارى فى حجرتى فى ساعات الظلام الحزينة كانت ضد رغبات الآخرين وأن استجابة رغبتى إنما هى استثناء نادر عارض . وغداً فى الليل لا بد أن أكون من جديد فريسة الكرب ، ولن تكون ماما بجوارى ، ولكننى لم آبه كثيراً لهذا ، وأنا فى غمرة سعادتى ، فمساء غد لم يزل بعيداً ، وقلت لنفسى : إن فى الوقت متسعاً عندئذ للتفكير ، وإن كان هذا الإرجاء لم يمنحنى مزيداً من قوة ، ولم يكن هذا المستقبل طوع إرادتى ، ولم يقلل الفاصل الزمنى من حتمية حدوثه على هذا النحو .

* * *

وهكذا ، ولمدة طويلة بعد ذلك ، عندما أرقد يقظاناً فى الليل وأستحضر ذكرياتى القديمة عن كمبراى ، كنت لا أرى أكثر من مثل هذه اللوحة المضيئة ، مرتسمة بوضوح وسط خلفية غامضة طافحة بالظلال ، مثل تلك الألواح التى يضيئها نور أزرق ، أو مثل لافتة كهربائية يشع منها النور فوق مبنى يظل بكتلته كلها غارقاً فى الظلام . وكنت أرى بوضوح عند قاعدة اللوحة الرواق الصغير ، وحجرة المائدة ، والظلال المغرية لذلك الممر الذى يأتى منه مسيو سوان وهو السبب فى عذاباتى من غير أن يدرى ، والبهو الذى أجتازه نحو أول درجة من درجات السلم الذى يصعب على جداً ارتقاؤه ، ذلك السلم الذى يكون فى حد ذاته ما يشبه ارتقاء هرم

غير منتظم . وعند قمته توجد حجرتى ، والممر الصغير الذى تمر من بابه الزجاجى ماما . وكنت أرى ذلك كله — بعين الذاكرة — فى ساعة واحدة معينة من المساء ، منعزلة عن كل ما يجاورها ، أو يمكن أن يتصل بها ، مرتسمة وحدها فوق خلفيتها الظليلة . وهذا هو الحد الأدنى من المناظر اللازمة (مثل المنظر الذى نراه مطبوعاً على رأس مسرحية قديمة أو عروضها فى الريف) لمأساة خلع ملابسى ، كأنما كمبراى بأسرها لم تكن مكونة إلا من طابقين يربط بينهما سلم ضيق ، وكأنما لم يكن هناك وقت عدا الساعة السابعة مساء .

ويجب أن أعترف أنه كان بمقدورى أن أؤكد لمن يسألنى على هذا النحو أن كمبراى كانت فيها مشاهد أخرى ، وأنها كانت موجودة فى ساعات أخرى غير هذه . ولكن بما أن الوقائع التى كان من الممكن أن أتذكرها لا بد أن يجرى استدعاؤها عن طريق إعمال قوة الإرادة ، أى بذاكرتى الذهنية ، ولما كانت الصور التى تقدمها مثل هذه الذاكرة للماضى لا تحتفظ بشىء من ذلك الماضى نفسه ، لذا لم تكن بى رغبة على الإطلاق فى التمعن فى هذه الرواسب المتبقية من كمبراى ، لأنها — فى حسبانى — كانت كلها رواسب ميتة فى الواقع .

ولكن أتراها ماتت موتاً أبدياً ؟ هذا أمر محتمل جداً .

فى هذه الأمور عنصر كبير للمصادفة ، وهناك مصادفة ثانية هى موتنا نحن ، الذى كثيراً ما يمنعنا من انتظار مزايا المصادفة الأولى لأى فترة من الزمن .

وأشعر أن هناك الكثير مما ينبغى أن يقال عن الاعتقاد الكلتى بأن أرواح من فقدناهم تظل أسيرة كائن أدنى . فى جسم حيوان ، أو فى نبات ، أو فى جماد ، وبذلك تظل ضائعة بالنسبة لنا حتى يأتى ذلك اليوم (الذى لا يأتى أبداً بالنسبة لكثيرين) الذى نمر فيه بجوار الشجرة أو نمتلك فيه الشيء الذى حبست فيه أرواحهم . عندئذ ينتفضون وينادوننا بأسمائنا ، ومتى عرفنا أصواتهم تحطم السحر ، وبذلك نخلصهم من سجنهم ، ويقهرون الموت ويعودون لمشاركتنا حياتنا :

وهكذا الحال بالنسبة لماضينا الخاص بنا . فعبثاً كل مجهود لاستعادة الاستيلاء عليه ، وكل جهودنا الذهنية فى هذا السبيل تذهب أدراج الرياح . فالماضى مختبئ فى مكان ما خارج نطاق الذهن ومتناول يده ، فى شيء مادى (فى الإحساس الذى يمكن لهذا الشيء المادى أن يمنحنا إياه) ولكننا لا ندرى هذا . ويتوقف على المصادفة المحض أن نعثر على هذا الشيء المجهول لنا ، قبل أن يطوينا الردى ونموت نحن أيضاً .

ولسنوات طويلة لم يكن أى شيء من كمبراى له وجود بالنسبة لى عدا ما تشتمل عليه مأساة صعودى إلى الفراش هناك . إلى أن كان يوم من أيام الشتاء ، عدت فيه إلى البيت ، ولما رأتنى أمى مقروراً ، عرضت على قليلا من الشاى ، وهو شراب لم يكن من عادتى تناوله . فرفضت فى بادئ الأمر ، ثم لسبب غير مفهوم غيرت رأيى . وأرسلت فى طلب كعكة من تلك الكعكات القصيرة الريانة

الصغيرة التى يسمونها « مدلين الصغيرة » ويبدو منظرها كما لو كانت قد صبت عجينتها فى صدفة محارة مروحية الشكل . وسرعان ما رفعت إلى شفتى بطريقة آلية ، وأنا منهك بعد يوم متعب وأتوقع غداً حافلا بالتثبيط والكآبة ، ملعقة من الشاى الذى غمست فيها قطعة من تلك الكعكة . وما كاد السائل الدافئ ، ومعه هذا الفتات يلمس حلقى حتى سرت فى جسمى كله رجفة . وتوقفت ، مركزاً انتباهى على التغيرات التى يجرى فى مجراها . ذلك أن لذة مستطابة اجتاحت حواسى ، ولكنها لذة متفردة قائمة بنفسها لا تنم على أى أصل أو مصدر لها . وعلى الفور غدت صروف الحياة وتقلباتها غير ذات وزن عندى ، وغدت كوارثها عديمة الأذى ، وغدا قصر أمد الحياة وهمياً . فكان لهذا الإحساس الجديد فى نفسى تأثير الحب الذى يملأ الروح بجوهره الثمين ، بل لعل هذا الجوهر الثمين لم يكن فى داخلى ، بل هو أنا . فلم أعد الآن أشعر بالتفاهة العارضة أو الفناء . فمن أين عساه أتى هذا الحبور الغريب ؟ لقد كنت مدركاً وواعياً بأنه مرتبط بطعم الشاى والكعك ، ولكنى مدرك أيضاً أنه يتجاوز هذه النكهة ، ولا يمكن أن تكون فى الواقع طبيعته هى طبيعتها . فمن أين أتى إذن ؟ وما معناه ؟ وأنى لى أن أستوعبه وأحدده ؟

وشربت جرعة أخرى لم أجد فيها أكثر مما فى الأولى ، ثم جرعة ثالثة كان عطاؤها أقل من الثانية . حان إذن الوقت للتوقف . فالشراب السحرى بدأ يفقد سحره . وتبين لى أن ما أبحث عنه ، وهو

الحقيقة ؛ ليست فى الفنجان ، بل فى ذاتى . فالشاى قد أثارها فى نفسى ، ولكنه لا يعى منها شيئاً ، ولا قدرة له إلا على التكرار اللامتناهى لنفس الشهادة التى أدلى بها أول مرة ، مع تناقص تدريجى فى شدتها . ولكننى — أنا نفسى — عاجز عن تفسير هذه الشهادة ، وإن كنت آمل على الأقل أن أستعيدها بالشاى مرة أخرى ، وأجدها حاضرة هناك ، سليمة لم تمس ، ورهن إشارتى ، عسى أن أجد عندها الفهم النهائى .

ووضعت الفنجان من يدى ورحت أفحص عقلى . فعليه هو أن يكتشف الحقيقة : ولكن كيف ؟ ما أعمق الهاوية ، هاوية الحيرة ، عندما يشعر العقل أن جانباً منه قد ضل الطريق فيما وراء تخومه . وعند مايكون الباحث المرتاد هو نفسه المنطقة المظلمة التى يتحتم عليه ارتيادها ، وحيث لن يجديه عتاده كله نفعاً . أأقول يبحث ويرتاد ؟ بل أكثر من هذا : يخلق ! فهو وجهاً لوجه أمام شىء غير موجود ، وعليه وحده أن يمنحه الواقعية والكيان المادى ، الذى يخرجه بعد ذلك إلى ضوء النهار .

وأبدأ مرة أخرى فى سؤال نفسى ماذا عسى أن تكون هذه الحالة المنسية التى لم تأت معها بأى إثبات منطقى لوجودها ، بل مجرد الإحساس بأنها كانت حالة سعيدة ، وأنها كانت حالة حقيقية واقعية ذابت فيها حالات وعى شعورية حتى اختفت تماماً . وقررت أن أحاول جعل هذه الحالة تعود للظهور . وأتعقب أفكارى إلى اللحظة

التى رشفت فيها أول ملعقة من الشاى . وأجدنى مرة أخرى بإزاء نفس الحالة ، من غير أن يضيئها نور جديد . وأجبر عقلى على أن يبذل جهداً آخر ، وأن يتعقب ويقتضى مرة أخرى الإحساس الهارب . ولكى لا يقاطع عقلى فى بحثه هذا ومساره فيه أى شىء آخر ، أبعدت كل عقبة وكل فكرة دخيلة . وسددت أذنى وكففت كل انتباه للأصوات الصادرة عن الحجرة المجاورة . وعندئذ شعرت أنى أتعبت عقلى من دون أن يحقق أى نجاح ، وعندئذ أجبرته على تغيير اتجاهه لكى ينعم بالتلهية التى حرمتها عليه منذ قليل ، وحملته على التفكير فى أمور أخرى ، وعلى أن يستريح وينتعش قبل الإقدام على المحاولة القصوى . وللمرة الثانية أفسحت مسافة خالية أمامه ، ووضعت نصب عين عقلى طعم أول ملعقة شاى رشفتها منذ قليل . وشعرت بشىء يتحول فى داخلى . شىء يغادر مرقده ومثواه ، ويحاول أن ينهض . شىء كان غائصاً كالهلب أو المرساة فى الأعماق البعيدة الغور . ولست أعرف حتى الآن ما هو . ولكنى أشعر به وهو يصعد من مثواه ، وأستطيع أن أقيس المقاومة ، بل وأستطيع أن أسمع أصداء المسافات الشاسعة التى يقطعها .

لا مراء فى أن ما ينتفض هكذا فى أعماق كيانى لابد أن يكون الصورة البصرية للذكرى المرتبطة بهذا الطعم ، وهى تحاول أن تتبعه إلى عقلى الواعى . ولكن مجاهداتها وكفاحها شديدة البعد جداً ، وبالغة الاختلاط ، فلا أكاد أتبين الانعكاس الذى لا لون له ، ذلك

الانعكاس الغامض الذى يمتزج فيه هذا الخليط المدوم من الألوان والأصباغ المتألقة ، ولا أستطيع أن أتبين صورتها وشكلها ، ولا أستطيع أن أدعوها — بما أنها المترجم والمفسر الوحيد — كى تترجم لى مدلول خليلها وقرينها المعاصر لها والذى لا ينفصل عنها ، وهو طعم الكعك المغموس فى الشاى . ولا أستطيع أن أطلب منها أن تخبرنى ما هو الظرف الخاص الذى صنع هذا الاقتران ، ولا ما هى فترته فى حياتى الماضية :

أيتسنى لهذه الذكرى أن تصل فى النهاية إلى السطح الصافى الواضح لوعيى ، وهى ذكرى لحظة ميتة دفينة ، أزعجتها فى مثواها لحظة مطابقة لها وبعثتها من رقادها فى أعماق كيانى ؟

هذا شىء لا أستطيع أن أتكهن به . فالآن ، وأنا لا أحس شيئاً ، أراها توقفت ، ولعلها عادت إلى حيث كانت فى أطواء ظلماتها ، ومن يدرى أتغادرها مرة أخرى وتبعث حية من جديد أم لا ؟ وحتم على أن أناضل فى هذا السبيل عشر مرات ، وأنا منحن على شفا الهاوية العميقة . وفى كل مرة كان الكسل الطبيعى الذى يثنينا عن المهام الشاقة ، وكان أى عمل هام يدعونى للتخلى عن هذه المحاولة ، وأن أشرب الشاى ولا أفكر إلا فى هموم اليوم وآمال الغد ، التى تبيح نفسها لتفكيرنا من غير إجهاد للعقل :

وفجأة تعود الذكرى : فالطعم كان طعم فتات كعكة المدلين التى كانت عمتى ليونى Léonie فى أيام الأحد بكمبراى (فى تلك الأيام لم أكن أخرج قبل موعد الكنيسة) عندما أذهب إليها فى حجرتها لأقرئها تحية الصباح ، من عادتها أن تقدمها لى ، وقد غمستها فى فنجانها الخاص من الشاى الحقيقى أو المموه بزهر الليمون . ولكن منظر كعكة المدلين الصغيرة لم يذكرنى بشىء قبل أن أتذوقها : وربما كان السبب فى هذا أننى رأيت أشياء كثيرة شبيهة بشكلها على مدى هذه المدة من الزمن ، من غير أن أتذوقها . رأيتها على الصوانى فى واجهات محلات الفطائر ، بحيث انفصل منظرها عن ذكرى تلك الأيام فى كمبراى ، واتخذت لها مكاناً بين صور ذكريات أحدث : ولعل السبب أيضاً أن تلك الذكريات صارت مهجورة وبعيدة عن الذهن ، ولا شىء اليوم يحييها ؛ فصارت مشتتة . وصارت أشكال الأشياء ، بما فيها الكعكة المروحية الشكل بطعمها الخاص الحاد المتفرد ، إما مطموسة أو غافية منذ أمد طويل بحيث فقدت قدرتها على الامتداد واستعادة مكانها فى شعورى أو وعيى : ولكن عندما لا يتبقى شىء من ماض بعيد ؛ بعد أن يموت الناس ، وبعد أن تتحطم الأشياء وتتبدد . تظل محسوسة بمزيد من القوة والحيوية والإلحاح والأمانة روائح وطعوم الأشياء لمدة طويلة من الزمن ، كأنها الأرواح متأهبة لتذكيرنا ، متربصة وكلها رجاء فى لحظة بعثها ، بين أطلال سائر حكام الماضى ، وتحمل فى أطوائها الرهيفة التى لا تكاد تحس كل التكوين المعمارى لهذه الذكريات

ومنذ تذكرت طعم فتات المدلين المغموسة فى شرابها الساخن

من أزهار الليمون، التى تعودت عمتى أن تقدمها لى (وإن لم أعرف، وكان على أن أؤجل طويلا اكتشافى لسبب ما أشعرتنى به هـذه الذكرى من السعادة) حتى انتصب أمام نظرى على الفور البيت الرمادى العتيق القائم فى ذلك الشارع ، والذى كانت فيه حجراتها وكأنه منظر فى مسرح ، ترتبط بهذه الذكرى مقصورة صغيرة تطل وينفتح بابها على الحديقة ، وكانت قد شيدت خلفها لوالدى (وكانت هذه اللوحة المفردة هى التى ظلت حتى تلك اللحظة كل ما يمكننى أن أراه) ومع البيت انتصبت البلدة ، من الصباح إلى المساء ، وفى كل الأجواء ، والميدان الذى كانوا يرسلوننى إليه قبل الغداء، والشوارع التى كنت أجرى فيها لقضاء المهمات ، والطرق الريفية التى كنا نمشى فيها عندما يكون الجو جميلا :

وكما يتسلى اليابانيون بملء وعاء خزفى بالماء وإلقاء قصاصات صغيرة من الورق فيه لم يكن لها حتى الآن شكل ، ولكنها متى ابتلت تنتفش ويصير لها لون وشكل معينـان ، وتصير أزهاراً أو بيوتاً أو أناساً نتعرف عليها . كذلك فى هذه اللحظة جميع أزهـار حديقتنا ، وبستان مسيوسوان ، وزنابق الماء فى فيفون Vivonne ، والناس الطيبون فى القرية ، ومساكنهم الصغيرة ، وكنيسة الأبروشية ، وكل كمبراى وضواحيها ، اتخذت الآن شكلها الخاص ، وغـدت ملموسة صلبة ، وطفرت إلى الوجود ، بلدة وحدائق على السواء ، من فنجان شاى :

— ٢ —

كانت كمبراى من مسافة عشرة فراسخ ، كما تعودنا أن نراها من قطار سكة الحديد عندما نصل إلى هناك كل سنة فى الأسبوع المقدس ، لا تبدو لنا أكثر من منارة كنيسة تلخص البلدة ، وتمثلها وتتحدث عنها ، وتنطق باسمها للأفق بأسره . وكلما اقتربنا من غلالتها القاتمة التى تحميها من الرياح فى السهل المنبسط ، وكأنها الراعى الذى يجمع أغنامه المتمثلة فى بيوتها الرمادية بدت تحدق بها بقايا تحصينات كانت قائمة فى القرون الوسطى تظهر هنا وهناك ، وكأنمـا البـلدة صورة لمدينة صغيرة فى لوحة بدائية :

والحيـاة فى كمبراى مقبضـة بعض الشىء ، فشوارعهـا قليلة الإضاءة متى جنحت الشمس للمغيب ، وبيوتها مبنية من الحجارة المـائلة للسواء فى ذلك الإقليم ، وأمامها سلالم خارجية ، وتعلوها الجمالونات التى تلقى ظلالا طويلة أسفلها ، بحيث يتحتم علينا أن نزيح من فوق النوافذ ستائر حجرات الجلوس متى مالت الشمس فى أفق السماء . وكانت الشوارع تحمل أسماء مهيبة للقديسين ، وغير قليل منهم ظهروا فى تاريخ نبلاء وسادات كمبراى القدامى ، مثـل شارع سان إيلير St. Hilaire ، وشارع سان جاك St. Jacques الذى به بيت عمتى ، وشارع سانت إلدجارد St. Hildegarde الذى يمر بسور حديقتها ، وشارع الروح القدس ، الذى يفضى إليه باب الحديقة الصغير : وشـوارع كمبراى هذه قائمة فى ركن قصى من

ذاكرتى ، ملونة بألوان مختلفة جداً عن ألوان سائر الدنيا كما أراها اليوم ، بحيث تتراءى لى اليوم هى والميدان الذى به الكنيسة التى تشرف عليها من عليائها أقل مادية من صور فانوسى السحرى . ولكن فى أوقات أخرى أشعر أننى لو عبرت شارع سان إيلير مرة أخرى ، لأكترى حجرة فى شارع العصفور ، فى نزل العصفور القديم الذى كانت تتصاعد من نوافذه السفلى رائحة طهو لم تزل تتصاعد فى ذهنى فى الحين بعد الحين ، بنفس هبات الراحة الدافئة ، لكان ذلك كفيلاً بأن أعيد اتصالى بعالم خارق للطبيعة ، فكأننى تعرفت بجولو شخصياً وجاذبت الحديث جنيفييف دى برابان .

وابنة عم جدى — وعلى سبيل المجاملة أدعوها عمتى الكبرى — هى التى كنا نقيم عندها . وهى أم عمتى ليونى التى أبت — منذ وفاة زوجها (عمى أوكتاف Octave) — أن تغادر كمبراى فى بادئ الأمر ، ثم بيتها فى كمبراى ، ثم حجرة نومها ، وأخيراً أبت أن تغادر فراشها . فهى الآن لا تنزل أبداً إلى الطابق السفلى ، بل ترقد باستمرار فى حالة حزن دائم ، وإعياء بدنى ، ومرض ، ووساوس ، ومراعاة دقيقة للطقوس الدينية . وكانت حجرتها تطل على شارع سان جاك ، الذى كان يمتد إلى مسافة طويلة لينتهى فى المرج الكبير (تمييزاً له من المرج الصغير ، وهو مكان به خضرة فى وسط البلدة حيث تلتقى ثلاثة شوارع) . وهذا الشارع ممل رمادى اللون متشابه أمام معظم أبواب بيوته ثلاث درجات عالية ، فكأنه خط عميق نحته

نحات للصور القوطية فى كتلة الصخر نفسها التى صاغ منها مزوداً . وكانت حياة عمتى الآن محصورة عملياً داخل حدود حجرتين ، تمكث فى إحداهما بعد الظهر بينما تتم تهوية الحجرة الأولى . وهما حجرتان على ذلك النظام الريفى الذى يفتن فى بعض فى الأجواء حاسة الشم بأنواع العبير التى لا تحصى ، التى تفوح من أسرار نظام الحياة هناك والممتزجة بمعان روحية وخلقية خاصة ، وكلها عالقة بالهواء ذائبة فيه . وهى روائح طبيعية جداً حقاً ، وتصطبغ بألوان وظروف شبيهة بما حولها من ريف ، ولكنها ذات لون خاص بها ، وتمتزج فيها كل ثمار الموسم وفاكهته التى تركت أشجار البستان وتكدست فى حجرات التخزين . وهى روائح تتغير بتغير مواسم السنة بطبيعة الحال ، وتمتزج حتى فى صقيع الشتاء برائحة الخبز الطازج الساخن . روائح كسول ، دقيقة كأنها ساعة القرية . روائح محومة فى الهواء ، محملة بعبير التقوى وتبعث على الخشوع . وتبعث الحبور مع هذا فى نشوة متزايدة ، وتكاد تكتسب سحر الشاعرية لدى الغريب العابر وسطها من غير أن يقيم بين ظهرانيها .

كان هواء هاتين الحجرتين مشبعاً بباقة من الصمت ريانة ، مغذية ، حتى أننى لم أكن أستطيع أن أدخلهما من غير أن أشعر بحبور جشع ، ولا سيما فى الأيام الأولى ، التى لم يزل الصباح فيها بارداً مقروراً ، أيام عطلة عيد الفصح ، فيزداد تذوقى هذا الجو الخاص وروائحه ، لأنى حديث عهد بالقدوم إلى كمبراى .

وقبل أن أدخل لدى عمتى لكى ألقى عليها تحية الصباح ، أستبقى فترة من الوقت فى الحجرة الخارجية . حيث الشمس ، شمس الشتاء فى أواخره ، قد تسللت إلى الحجرة لكى تستدفئ أمام النار التى أوقدت بالفعل بين جانبيها من الآجر ، وراحت تملأ الحجرة وكل ما فيها برائحة الدخان ، مما يجعل هذه الحجرة أشبه بإحدى تلك المدافئ الضخمة المفتوحة التى نجدها فى الريف . أو كإحدى تلك المدافئ ذات الظلل فى القلاع القديمة التى يجلس المرء فى كنفها وهو يأمل أن يكون الجو فى الخارج ممطراً أو ثلجياً ، بل ويأمل فى أن يحدث طوفان مدمر لكى يضيف إلى رومانسية المأوى والملاذ الأمين لذة الشعور بالاستكنان . وأروح وأغدو بين المصلى والمقاعد الوثيرة المخملية ، التى غطى كل منها بكسوته المصنوعة من الكروشيه ، بينما النار تبعث كما تبعث الفطيرة المخبوزة روائح شهية يحتشد بها هواء الحجرة ويتخثر ، روائح تصاعدت مع ريح الصباح وأندائه وبدأت تستقر ، والنار تنضجها وتقلبها وتنفخها حتى تغدو كفطيرة غير منظورة وغير ملموسة من فطائر الريف . فطيرة رقائقية ، كنت أنتقل من الوعى بها إلى روائح أشد جفافاً وأرق نكهة ، هى روائح الصوان ، وصفوف الأدراج المتراصة وورق الحائط المزخرف ، ثم أرتد عن هذا كله فى شراهة لأدفن نفسى فى الرائحة الراتنجية التى لا يمكن وصفها ؛ الرائحة التى تشبه عبق الفاكهة ، والتى تنبعث من اللحاف المشجر .

وفى الحجرة الأخرى أسمع عمتى تحدث نفسها بصوت خافت ، ولم تكن تتكلم أبداً إلا بصوت خفيض ، لأنها كانت تعتقد أن شيئاً ما فى رأسها مكسور وطاف هناك ، تخشى أن تقلقله ، إذا تحدثت بصوت مرتفع ، ولكنها لم تكن تظل أبداً مدة طويلة ، حتى ولو كانت وحدها ، من غير أن تقول شيئاً ، لأنها كانت تعتقد أن هذا يفيد حنجرتها ، وأن تحريك الدم هناك خليق أن يقلل الاختناقات وغيرها من الآلام التى كانت معرضة لها . أضف إلى هذا أن حياة الجمود أو القصور الذاتى التى كانت تعيشها جعلت أهمية كبرى لأقل وأتفه إحساساتها ، بحيث تملك عليها كل تفكيرها ولا تستطيع أن تحتفظ بها لنفسها . وإذا افتقدت من تفضى بها إليه حدثت نفسها بها ، فى منولوج أو مناجاة مسموعة هى كل نشاطها الذى تقوم به ، ولأنها تعودت التفكير بصوت عال ، لم تكن تراعى وجود أحد فى الحجرة المجاورة ، ولذا كثيراً ما سمعتها تقول لنفسها :

— يجب ألا أنسى أن جفنى لم يغمض لحظة واحدة .

ذلك أن عدم النوم دقيقة واحدة كان دعواها الكبرى للامتياز ، وكان هذا المصطلح محترماً جداً بين الخدم ، لذا كانت فونسواز فى الصباح لا « تناديها » بل تأتى إليها : وفى أثناء النهار إن أرادت عمتى أن تحظى بغفوة ، كنا نقول إنها تريد آن « تستريح » أو « تهدأ » ، وإذا هفت فى الحديث وقالت :

— ما أيقظنى ؟

أو تقول :

— رأيت فى المنام كذا :::

كان وجهها يحمر وتصحح الخطأ بسرعة :

وبعد أن أنتظر دقيقة أدخل عليها وأقبلها . وتكون فرنسواز منصرفة إلى عمل شايها ، أو إن كانت عمتى تشعر بالانزعاج أو القلق ؛ تطلب بدلا منه شرابها الساخن . وعندئذ يكون من واجبى أن أسكب من كيس الصيدلى الصغير على طبق كمية زهر الليمون التى ينبغى أن تنقع فى الماء المغلى . وكان جفاف الأزهار قد غير شكلها وجعلها تتداخل فى كتلة تتفتح وسطها الأزهار الشاحبة عندما تنقع ، فى شكل جميل كأنما قد نسقها رسام ، فى أحسن الأوضاع للزينة الزخرفية . أما الأوراق التى جفت وتغير شكلها فتبدو بعد نقعها فى صور غريبة الشكل متنافرة ، ولكنها متداخلة كما تتداخل فروع القش عندما تنسجها الطيور لتبنى أعشاشها . وكانت هذه المكونات الطبيعية التى أعدها الصيدلى خليقة أن تختفى لو استعملت عمتى تركيباً صناعياً ، فكأنها كتاب قديم يدهش المرء أن يقرأ عليه اسماً يعرفه . كذلك كانت أزهار الليمون هذه تدهشنى بعد نقعها عندما أتبين أنها أزهار حقيقية ، كتلك التى رأيتها على الأشجار وأنا قادم من القطار ، فى شارع المحطة ، ولئن تغيرت فهى لم تزل هى ، ولكن تقدمها فى السن هو الذى غير شكلها .

وكما تكون كل شخصية مجرد تحول من شئ أقدم ، فأنا أيضاً



وبعد أن انتظـــر دقيقة ادخل عليها وأقبلها وتكون فرنسواز منصرفة إلى عمل شايها

فى هذه الكريات عرفت البراعم الخضراء التى قطفت قبل أوانها ، ولكنى عرفت أكثر من هذا — عندما رأيتها — ضياء القمر الرقيق الذى كان يفض تلك الأزهار وسط الأعواد الرقيقة التى كانت هى معلقة وسطها كالورود الذهبية . إنها تدلنى على صورتها القديمة كما تدل بقايا رسم قديم على الحائط على شكله السابق . وقد امتدت يد الصيدلى إلى هذه الأزهار وقطفها قبل الأوان وحنطها فى أمسيات الربيع الدافئة . وضوء الشمعة الوردى لم يزل هو لونها ، ولكنه خبا بعض الشيء ومات فى ضوء زهرة . وسرعان ما تقرب عمتى منها الشراب وهو يغلى ، والذى تشتم منه فى حبور نكهة الأزاهير الميتة أو الباهتة وتغمس فيه كعكة مدلين صغيرة ، تقدم لى منها قطعة عندما تغدو ناعمة .

وعلى أحد جانبى فراشها خزانة ذات أدراج كبيرة صفراء ، مصنوعة من خشب الليمون ، ومنضدة تستخدمها فى آن واحد صيدلية ومذبحاً للصلاة ، تجد فوقها — تحت تمثال لسيدتنا العذراء وزجاجة من ماء فيشى Vichy كتب صلواتها ووصفاتها الطبية ، وكل ما تحتاج إليه وهى فى فراشها لأداء واجباتها الروحية والجسدية ، ولضبط الوقت لتعاطى الببسين وتلاوة صلاة المساء (العشية) .
وعلى الجانب الآخر من فراشها توجد النافذة ، تطل منها على الشارع من تحتها ، وتقرأ فى ضوئها من الصباح إلى الليل لتزجى سآمة حياتها ،

وكأنها أمير فارسى ، الصحائف اليومية لكمبراى ، التى تناقشها تفصيلا مع فرنسواز بعد ذلك .

ولا أكاد أقضى مع عمتى خمس دقائق حتى تصرفنى إذا أحست أنى أتعبها ، وتميل للأمام لأقبل جبينها الحزين الشاحب الذى لا حياة فيه ، الذى لم يكن الوقت فى الصباح قد اتسع أمامها بعد لكى تنسق فوقه الشعر المستعار ، وعظامه البارزة تلمع تحت بشرتها كأنها تاج من الشوك أو حبات مسبحة ، وتقول لى :

— والآن يا طفلى الطيب ، لا بد أن تذهب . اذهب وتأهب للمضى إلى القداس : وإذا رأيت فرنسواز فى الطابق السفلى قل لها ألا تضيع وقتها فى اللهو معك ، بل عليها أن تصعد بسرعة لترى هل أحتاج لشيء ...

وكانت فرنسواز قد سلخت فى خدمة عمتى سنوات طويلة ، ولم تكن فى ذلك الوقت يخطر ببالها أنها ستنتقل يوماً إلى خدمتنا بالكامل ، ولكنها كانت ميالة بعض الشيء إلى هجر عمتى أثناء الشهور التى نقضيها فى البيت . وكان قد غبر وقت من طفولتى ، قبل ذهابنا لأول مرة إلى كمبراى ، كانت عمتى ليونى تعيش فترة الشتاء فى باريس مع أمها ، وكانت معرفتى فى ذلك الحين بفرنسواز قليلة ، حتى أن أمى ، عند ذهابى إلى بيت عمتى الكبرى فى يوم رأس السنة كانت تضع فى يدى قطعة من ذات الخمسة فرنكات وتقول لى :

— كن يقظاً ولا ترتكب خطأ . انتظر إلى أن تسمعنى أقول

« صباح الخير يا فرنسواز » وعندئذ ألمس ذراعك ، فتتقدم وتعطيها قطعة النقود .

وما إن نصل إلى بهو عمتى المظلم حتى نرى فى العتمة ، تحت أهداب طاقية ناصعة البياض كالثلج وصلبة هشة كأنها مصنوعة من « غزل البنات » ، ابتسامة مشعة متسعة الدوائر للإعراب عن عرفان بالجميل مقدماً . إنها فرنسواز فى وقفتها الثابتة اليقظة فى فتحة باب الدهليز كأنها تمثال قديسة فوق قاعدته . وبعد أن نألف هذه الظلمة الدينية نتبين فى قسمات وجهها محبة نزيهة للبشرية كلها ، ممزوجة باحترام رقيق للطبقات العليا يرفع من أملها فى الحصول على الجزاء الذى نستحقه . وتقرص ماما ذراعى بقسوة وتقول بصوت عال :

— صباح الخير يا فرنسواز .

وعند هذه الإشارة تفلت أصابعى الصغيرة قطعة النقود التى تجد مستقرها فى يد مرتبكة ولكنها ممدودة . ولكن منذ بدأنا نذهب إلى كمبراى لم يعد هناك من أعرفه أكثر من فرنسواز : فقد كنا أثيرين لديها ، وفى السنوات الأولى على الأقل ، حينما كانت تظهر احترامها وإجلالها لنا مثلما تظهرهما لعمتى ، كانت تستطيب وجودنا بمزيد من السرور ، لأننا بالإضافة إلى كوننا متمتعين بمكانتنا كأعضاء فى الأسرة . (فقد كانت لروابط الدم التى تربط أعضاء الأسرة عندها مثل الاحترام الذى كان لتلك الروابط عند مؤلف المآسى الإغريقية) أننا لسنا فى الوقت نفسه مخدوميها العاديين . لذا كانت ترحب بنا فى

سرور عظيم ، وتبدى أسفاً شديداً لأن الجو لم يزل رديئاً بالنسبة لنا ، يوم وصولنا قبل عيد الفصح مباشرة . فالواقع أن الرياح كانت تهب فى الغالب ثلجية . ونتلقى هذه المشاعر منها وتسألها ماما عن ابنتها وأبناء إخوتها ، وهل حفيدها جميل الصورة ، وماذا يعدونه له فى المستقبل : وهل هو مثل جدته .

وفيما بعد ، عندما لا يكون هناك أحد آخر فى الحجرة ، ولما كانت ماما تعرف أن فرنسواز لم تزل محزونة وتلبس الحداد لوفاة والديها ، اللذين ماتا منذ سنوات طويلة ، لذا كانت تحدثها عنهما برقة ، وتلقى أسئلتها الصغيرة التى لا تنتهى عنهما وعن حياتهما .

وقد أدركت بحواسها أن فرنسواز لم تكن بالغة الولع بزوج ابنتها ، وأنه كان يفسد عليها لذتها من زيارة ابنتها، إذ لا تستطيع الاثنتان أن تتحدثا بحرية أمامه . وهكذا حدث عندما كانت فرنسواز ذاهبة إلى بيت ابنتها وزوجها ، على مسافة بعيدة من كمبراى ، أن قالت لها ماما باسمة :

— خبرينى يا فرنسواز . إن خرج جوليان Julien ، وبقيت لك مرجريت Marguerite ، طول النهار أحسبك ستأسفين ، ولكنك ستتحملين هذا الفراق بسهولة !

وأجابتها فرنسواز ضاحكة :

— سيدتى تعرف كل شىء . سيدتى أمهر من أشعة (س) ؛ (وتنطق السين فى تكلف وتهيب . على استنكارها لجرأتها كامرأة

جاهلة على استخدام مصطلح علمى) التى جاءوا بها هنا لفحص مدام أكتاف ومعرفة ماذا أصاب قلبها .

وانطلقت مضطربة لأن أحدا اهتم بأمرها ، وتخشى أن نراها باكية ، فقد كانت ماما أول شخص منحها بهجة الشعور بأن حياتها الريفية ، بأفراحها وأحزانها البسيطة ، يمكن أن تكون مثار اهتمام ، ومصدر حزن أو فرح لأحد سواها .

وراضت عمتى نفسها على الاستغناء نوعاً عن فرنسواز أثناء زياراتنا ، لعلمها كم كانت ماما تقدر خدمات مثل هذه الخادمة النشيطة الذكية ، التى تبدو أنيقة فى الخامسة صباحاً فى مطبخها ، تحت طاقية تبدو أهدابها الصلبة المتلألئة كأنما صنعت من الخزف ، وكأنما قد لبست ثياب زينتها لتذهب إلى الكنيسة ، وتقوم بكل شىء على الوجه الصحيح ، وتعمل وتكدح كالحصان ، سواء أكانت سليمة أو عليلة ، ولكن بدون ضوضاء ، ومن غير أن يبدو عليها أنها صنعت شيئاً . وهى الوحيدة بين خادمات عمتى التى كانت إذا طلبت منها ماما ماء ساخناً أو قهوة سوداء تأتيها بها وهى تغلى غلياناً، فهى من تلك الخادمات اللواتى يبدو للغريب فى البداية أنهن غير مرضيات ، لأنهن لا يحاولن كسب قلوب الغرباء ولا يبدين لهم اهتماماً خاصاً . ولكنهن شديدات التعلق بسادتهن الذين اختبروا كفاءتهن وقدروها قدرها ، ولا ينظرون إلى هذه الاستجابة الظاهرية ، وتلك الدماثة العبودية التى قد تؤثر كثيراً فى الغريب ،ولكنها غالباً ما تخفى

جدباً فى الروح لا يمكن أن يعوضه التدريب .

وعندما تأكدت فرنسواز أن والدى حصلا على كل ما يلزمهما صعدت أولا إلى عمتى لكى تعطيها جرعتها من الببسين ، ولتعرف منها ماذا تريد أن تتناوله فى الغداء . وقلما يمر صباح من غير أن تستدعيها عمتى لإبداء الرأى أو تقديم تفسير لحدث هام :

— تصورى يا فرنسواز . لقد مرت مدام جوبيل Goupil متأخرة أكثر من ربع ساعة لتأخذ أختها إلى الكنيسة ، وإذا أضاعت وقت آخر فى الطريق فلن يدهشنى أن تصل إلى هناك بعد رفع القربان .

ويكون الرد :

— ليس فى هذا شىء غريب ...

أو تقول عمتى :

— فرنسواز . لو أنك جئت قبل خمس دقائق لرأيت مدام أمبير Imbert تمر من هنا وفى يدها إسبرجس حجمه ضعف حجم ما عند الأم كالو Callot . حاولى أن تعرفى من طباختها من أين حصلت عليه . وأنت دأبت طيلة الربيع على وضع الإسبرجس فى كل صلصاتك ، وقد يتاح لك أن تحصلى على شىء من هذا النوع الكبير لضيوفنا .

— لن يدهشنى أن تكون حصلت عليه من حديقة القس .

فتجيبها عمتى ، رافعة كتفيها :

— أظنك مخطئة يا فرنسواز . من حديقة القس حقاً ! أنت تعرفين أنه لا يستطيع أن يستنبت إلا إسبرجساً هزيلا جداً ، ليس إسبرجساً حقيقياً على الإطلاق . وأنا أقول لك إن هذا الإسبرجس فى ضخامة ذراعى . ليس ذراعك بالطبع ، بل ذراعى المسكين الذى زاد هزالا فى هذا العام .

أو تقول عمتى :

— فرنسواز . ألم تسمعى هذا الجرس الآن ؟ لقد شق دماغى :

— لا يا مدام أوكتاف ..

— آه ! يا فتاتى المسكينة لابد أن جمجمتك سميكة جداً . واحمدى الله على هذا . لقد كان الذى دقه هى ماجلون Maguelone ، جاءت لتأخذ الدكتور بيبرو Piperaud ، فخرج معها على الفور ، وذهبا إلى شارع العصفور ، لابد أن طفلا مريضاً هناك :

وتقول فرنسواز وهى تتنهد ، لأنها لا تستطيع أن تتحمل سماع بلية تصيب أحداً ولو كانت لا تعرفه، وفى أى مكان بعيد من أنحاء العالم من غير أن تتأثر وتحزن :

— يا للمخلوق المسكين العزيز الصغير !

أو تقول عمتى :

— فرنسواز . لمن دقوا الآن جرس النعى الآن ؟ أوه ! إنه طبعاً لمدام روسو Rousseau . تصورى أنى نسيت أنها ماتت ليلة أمس . لقد آن يارب أن تدعونى أنا أيضاً إليك . فلست أدرى ماذا

جرى لرأسى منذ فقدت عزيزى أوكتاف . ولكنى أضيع وقتك يا فتاتى الطيبة :

— كلا يا مدام أوكتاف : وقتى ليس ثميناً بهذه الدرجة : فالذى خلق وقتنا لم يبعه لنا . ولكنى سأذهب لأتأكد أن نارى لم تنطفىء :

وعلى هذا النحو كانت فرنسواز وعمتى تقومان بتقويمات نقدية أثناء جلساتهما الصباحية للأحداث الباكرة من كل يوم . ولكن فى بعض الأحيان كانت هذه الأحداث تبدو غامضة جداً أو مروعة بحيث تشعر عمتى أنها لا تستطيع الانتظار إلى أن تصعد إليها فرنسواز ، وعندئذ يجلجل رنين رباعى فى أرجاء البيت .

وتبدأ فرنسواز الكلام قائلة :

— ولكن ليس هذا وقت تناولك الببسين . أتشعرين بإغماء ؟

وتجيبها عمتى :

— لا ، وشكراً لك يا فرنسواز . بل نعم يا فرنسواز ، فأنت تعرفين أن الأوقات التى لا أشعر فيها بالإغماء نادرة . ويوماً ما سأقضى نحبى مثل مدام روسو قبل أن أعرف أين أنا . ولكن ليس هذا سبب دق الجرس . أتصدقين أنى رأيت لتوى ، بكل جلاء كما أراك أنت الآن ، رأيت مدام جوبيل مع بنت صغيرة لا أعرفها على الإطلاق ؛ اجرى الآن واشترى بصلدى ملحاً من عند كامى Camus ، فكثيراً ما يخبرك تيودور Théodore بحقيقة من لا نعرفهم من الناس .

وتقول فرنسواز ، مفضلة الإيضاح الفورى ، لأنها قد ذهبت إلى حانوت كامى مرتين من قبل هذا الصباح :

— لا بد أنها ابنة المسيو بيبان Pupin .

— ابنة مسيو بيبان ! حقاً هذا كلام غير معقول ! أتخالينى لم أكن لأعرفها ؟!

— ولكنى لا أعنى ابنته الكبرى يا مدام أوكتاف ؛ بل أعنى الصغرى : التى تذهب إلى المدرسة فى « جوى » Jouy : ويخيل إلى أنى رأيتها مرة من قبل هذا الصباح .

فتقول عمتى :

— أوه . إنها هى إذن ! لابد أنها جاءت لقضاء الإجازة ؛ نعم ؛ إنها هى. لا حاجة للسؤال إذن : لابد أنها جاءت لقضاء الإجازة ؛ ولكننا إذن سرعان ما نرى مدام سازيرا Sazerat تأتى وترن جرس باب أختها ، للغداء . وقد رأيت غلام محل جالوبان Galopin يدخل إلى هناك حاملا « تورتة » . وسترين أن التورتة كانت لمدام جوبيل :

ويكون الجواب :

— متى كان فى بيت مدام جوبيل أحد يا مدام أوكتاف ، فلن يمضى وقت طويل حتى نرى كل قومها سائرين للذهاب للغداء هناك ، لأن الوقت لم يعد مبكراً ..

لأن فرنسواز صارت قلقة متلهفة على النزول للعناية بالطعام ،

ولذا لم تكن آسفة لتركها عمتى تستمتع وحدها بهذه التلهية ويكون جواب عمتى وهى تنظر بقلق نحو الساعة نظرة مختلسة حتى لا يبدو عليها الاهتمام الزائد بالأمور الدنيوية :

— لا . لن يكون هذا قبل الظهر ! وسيكون مرورهم عندئذ وأنا فى منتصف غدائى .

ولكنها تتفوه بالجزء الأخير من عبارتها فى مفاجأة خافتة لنفسها ، لحرصها على متعة هذه المشاهد ، مع أن غداءها كان نوعاً من التسلية فى حد ذاته ، لذا كانت تحب أن تتفرغ له ولا تكون هناك فى نفس وقته تسلية أخرى ، وتردف :

— ولكنك على الأقل لن تنسى أن تعطينى بيضى المخفوق بالقشدة فى إحدى الصحاف المفلطحة .

فهذه الصحاف هى الصحاف الوحيدة التى كانت عليها لوحات مصورة ، وكان من عادة عمتى أن تستمتع مع كل وجبة بقراءة الوصف المكتوب على أى صحفة ترسل إليها من أسفل ، مثل «على بابا والأربعون لصاً» أو « علاء الدين » أو « المصباح السحرى » وتبتسم عندئذ وتقول :

— هذا حسن جداً فى الحقيقة .

وتقول فرنسواز ، وقد ألفت عمتى غير راغبة فى إرسالها إلى البقال :

— وأستطيع على كل حال أن أذهب إلى محل كامى ...

— أوه . كلا . كلا ! المسألة الآن لا تستدعى الذهاب . فمن المؤكد أنها ابنة المسيو بيبان . أنا آسفة يا فرنسواز المسكينة لأنى جعلتك تصعدين بلا موجب ..

ولكن ذلك لم يكن بلا موجب ، كما تعلم عمتى هذا جيداً ، بل كان هناك موجب لرن الجرس لفرنسواز ، فأى شخص « لا يعرفه المرء على الإطلاق » فى كمبراى كان ظاهرة لا يصدقها العقل كأى آلهة أسطورية ، وسرعان ما ينسى الناس أنه بعد كل مناسبة ظهرت فيها بشارع الروح القدس أو فى الميدان إحدى هذه الظواهر المحيرة ، كان البحث والتحرى الدقيقان يتمخضان عن أن هذا الكائن الخرافى إن هو إلا شخص معروف ، إما بشخصه أو بصفة نظرية ، أى بصفته ذا وضع اجتماعى محدد ، كقريب بعيد أو غير بعيد لإحدى أسر كمبراى . فيتضح مثلا أنه ليس ابن مدام سوتون Sauton الذى سرح من الجيش ، أو ابنة أخ القس بردرو Perdreau التى قدمت من مدرستها بالدير ، أو أخ للخورى وهو جابى ضرائب فى شاتودان Chateaudun الذى أحيل أخيراً للتقاعد ويتقاضى معاشاً وجاء إلى كمبراى لقضاء العطلة. وعندما ترى هؤلاء للوهلة الأولى يقع فى روعك أن فى كمبراى « أشخاص لا تعرفهم على الإطلاق » ، لأنك لم تدرك وضعهم أو شخصياتهم على الفور . مع أنه قبل ذلك بمدة طويلة أعلنت مدام سوتون والخورى أنهما ينتظران قدوم « غريبين » .

وفى المساء عندما كنت أدخل البيت من الخارج وأصعد لأخبر

عمتى بأحداث نزهتنا على الأقدام ، من التهور أن أذكر لها أننا مررنا قرب الجسر القديم برجل لم يعرفه جدى ، لأنها عندئذ تقول مستهولة :

— رجلا لم يعرفه جدك على الإطلاق ؟ يا لها من حكاية !

ويزعجها هذا النبأ ، وتصر على معرفة التفصيلات على وجهها الصحيح . وتستدعى جدى لتسأله :

— من هذا الذى مررت به قرب الجسر القديم يا عمى ؟ أهو رجل لا تعرفه إطلاقاً ؟

ويجيبها جـدى :

— بل أعرفه . إنه بروسبير Procper شقيق بستانى مدام بوبيبف Bouilleboeuf .

فتقول عمتى وقد هدأت ، ولكن وجهها لم تزل به بعض الحمرة :

— آه . هذا حسن . ولكن الغلام قال لى إنك مررت برجل لم تعرفه على الإطلاق ؟ !

وبعدها يحذروننى ويدعوننى إلى أن أكون أشد يقظة لما أقوله كيلا أزعج عمتى بأنباء كهذه بغير تدبر . فكل من فى كمبراى كان معروفاً تمام المعرفة ، يستوى فى ذلك الناس والحيوانات ، بحيث إنه إذا اتفق أن رأت عمتى كلباً يمر أمامها « ولم تكن تعرفه إطلاقاً » راحت تفكر فيه بلا انقطاع ، وتخصص لحل هذه المعضلة المستعصية كل مواهبها فى الاستنتاج وكل ساعات فراغها .

وقد تقول لها فرنسواز عندئذ :

— إنه كلب مدام سازيرا ..

من غير أن تكون مقتنعة بذلك حقاً ، ولكن أملا فى السلام ، وحتى لا « تقلق عمتى دماغها » ، ولكن عقل عمتى الناقد اليقظ لن يقبل بسهولة هذا التفسير وتقول :

— كأنني لا أعرف كلب مدام سازيرا !

— هو إذن الكلب الجديد الذى جاءها المسيو جالوبان Galopin به من ليزييه Lisieux .

— إن صح هذا القول !

وتستطرد فرنسواز التى حصلت على النبأ من تيودور :

— يبدو هذا ، فهو حيوان جذاب جداً ، وبارع كأنه إنسان ، وهو دائماً رائق المزاج وودود ، وفيه دائماً كل السجايا الحسنة : وليس من المألوف فى زماننا أن نرى كلباً حسن التربية بهذه الصورة . بإذنك يا مدام أوكتاف ، فقد حان أن أتركك ، فلا يسعنى أن أبقى هنا أتسلى : انظرى : الساعة الآن العاشرة تقريباً ، وأنا لم أوقد نارى بعد ، ولم أتبل بعد الإسبرجس ...

— كيف هذا يا فرنسواز ؟ الإسبرجس مرة أخرى ! أنت مريضة هذه السنة بالإسبرجس ، وسوف تسئمين ضيوفنا الباريسيين منـــه !

— لا لا يا مدام أوكتاف ! بل إنهم يحبونه حباً جماً : وسرعان ما يعودون من الكنيسة فى غاية الجوع ، وسترين أنهم لن يأكلوه على مضض !

— الكنيسة ! لابد أنهم هناك الآن ! ويحسن بك ألا تضيعى الوقت : اذهبى للعناية بغدائك !

* * *

وبينما تثرثر عمتى مع فرنسواز على هـذه الصورة أكون قد صحبت والدى إلى الكنيسة لسماع القداس ! آه ، كم أحببتها ! ولكأنى أرى كنيستنا فى كمبراى أمام عينى الساعة ! فالعريشة التى أمام الباب الذى ندخل منه بناء أسود ، ملآن بالثقوب كالمصفاة ، ونالها البلى فتثلمت من جانبيها (وكذلك كان حال شرفة الماء المقدس التى تفضى بنا إليها ، كأنما مس أثواب النساء الفلاحات الداخلات إلى الكنيسة) وغمس أصابعهن فى الماء المقدس ، كان لهما بمرور الزمن أثر مخرب بفعل التكرار الطويل فى الصخر ، فحفر فيه أخاديد كالأخاديد التى تحفرها عجلات عربات النقل الثقيلة على صخر البوابات التى تمر منها فى كل يوم : وأحجار الكنيسة التذكارية التى تثوى تحتها أجداث كبار قسوس كمبراى وتقدم لجوقة الإنشاد رصيفاً له روحانية خاصة ، وهذه الأحجار التذكارية نفسها لم تعد صلبـة ومادة لا حياة فيها ، لأن الزمن قد أكسبها نعومة ولطافة ، فكادت تذوب كالعسل وتتدفق وراء حوافها ، فى تموجات جياشة ذات زبد ، لتغسل وتفرق أزهار البنفسج البيضاء التى ارتسمت على

الأرض الرخامية ، أو ترتد إلى حدودها لتلامس كتابة لاتينية وتفرق بين حرفين منها تمحو فواصلهما وتباعدهما عن سائر الأحرف .

ونوافذها لم تكن براقة قط كما هى فى الأيام التى يكون إشراق الشمس فيها واهناً ، بحيث إذا كان الجو معتماً فى الخارج كنت موقناً بأنه فى داخل الكنيسة رائع . وكان يملأ إحدى هذه النوافذ العالية من القمة إلى القاع شخص واحد ، أشبه بصورة الملك (الشايب) على ورقة من أوراق اللعب ، فهو يعيش هناك فى الأعالى تحت ظلته الحجرية ، ما بين الأرض والسماء . وفى الضوء الأزرق لظلها المائل ، فى أيام الأسبوع ، كنت أحياناً ترى فى وقت الظهر ، عندما لا يكون هناك قداس (فى آونة من تلك الآونات النادرة التى تكون فيها الكنيسة الخاوية أكثر إنسانية ورفاهية والشمس تبرز كل أثاثها الفخم ، فإذا هى أشبه بالأماكن المأهولة ، مثل بهو كبير فى قصر من قصور العصر الوسيط مبنى كله من الحجر المنحوت المنقوش والزجاج الملون) — كيف ترى مدام سازيرا راكعة لبرهة وعلى الكرسى المجاور لكرسيها لفافة أنيقة من الكعك الصغير الذى اشترته تواً من المخبز وستأخذه إلى البيت لغدائها . وفى نافذة أخرى ترى جبلا من الثلج الوردى ، وعند سفحه معركة محتدمة ، وكأنما الثلج قد جمد النافذة أيضاً وجعلها تنتفخ وتتلوى بما انهمر عليها من المطر نصف المتجمد ، فكأن زجاجها سقطت عليه شرائح ولصقت به ، ولكن هذه الشرائح تضيئها الشمس المشرقة : وهى بعينها تلك

الأشعة التى صبغت بلون القرمز الحاجز الخلفى للمذبح ، صبغة ناضرة كأنما ألقيت عليه من الخارج لبرهة قصيرة ، وليست فى الواقع رسماً ثابتاً فى الصخر . وجميع هذه الأشياء عتيقة جداً ، بحيث كنت ترى هنا وهناك عراقتها مشعة بغبار القرون ، وتكشف عن نسيج الزجاج البديع الذى كأنه قماش مزخرف نفيس : وكانت إحدى هذه النوافذ عبارة عن لوح طويل مكون من مائة نافذة صغيرة مستطيلة ، لونها الأساسى هو اللون الأزرق ، وكأنها لعبة الصبر التى صممت خصيصاً للملك شارل السادس ، ولكن : إما لأن أشعة الشمس لمعت من خلالها ، أو لأننى نقلت بصرى عبر النافذة ؛ راحت ألوان هذه المستطيلات تلمع وتخبو تباعاً ، بنار نادرة الشفافية ، وبعد لحظة بدت قزحية مثل ذيل الديك الرومى ، وراحت تهتز وترسل رذاذاً من الضياء المتوهج ينصب انصباباً فى جوف الظلمة التى انعقدت فى العقود الصخرية ، تحت الجدران الرطبة ؛ فكأننى كنت أجتاز كهفاً ملتوياً من الستالكتايت وراء والدى ، اللذين سارا أمامى ، قابضين على كتابى صلاتهما . وبعد برهة ألقت النوافذ المعينة الشكل أضواء كأحجار السافير الصلبة ، ولكن من ورائها كان فى الإمكان تمييز ما هو أثمن من كل تلك النفائس ، وهو ابتسامة الشمس التى يمكن الإحساس بها ورؤيتها من هنا ، فى هذا الطوفان الأزرق الرقيق الذى كان يغسل البناء الحجرى . مثلما ترى تماماً على أرض الميدان . أو على قش ساحة السوق ، وحتى فى أول

يوم أحد عند قدومنا قبل الفصح ، كانت هذه الشمس تعزينى عن سواد الأرض الجرداء فى الخارج ، بأن تفجر أزاهير التاريخ — كما لو كانت أزاهير الربيع — بين ورثة القديس لويس ، فى صورة هذا البساط المذهب المتلألئ من أزهار الأخلاص الزرقاء فى هذا الزجاج البديع :

وكانت هناك لوحتان من النسيج المرتفع تمثلان تتويج إستر Esther (وقد شاءت تقاليد هذه الرسوم أن يمنح النساج لأحشويروش Ahasuerus ملامح أحد ملوك فرنسا ، ويمنح إستر ملامح سيدة من جيرمنت Guermantes كان الملك عشيقها) ، وقد ذابت ألوانهما فاختلطت ، بحيث أضفت تعبيراً مريحاً خفيفاً على الصورتين . وقد بقيت لمسة من اللون الأحمر على شفتى إستر . تجاوز حدودهما ، وصفرة لون ثوبها انتشرت بحيث برزت فى جسارة من جو الصورتين العام : أما خضرة الأشجار ، التى لم تزل براقة فى صباغ الحرير والصوف فى الأجزاء السفلى من الصورتين ، وإن كانت قد نصلت فى الجزء الأعلى ، فكانت تفصل من فوق الجذوع الداكنة الأغصان العليا المصفرة ، التى انعكست عليها أشعة شمس غير منظورة ..

هذه الأشياء جميعاً ، وما هو أكثر منها ، هى النفائس التى جاءت إلى الكنيسة من شخصيات كانت فى حسبانى أسطورية (مثل الصليب الذهبى التى يقال إن الذى صاغه هو القديس إلوا Eloi ، وقد أهداه

للكنيسة داجوبير Dagobert ، وقبر أبناء لويس الجرمانى المبنى بالرخام السماقى والنحاس المطعم بالمينا اللازوردية) ومن أجله كنت أمضى قدماً إلى داخل الكنيسة ونحن فى طريقنا إلى كراسينا وكأنى أدخل وادياً يسكنه الجن ، حيث يرى المرء بكل الدهشة فوق صخرة شجرة ومستنقعاً ، فتكون عنده علامات على مرور خارق للطبيعة لأناس صغار: هذا كله جعل من الكنيسة بالنسبة لى شيئاً شديد الاختلاف عن سائر البلدة ، جعلها بناء يشغل أربعة أبعاد من الفراغ — والبعد الرابع هنا اسمه الزمن — مخر عباب القرون بذلك الصحن القديم ، فهو لا يحتل حيزاً من الثرى فحسب ، بل كل حقبة متعاقبة خرج منها هذا البناء منتصراً ، مخفياً الهمجية الرثة للقرن الحادى عشر بين جدرانه السميكة ، التى لا يمكن أن ترى من خلالها الأقواس الثقيلة ، بمربعات حجارتها المنحوتة ، إلا حيث توجد قرب المدخل فجوة عميقة استحدثت فى الجدار لإقامة سلم البرج ، بل وهناك أيضاً أخفيت الهمجية وسترت بقناع لطيف من الأقواس القوطية التى أحدقت بالفتحة ، كأنها صف من الأخوات الكبيرات الناضجات وقفن صفاً منتظماً كى يوارين عن أنظار الغرباء أخاً صغيراً زرى الملبس والمسلك . وقد ارتفع فوق الميدان برج أشرف من عليائه يوماً على القديس لويس ، وكأنه لم يزل يراه ، ويمتد سردابه فى ظلمات ليل ميروفنجى ، كأنه جناح خفاش ضخم من الصخر : وفى هذا السرداب كان تيودور أو أخته يقودنا ونحن نتحسس الطريق بأطراف

أصابعنا تحت العقد الظليل ، وفى يد الدليل شمعة ليرينا قبر ابنة سيجبر Sigebert الصغيرة ، وفيه ثقب عميق كأنه مكان حفرية ، قيل لنا إنه « موضع حفرته بمصباح من الكرستال فى الليلة التى قتلت فيها الأميرة الفرنكية ، وتركت فيه برضاها السلاسل الذهبية التى كان المصباح معلقاً بها حيث يقوم الآن نتوء الكنيسة البارز ، من غير أن ينكسر القنديل أو ينطفئ نوره ، ودفنت نفسها فى الصخر الذى شقت فيه طريقها بلطف » :

وماذا عن نتوء كنيسة كمبراى ؟ ماذا أقول عنه ؟ إنه خال من الجمال الفنى ، بل ومن الروح الدينى . وبما أن عبور الشارع الذى يطل عليه على مستوى منخفض عنه ، لذا كان جداره الكبير ناتئاً إلى أعلى ، وصخوره خالية من أى إشارات كنسية ، والنوافذ مرتفعة ارتفاعاً شاهقاً والمنظر العام أشبه بمنظر جدار سجن أكثر مما يشبه جدار كنيسة . ومن المؤكد أننى فى السنوات التالية عندما تسنى لى أن أتذكر كل النتوءات الكنسية البديعة التى رأيتها ، إلا أنه لا يخطر ببالى قط أن أقارن بأى واحد منها نتوء كنيسة كمبراى . وقد حدث ذات يوم وأنا أستدير من شارع صغير فى بلدة ريفية صغيرة أننى وجدت نفسى بإزاء ثلاثة دروب ضيقة متشعبة ، وفى مواجهة نقطة التقائها جدار قديم رث نال منه البلى وخارق للعادة فى ارتفاعه ، وقد ثقبته نوافذ فوق مستوى الرأس بكثير ، ويشبه تماماً نتوء كمبراى . وعندئذ لم أقل لنفسى كما كنت خليقاً أن أقول وأنا فى شارتر Chartres

أو ريمس Rheims ما أقوى هذا التعبير الدينى فى هذا البناء ، بل هتفت بوحى من غريزتى :

— الكنيســة !

الكنيسة ! صديق عزيز مألوف ! يحف بها من جانبيها فى شارع سان إيلير الذى يفضى إليه بابها الشمالى جاران هما بيت مدام لوازو Loiseau وصيدلية المسيو رابان Ropin ، التى تلاصق جدارنها بغير فاصل ، فهى إذن أشبه بمواطنة بسيطة فى كمبراى كان من الممكن أن يكون لها رقمها فى الشارع لو كانت فى شوارع كمبراى أرقام ، وعند بابها يخال المرء ساعى البريد خليقاً أن يتوقف فى دوراته الصباحية قبل أن يمضى إلى بيت مدام لوازو ، وبعد ترك صيدلية المسيو رابان ، ومع هذا كان هناك فاصل مميز بين الكنيسة وبين كل ما فى كمبراى عدا الكنيسة ، وهو فاصل لم أستطع أن أمحوه من ذهنى : وعبثاً تزين مدام لوازو نوافذها بأصص أزهار ونباتات تتدلى أغصانها الطويلة إلى أسفل طيلة الوقت وفى كل اتجاه ، وليس لأزهارها عندما تنمو وتتفتح شغل إلا بأن تتكئ بوجناتها القرمزية الغضة على واجهة الكنيسة الداكنة : ولكن هذا لم يكسب تلك النباتات فى نظرى شيئاً من القدسية . فإن لم تتمكن عينى من تبين ثغرات بين الأزهار ترى منها الجدار الداكن ، كان ذهنى يحتفظ للجدار بانطباع الفجوة أو الهوة :

ومن مسافة طويلة كان المرء يستطيع أن يميز برج الكنيسة المطل

على سان إيلير وهو منطبع على أفق لم تظهر فيه كمبراى بعد ، ومع هذا كان أبى يراه ونحن قادمون بالقطار من باريس فى وقت الفصح وهو يبرز فى كل ثنية من السماء تباعاً ، وساعته الحديدية الصغيرة تدق فى كل اتجاه ، فيقول :

— هيا أعدوا حاجياتكم ولملموها : ها نحن وصلنا !

وفى مسيرة من أطول المسيرات التى مشيناها من كمبراى كانت هناك بقعة برز فيها الطريق الضيق فجأة فوق سهل مترام ، تغلق أفقه غابة متناثرة الأجمات ، ارتفعت فوقها قامة برج سان إيلير المدببة ، ولكنها كانت نحيلة ووردية فكأنما البرج مرتسم على وجه السماء بظفر إصبع رسام يريد أن يضيف إلى المنظر الطبيعى البديع قطعة صافية من الفن ، هى هذه الإشارة الوحيدة إلى الوجود البشرى . وعندما يقترب المرء منه ، ويكتشف بقايا البرج المربع ، الذى كاد يتحول إلى أطلال ، ولم يزل قائماً بجوار هذا البرج الرهيف من غير أن ينافسه فى الارتفاع ، يدهش المرء بادئ ذى بدء بلون حجارته المحمر القاتم : وما أخلق المرء إذا رآه فى صباح يوم من أيام الخريف يكسوه الضباب ، قائماً فوق سحابة الكروم البنفسجية ، أن يقول إنه طلل أرجوانى ، يكاد يضارع لون كرمة برية .

وكثيراً — عندما نكون فى الميدان — فى طريق عودتنا إلى البيت تستوقفنى جدتى لأنظر إليه : ومن نوافذ البرج ، التى نسقت فوق بعضها البعض أزواجاً ، فى تناسب طريف بين مسافاتها ، أشبه



برز فيها الطريق الضيق فجأة فوق سهل مترام ، تغلق أفقه غابة متناثرة الأجمات ، ارتفعت فوقها قامة برج سان إيلير المدببة . .

بالتناسق الذى تدين له الوجوه البشرية بجمالها وجلالها ، تنطلق أسراب من غربان الزيتون تظل برهة تحوم ، كأنما الأحجار العتيقة التى أباحت لها هذه الألاعيب وكأنها لا تراها صارت فجأة غير مأهولة وضاقت بها فطردتها من رحابها . ولكنها بعد أن تنعم بهواء المساء المخملى البنفسجى تهدأ فجأة وتعود ليستوعبها البرج ، فلم يعد ميتاً بل مأهولا مأنوساً ، ويجثم غراب منها هنا أو هناك (لا يبدو عليها أنها تتحرك ، ولكنها تلتقط حشرة عابرة) فوق أطراف شرفاته الصغيرة ، مثلما تجثم النوارس ، فى جمود فوق قمة موجة . ومن غير أن تعرف السبب كانت تجد جدتى فى برج سان إيلير ذلك الخلو من السوقية والادعاء الزائف والخساسة ، فتحبه كما تحب الطبيعة عندما لا تشذ بها يد الإنسان — مثلما يصنع بستانى عمتى الكبرى — وكما تحب أعمال العباقرة .

وما من شك أن كل جانب يراه المرء من الكنيسة كان يميز المجموع كله من أى بناء آخر ، بشعور عام يشع منها ويهيمن عليها ، ولكنها كانت تبدو واعية بوجودها وقيمتها فى قيام هذا البرج ، الذى كانت تؤكد به فرديتها ووجودها المسئول : فالبرج كان هو الذى يتكلم باسم الكنيسة . وأعتقد أيضاً أن جدتى كانت تجد — على نحو غامض — فى منارة كنيسة كمبراى هذه ماكانت تغليه أكثر من كل شىء فى العالم ، ألا وهو السيا الطبيعية ، سيا الامتياز والتميز : وكانت وهى الجاهلة بالعمارة تقول :

— اضحك منى يا عزيزى إن شئت ، هذه المنارة ليس جمالها تقليدياً ، ولكن فى محياها القديم اللطيف شيئاً يلذ لى : ولو استطاعت أن تعزف البيانو ، إخالها خليقة أن تعزف عزفاً رائعاً !

وعندما كانت تنظر إلى منحدراتها التى تتقارب كلما ارتفعت إلى أعلى ، كأنها يدان متشابكتان للصلاة ، تستغرق فى ذلك الارتفاع الشاخص كأن عينيها تطفران فى مراقيه ، وشفتاها تتقوسان فى الوقت نفسه فى ابتسامة ودود للصخور القديمة البالية التى تضيئها الشمس الآن عند أعاليها فحسب ، فى تلك المواضع التى ما إن تدخل فى نطاق ضوء شمس الغروب حتى ترق وترهف ، حتى لكأنها زادت ارتفاعاً ، وصارت بعيدة المنال ، كما يرتفع صوت المغنى الفذ ويتجاوز طبقات العزف ...

وكانت منارة سان إيلير هى التى تشكل وتتوج كل عمل فى البلدة ، وكل ساعة من ساعات النهار ، وكل وجهة نظر فيها ، ولم يكن فى وسعى أن أميز من نافذة حجرة نومى أكثر من قاعدتها ، التى كانت قد كسيت بألواح جديدة ، ولكنى كنت عندما أرى هذه الألواح فى ضوء صباح الصيف الحار وهى تتوهج كشمس سوداء ، كنت أقول لنفسى :

— يا إله السموات ! الساعة التاسعة ! يجب أن أتهيأ فوراً للذهاب إلى القداس إن أردت أن يتسع الوقت كى أدخل إلى عمتى ليونى وأقبلها أولا .

وكنت عندئذ أعرف تماماً لون ضوء الشمس فى الميدان ، وأشعر بالحرارة والتراب فى السوق ، وبالظل وراء المصاريع فى المتجر الذى قد تدخله ماما فى طريقها إلى القداس ، لكى تشترى منديلا أو شيئاً من هذا القبيل ، ويتركها التاجر تنظر وتنتقى ما تريد مما عنده ، وينحنى لها انحناءة كبيرة إلى خاصرته ، ويدخل إلى مؤخرة متجره ليرتدى سترة الأحد ويغسل يديه — كعادته كل بضع دقائق ، وحتى فى أشد المناسبات حزناً يفرك إحدى يديه بالأخرى بحركة تدل على الدهاء والنجاح فى الصفقات :

وكذلك عندما نمر — بعد القداس — لنقول لتيودور أن يحضر رغيفاً أكبر من المعتاد، لأن أبناء عمنا قد انتهزوا فرصة صفاء الجو لكى يحضروا من تيبرزى Thiberzy لتناول الغداء معنا ، كنا نجد المنارة فى مواجهتنا ، التى كانت تحت وطأ الشمس تسخن وتسمر كأنها رغيف أكبر من « الخبز المقدس » . عليه قشور رقيقة وقطرات لزجة من ضوء الشمس ، وقد سمقت قمتها المدببة فى السماء الزرقاء . وفى المساء عندما أعود من نزهتى على القدمين وأفكر فى اقتراب اللحظة التى لابد أن أقول فيها لأمى طاب مساؤك ولا أعود أراها ، كنت أشعر أن المنارة — على عكس هذه الصرامة — بالغة الحنان قرب نهاية النهار ، حتى أننى كنت أتخيل أنها وسادة بنية من المخمل ممدودة نحو السماء الشاحبة التى انقادت لضغطها ، بينما صيحات العصافير والطيور التى تحوم وتدور ذاهبة جائية حولها تزيد صمتها

عمقاً ، وتزيد قمتها المدببة طولا ، وتمدها بقوة تتجاوز قدرة الألفاظ على التعبير :

وحتى عندما تكون لدينا مهام فى أماكن وراء الكنيسة ، بحيث لا نستطيع أن نراها ، فإن منظرها يرتسم فى مخيلتنا استناداً إلى منظر المنارة التى تبدو هنا أو هناك أينما كنا من بين البيوت ، ولعلها كانت أشد تأثيراً على هذه الصورة بدون الكنيسة نفسها ، وهناك على الحقيقة أجزاء أخرى من المبانى ترى على أحسن وجه بهذه الطريقة . وأستطيع أن أستعيد بذهنى صوراً صغيرة منقوشة لبيوت كثيرة تعلوها منارات شاهقة فى ضروب أخرى من الفن غير التى تمثلها شوارع كمبراى المقبضة . ولن أنسى فى بلدة نورمندية غير بعيدة من بلبيك Balbec بيتين فاتنين من أبنية القرن الثامن عشر ، عزيزين على وجليلين لأسباب كثيرة ، من بينها أن المرء عندما يتطلع إليهما من حديقة جميلة لها مساطب منحدرة إلى النهر ، يرى منارة كنيسة (والكنيسة نفسها محجوبة بالبيوت) تشق أعناق السماء بحيث تتوج واجهتى البيتين وتتمهما ، ولكن بمادة مختلفة جداً ، وثمينة ، وردية اللون مصقولة ، بحيث يتجلى للناظر أنها ليست جزءاً منهما ، فكأنهما حصاتان صغيرتان متجاورتان وبينهما محارة مدببة القمع وردية اللون غسلتها مياه البحر : بل وفى باريس ، وفى حى من أقبح أحياء البلدة أعرف نافذة يستطيع المرء أن يطل منها عبر صف وصفين وثلاثة صفوف من السقوف ، فى شارع تلو الشارع ، ومن ورائها جرس

بنفسجي أحياناً يضرب للحمرة وأحياناً أخرى يعلوه سواد ، وما هو فى الحقيقة إلا قبة سانت أوغسطين St. Augustin التى كأنها تنقل إلى باريس مشهداً من مشاهد روما ، ولكن هذه المشاهد كلها صور منقوشة ومنقولة ، فليست تثير فى النفس الإحساس بالمعايشة الحية التى تستثيرها فى نفسى ذكرى هذه المناظر الحية من منارة كمبراى وأنا أراها من الشوارع التى خلف الكنيسة .

وسواء رآها المرء فى الخامسة مساء عنـــد ذهابه ليسأل عن الخطابات فى مكتب البريد ، على مسافة خطوات إلى اليسار ، وهى مرتفعة ارتفاعاً فجائياً بقمتها المتفردة فوق حافات البيوت العليا ، أو عندما يمضى المرء ليسأل عن أخبار مدام سازيرا ، تتعقب العين الخط الذى تهبط إليه المنارة فيما وراء المنحدر الذى يجاوزها ، وعندئذ يدرك المرء أن هذا المنحدر فى المنعطف الثانى بعد المنارة : وإذا ما ذهب المرء إلى مسافة أبعد حتى المحطة ، عندئذ يراها رؤية جانبية منحرفة ، فى وضع جديد كان مجهولا . أو عندما يراها من ضفاف نهر الفيفون Vivonne ، فإذا بنتوئها قد تضخم وتجلى للعين ، كأنه يريد أن يطفر إلى أعلى ، بنفس الجهد الذى تبذله المنارة للزج بقمتها المدببة فى قلب السماء : وفى جميع الأحوال على المرء أن يعود دائماً إلى المنارة ، فهى التى تهيمن دائماً على كل ما عداها ، وكأنها تلخص البيوت من تحتها ، لتنتصب أمامى كأنها أصبع الله الذى قد يكون جسده متوارياً أسفلها ، بين أجساد البشر من غير أن يختشى

اختلاط الأمر على بحيث أخلط بينه وبينهم . ولذا أجدنى حتى الآن ، فى بلدة كبيرة بالبروفنس ، أو فى حى من أحياء باريس التى لا أعرفها جيداً ، عندما أستوضح الطريق من أحد السابلة ، ويرينى عن بعد ، كعلامة أهتدى بها ، برج مستشفى أو منارة دير ترتفع فوق مبناه الكهنوتى عند زاوية الشارع الذى يجب أن أسير فيه ، فإن عقلى على الفور يستحضر تشابهاً بينه وبين ذلك الهيكل العزيز الغائب عنى . وإذا ما استدار من أرشدنى ليتأكد من أنى سلكت الطريق الصحيح لرآنى – لدهشته – نسيت مقصدى ووقفت جامداً فى مكانى أمام تلك المنارة ، ساعات متتالية ، بلا حراك ، أحاول أن أتذكر ، وأنا أشعر فى أعماق نفسى بشريحة من الأرض انتشلت من مياه « ليت » Lethe وهى تجف ببطء إلى أن تنهض البيوت فوقها ثانية ، وعندئذ أتحرك صوب مقصدى ، وأنعطف ... ولكن مقصدى ليس هناك ، بل فى قلبى ...

* * *

وفى طريقنا إلى البيت من القداس كنا كثيراً ما نلتقى بالمسيو لجراندان Legrandin ، الذى تستبقيه واجباته المهنية كمهندس فى باريس ، فلا يستطيع (اللهم إلا فى مواسم العطلات) أن يزور بيته فى كمبراى إلا فى الفترة ما بين مساء السبت وصباح الاثنين ، وهو واحد من تلك الفئة من الناس الذى اكتسبوا – فضلا عن كيانهم العلمى الذى ربما أثبتوا فيه نجاحاً باهراً – ثقافة مختلفة من

حيث النوع : ثقافة أدبية أو فنية ، لا يستخدمونها فى مجالات مهنتهم التخصصية ، ولكن محادثاتهم تستفيد منها كثيراً : فهو أديب أكثر من كثير من رجال الأدب (ولم نكن ندرك فى ذلك الوقت أن للمسيو لجراندان سمعة بارزة ككاتب ، ولذا دهشنا كثيراً عندما علمنا أن مؤلفاً موسيقياً معروفاً لحن طائفة من أشعاره) وله موهبة فى الرسم تفوق كثيرين من الرسامين ، ويؤمنون أن الحياة التى يحيونها ليست هى التى أهلتهم لها الطبيعة ، ولذا يولون أعمالهم المهنية العادية عدم مبالاة غريبة ، وأحياناً ينكبون عليها فى مقت ومرارة . وهو طويل القامة ذو قد معتدل ، ووجه يدل على الإمعان فى التفكير ، وله شارب متهدل أشقر ، وفى عينيه الزرقاوين نظرة يقظة ، مع ميل مبالغ فيه للتهذيب والمجاملة : وهو محدث لم نستمع إلى مثيل له : وله اعتبار كبير لدى أسرتى التى لم تكف قط عن الاستشهاد بأقواله على أنها نموذج لحسن الذوق الذى يزيد السيد المهذب الذى ينظر إلى الحياة أرق نظرة وأشدها نبلا . ولم تجد جدتى فيه عيباً سوى أنه يحسن الكلام أكثر مما ينبغى ، حتى لكأنه كتاب يتلى ، فهو لا يستخدم لغة طبيعية مثل أربطة عنقه من طراز لافاليير Lavallière التى تبدو غير محكمة العقد ، وتعيب عليه كذلك ستراته التى تشبه سترات طلبة المدارس ، وأدهشها منه أيضاً هجومه الحاد الذى كان يشنه دائماً على الطبقة الأرستقراطية ، وعلى الحياة الراقية المترفة والحذلقة . ويقول :

— لا مراء أن هذه الخطايا هى التى كان يفكر فيها بولس الرسول عندما تحدث عن الخطيئة التى لا مغفرة لها !

وكانت جدتى قليلة الإحساس بالطموح الدنيوى ، ولذا لم تكن تفهمه جيداً ، وترى من غير المجدى الانهيال عليه بكل هذه الإدانة ؛ ثم إنها تجد مما ينافى الذوق الرفيع أن مسيو لجراندان — الذى كانت أخته متزوجة من سيد ريفى فى جنوب نرمنديا قرب بلبيك — يهاجم بكل هذه الحدة طبقة النبلاء ، ويذهب فى هذا إلى حد لوم الثورة على أنها لم تعدمهم جميعاً بالمقصلة !

ويقول المسيو لجراندان وهو مقبل نحونا :

— مصادفة سعيدة هذا اللقاء أيها الأصدقاء ! أنتم سعداء الحظ بقضاء وقت طويل هنا ، فلا بد لى أن أعود غداً إلى باريس ، لأنكمش فى مثواى هناك :

ثم يستطرد بابتسامته الخاصة الساخرة فى لطف وغموض :

— أعترف أن لدى هناك كل ما لا ضرورة له فى الدنيا ؛ والشىء الوحيد الذى ينقصنى هو الشىء الضرورى حقاً ، وهو رقعة فسيحة من السماء مثل هذه .

ويلتفت نحوى قائلا :

— حاول دائماً أن تحتفظ فوق رأسك برقعة من السماء ياصغيرى ؛ ففى بدنك نفس من نوع نادر ::: فيك طبيعة الفنان ، فلا تدعها تهلك جوعاً لافتقارها إلى ما تحتاج إليه.

وعندما نعود إلى البيت ترسل عمتى لتسألنا هل وصلت مدام جوبيل متأخرة فعلا عن القداس ، ولكن أحداً منا لا يسعه أن يجيبها ، بل نزيد قلقها بأن نخبرها أن رساماً كان يمارس عمله فى الكنيسة لينقل النافذة التى بها « جلبير الشرير » Gilbert le mauvais : وعلى الفور ترسل فرنسواز إلى دكان البقال ، إلا أنها تعود صفر اليدين ، لأن تيودور ليس هناك ، فهو مزدوج المهنة ، فله عمل فى الكنيسة لا يدع له فراغاً كثيراً كمساعد للبقال . وهذا الوضع يهيئ له صلات واسعة بكل قطاعات المجتمع ، ومعرفة موسوعية بشئون الجميع وأحوالهم .

وتتنهد عمتى وتقول :

— آه ! أتمنى لو كان الوقت حان لحضور « إيلالى » Eulalie ، فهى حقاً الشخص الوحيد الذى يمكن أن يخبرنى .

وإيلالى هذه عانس صماء عرجاء جمة النشاط ، تقاعدت بعد وفاة مدام دى لابرتونيرى Mme de la Bretonnerie التى كانت تعمل فى خدمتها منذ طفولتها ، وبعد ذلك سكنت حجرة بجوار الكنيسة ، تبرز منها بلا انقطاع ، إما لحضور قداس ، أو لتصلى وحدها ، أو لتساعد تيودور فى خدمة الكنيسة . أما بقية وقتها فكانت تقضيه فى زيارة المرضى أمثال عمتى ليونى ، وتحكى لها كل شىء حدث فى القداس أو صلاة المساء (العشية) . ولم تكن تأنف من إضافة شىء من النقود إلى إيرادها الصغير الذى خصصته لها أسرة

مخدوميها السابقين ، بأن تذهب من حين لآخر للعناية بملابس الخورى ، أو غيره من رجال الكهنوت فى كمبراى : وكانت تلبس عباءة من قماش أسود وقلنسوة صغيرة بيضاء فتبدو فيها كما لو كانت منخرطة فى سلك دينى ، وقد أصابها مرض جلدى ، لذا تجد دائماً جزءاً من خدها وأنفها المعقوف لامعين بمرهم أحمر اللون . وكانت زياراتها هى التسلية الوحيدة فى حياة عمتى ليونى ، التى لم تعد ترى الآن أحداً آخر ، اللهم إلا القس (الخورى) المبجل . فقد شطبت عمتى تدريجاً أسماء كل الزوار الآخرين من قائمتها ، لأنهم جميعاً كانوا يرتكبون عين الخطأ القاتل فى نظرها ، وهو التردى فى إحدى الفئتين اللتين تمقتهما من فئات الناس أشد المقت : وإحدى هاتين الفئتين ، وهى شر الاثنتين ، وقد بدأت بالتخلص منها ، هى فئة من نصحوها ألا تسرف فى الاهتمام بصحتها ، وبشروها (ولو بالصمت السلبى أو الابتسام المتشكك) بالنظرية الهدامة التى تنادى بأن السير الجاد فى الشمس وشريحة « بفتيك » حمراء أجدى عليها (وهى التى تجثم جرعتان من مياه فيشى على معدتها ١٤ ساعة !) من كل زجاجات الدواء التى بجوارها ، وأجدى عليها من ملازمة الفراش : والفئة الأخرى مكونة من أناس يبدو عليهم أنها أشد مرضاً مما تعتقد هى شخصياً ، أو أنها مريضة فعلا بالخطورة التى تتحدث هى عنها : ولذا لم يكن أحد ممن تسمح له بالصعود إلى حجرتها بعد تردد طويل ، وبعد إلحاح شديد من جانب فرنسواز ، ويبدو منه أنه غير جدير

بما حازه من شرف ، بأن يقول على استحياء :

— ألا تظنين أنك لو خرجت قليلا فى الأيام البديعة الجو :

أو من يقولون عندما تقول هى :

— أنا فى حالة سيئة ، سيئة للغاية ، أقترب من نهايتى أيها الأصدقاء الأعزاء :

فيقولون مثلا :

— آه ! نعم ! :: ولكن أظنك ستعيشين فترة أخرى !

فكلا الفئتين يوصد فى وجوههم بابها إلى الأبد ، وإذا استطابت فرنسواز أن ترى نظرة الذعر على وجه عمتى كلما رأت من فراشها أحد هؤلاء الناس فى شارع الروح القدس ، وقد بدا عليهم أنهم قادمون إليها : أو إذا سمعت جرس بابها يرن ، تضحك من قلبها ، كأنها رأت ألعوبة مضحكة ، وهى ترى حيل عمتى (التى لا تخيب أبداً) لإبعادهم عن بابها ، وترى علائم الخيبة على سحنهم وهم يردون على أعقابهم من غير أن يروها : وتشعر بالإعجاب بسيدتها التى تشعر أنها أذكى من سائر الناس ما دامت قد احتالت حتى لا تراهم : وقصارى القول أن عمتى كانت تشترط فى نفس الوقت أن من يأتى لزيارتها ينبغى أن يوافق على أسلوب حياتها ، ويتعاطف مع آلامها ، ويؤكد لها الشفاء التام قريباً :

وكانت إيلالى ممتازة فى هذا كله ، فقد تقول لها عمتى عشرين مرة فى الدقيقة :

— لقد حانت النهاية أخيراً يا إيلالى !

وعشرين مرة تجيبها إيلالى قائلة :

— بما أننى أعرف مرضك كما تعرفينه يا مدام أوكتاف ، فأنا متأكدة أنك ستعيشين حتى المائة ، كما قالت لى ذلك مدام سازيران Mme. Saverin بالأمس فقط :

فقد كان من أثبت معتقدات إيلالى وأرسخها ، ولا تجدى التصويبات المتلاحقة فى محوها ، أن اسم مدام سازيرا هو فى الحقيقة مدام سازيران ! . :

فتجيبها عمتى :

— أنا لا أسأل الله أن أعيش حتى المائة :

ذلك أنها تفضل ألا تعين مدة محددة لعدد أيام حياتها !

ولما كانت إيلالى تعرف أكثر مما تعرف سواها كيف تسلى عمتى من غير أن تتعبها ، لذا كانت زياراتها — التى تحضر فيها كل يوم أحد ما لم يعقها عن هذا شىء غير متوقع — مصدر سرور لعمتى تظل تتوقعه لعدة أيام ، وتشعر بشهية قوية لسماع حديثها ، ولكن هذه الشهية تنقلب فوراً إلى عذاب أشبه بعذاب الجوع الذى طال عليه عبثاً انتظار ما يشبعه ، وذلك إن تأخرت إيلالى دقيقة واحدة عن موعدها ؛ لأن انتظارها المتلمظ لهذا الحديث الشهى ينقلب إلى سياط عذاب ، ولا تكف عمتى عن النظر إلى الساعة : وهى تتثاءب ، وتشكو من كل أعراض علتها على التوالى . ورنة إيلالى لجرس الباب

الأمامى فى نهاية النهار ــ وقد كفت عن توقع قدومها ــ من الممكن أن تورثها المرض ، لأن عمتى طيلة يوم الأحد لا تفكير لها إلا فى هذه الزيارة ، وما إن نفرغ من غدائنا حتى ينفد صبر فرنسواز وتتعجل مغادرتنا حجرة المائدة كى يتسنى لها أن تصعد إلى فوق لتشغل وقت عمتى . ولكن فى الغالب منذ اليوم الذى يستقر فيه الجو البديع نهائياً فى كمبراى ، يطول مكثنا على المائدة ، وتتجاوب أصداء الدقات الاثنتى عشرة من برج سان إيلير ، وعلى المائدة « الخبز المقدس » الذى جاء أيضاً بعد الكنيسة بالطريق المعهود ، ونحن مازلنا جالسين أمام صحافنا التى زينت برسوم ألف ليلة وليلة ، وقد أثقلنا حر النهار ، وأثقلنا بالأكثر ما تناولناه من طعام : فإلى جانب طبق البيض والكستليتة ، والبطاطس ، والمأكولات المحفوظة ، وهى الألوان المعتادة التى لم تعد فرنسواز تعلن عنها لنا ، كانت تقدم لنا يوم الأحد ثمرات الحقول والبساتين من فاكهة الموسم وما تصادفه فى الأسواق ، أو يجود به الجيران ، وقد أعملت فيه عبقريتها ؛ بحيث كانت قائمة طعامنا يوم الأحد تضاهى الصور المحفورة على مداخل كاتدرائيات القرن الثالث عشر ، التى تحكى مسار الفصول وأحداث الحياة البشرية . فقد يكون اللون مرة سمكاً مفرطحاً ضمنت لها بائعة السمك أنه طازج ، ومرة أخرى ديكاً رومياً ، لأنها رأت هذه التحفة الجميلة فى سوق « روسانفيل لى بان » ، أو خرشوفاً بالنخاع ، لأنها لم تصنعه بهذه الطريقة من قبل ، أو فخذ خروف مشوياً ، لأن

الهواء طلق وخليق أن يشعر المرء بالجوع ، وهناك وقت كاف للهضم فى الساعات السبع التى ستمضى قبل العشاء ، أو إسفاناخاً على سبيل التغيير ، ومشمشاً لأنه من بشائر الموسم التى يصعب الحصول عليها ، أو شليكا (فراولة) جاء بها المسيو سوان خصيصاً ، أو كرزاً هو أول قطاف شجرته هذا الموسم بعد أن توقفت عن الإثمار سنتين ، أو جبناً بالقشدة كنت فى تلك الأيام مفتوناً به ، وكعكة باللوز لأنها كانت قد أوصت عليها فى الليلة السابقة ، أو رغيفاً مسكراً .

وبعد أن نتناول كل هذه الألوان تقدم إلينا طبقاً أعد خصيصاً على ذوق أبى من القشدة بالشكلاتة ، فى غاية الخفة كأنها معزوفة موسيقية ، سكبت فيها فرنسواز كل مواهبها . وكل من يرفض تناول شىء منها قائلا :

ــ لا وشكراً لك . لقد امتلأت . ولم أعد أشعر بالجوع .

يتعرض للهبوط فى نظرها إلى مرتبة الأجلاف الذين إذا قدم للواحد منهم فنان هدية من ريشته ، راح يفحص مادتها ويقدر وزنها ، مع أن قيمتها كلها فى نية صانعها وتوقيعه عليها . وترك أصغر قطعة منها فى الطبق معناه توجيه إساءة تضارع النهوض ومغادرة حفلة موسيقية تحت أنظار المؤلف ، بينما القطعة الموسيقية لم تزل تعزف !

وأخيراً تقول لى أمى :

ــ لا تمكث هنا طول النهار ، اصعد إلى حجرتك إن كان الحر

شديداً فى الخارج ، ولكن استنشق شيئاً من الهواء الطلق أولا ، ولا تشرع فى القراءة بعد الأكل مباشرة :

فاذهب واجلس بجوار المضخة والحوض الذى تحتها ، وهى مزخرفة هنا وهناك كواجهة قوطية بحيوان السلمندر ، حيث يوجد مقعد طويل بغير ظهر فى ذلك الركن الصغير من الحديقة الذى يتصل عن طريق باب صغير للخدمة بشارع الروح القدس ، ومن تراه المهمل يعلو بناء المطبخ الخلفى على هيئة مبنى منفصل : وتبدو أرضه المبلطة بالآجر الأحمر كأنها مرصوفة بالحجر السماقى ، وكان هذا المبنى أشبه بمعبد لفينوس منه بمغارة لفرنسواز . ويفيض هذا المعبد بقرابين شتى يأتى بها اللبان ، والفاكهى ، وبائع الخضراوات ، الذين يأتون أحياناً من قرى بعيدة ليقدموا بواكير حقولهم . أما سقف هذا المعبد فكان يتصاعد منه دائماً هديل الحمام .

وكنت فى الأيام الأولى ربما جلست فى الأيكة الصغيرة التى تحيط بهذا المعبد ، لأننى — قبل أن أصعد لأقرأ — كنت أتسلل إلى حجرة الجلوس الصغيرة التى كان يشغلها عمى أدولف Adolphe — وهو شقيق جدى وجندى قديم تقاعد من الخدمة برتبة الرائد — فى الطابق الأرضى ، فكنت إذا فتحتها — حتى ولو دخلت الحرارة من نوافذها — تشم فيها عبيراً غامضاً هو مزيج من الهواء الطلق والحياة على الطراز القديم التى تملأ الخياشيم عندما يدخل المرء حجرة للبنادق غير المستعملة ، ولكنى منذ سنوات لم أدخل حجرة عمى أدولف ،

لأنه لم يعد يأتى إلى كمبراى ، بسبب نزاع نشب بينه وبين أسرتى ، وكان هذا بسبب خطأ من جانبى ، وإليك ظروفه :

كنت مرة أو مرتين فى كل شهر معتاداً وأنا فى باريس أن أذهب لزيارة عمى ، وهو على أهبة الانتهاء من غدائه ، وقد ارتدى سترة عادية من الألباكا ويقوم على خدمته خادمة فى سترة العمل من الكتان المخطط باللونين القرمزى والأبيض . ويشكو من أننى لم أذهب لزيارته منذ وقت طويل ، وأنه موضع إهمال : ويقدم لى تمرة يوسفى ، ويعبر حجرة لم يكن أحد قط يجلس فيها ، ولا توقد نارها أبداً ، وجدرانها مزخرفة بنقوش مذهبة ، وسقفها مطلى باللون الأزرق ليحاكى السماء ، وأثاثها منجد بالساتان كأثاث بيت جدى ، إلا أنه أصفر اللون : ثم ندخل ما كان يسميه « مكتبه » ، وهو حجرة مزينة جدرانها بالصور المطبوعة التى تمثل — فوق خلفية داكنة — ربة مليئة الجسم وردية اللون تقود عربة ، أو واقفة فوق الكرة الأرضية ، أو على جبينها نجم : وهى صور كانت شائعة فى عهد الإمبراطورية الثانية ، لأن المفروض أن بها ما يذكر الناظر ببومبى Pompeii ولكنها صارت الآن ممقوتة بوجه عام، إلا أن الناس شرعوا يجمعونها من جديد لسبب واحد (بصرف النظر عن أى سبب آخر يمكن أن يزعموه) وهو أنها تذكر الناس بالإمبراطورية الثانية:: وهناك كنت أبقى مع عمى إلى أن يأتى خادمه برسالة من الحوذى ، ليسأله فى أى وقت يريد العربة : وعندئذ يستغرق عمى فى التفكير : بينما

خادمه المندهش يقف غير مجترئ أن يقاطعه بأى حركة ، فى انتظار إجابته التى لم تكن تتغير أبداً ، لأنه فى النهاية بعد أزمة تردد كبرى ، يقول هذه الكلمات :

— فى الثانية والربع .

ويردد الخادم هذه العبارة باستغراب ، ومن غير أن يناقشه يقول :

— فى الثانية والربع ! .. عظيم جداً يا سيدى ... سأذهب وأخبره .

وكنت فى تلك الفترة عاشقاً للمسرح ، عشقاً أفلاطونياً بالضرورة ، لأن والدى لم يسمحا لى بعد بدخول مسرح ، وكانت تصوراتى مباينة للواقع للمتعة التى يصيبها المرء هناك ، حتى أننى كدت أصدق أن كل مشاهد ينظر من خلال ستريوسكوب إلى خشبة المسرح والمشاهد التى لا يمكن أن يراها أحد سواه ، وإن كانت مماثلة للمشاهد التى تتاح لكل مشاهد على حدة .

وفى كل صباح كنت أسرع إلى عمود موريس Morios لأرى أى المسرحيات الجديدة يعلن عنها ، فلا شىء يمكن أن يكون أنزه أو أسعد من الأحلام التى كانت هذه الإعلانات تملأ بها عقلى ، وهى أحلام تستمد أشكالها من اقتران الكلمات التى يتكون منها العنوان ، ومن لون النشرات التى لم تزل رطبة من الطلاء الذى تعلوه تلك الكلمات . وما من شىء — ما لم يكن عنواناً غريباً مثل « وصية

سيزار جيرودو » ، أو « أوديب ملكاً » المكتوب فوق نشرات خضراء ليست مما تستخدمه الأوبرا كوميك ، بل فوق نشرات بلون النبيذ مما تستخدمها الكوميدى فرانسيز — يمكن أن يبدو لى أشد اختلافاً من الريشة المتألقة البيضاء ، التى تميز «القناع الأسود» . وبما أن والدى كانا قد قالا لى إننى كى أقوم بالزيارة الأولى للمسرح ينبغى أن أختار بين إحدى هاتين المسرحيتين ، لذا كنت أفحص بإمعان عنوان هذه ثم تلك (لأن العنوان هو كل ما كنت أعرفه عنهما) وأحاول أن أقطف إثارة من النكهة التى تتيحها لى ، ثم أقارن ذلك بنكهة العنوان الآخر ، إلى أن أتخيل لهما صوراً ، تبدو مثال الغطرسة فى إحداها ومثال الرقة فى الأخرى ، وأتحير أيهما أختار ، كما أتحير على مائدة العشاء عندما يجبرنى والدىَّ على الاختيار بين « الأرز على الطريقة الإمبراطورية » وبين قشدة الشيكلاتة اللذيذة .

وكانت كل أحاديثى مع رفاقى فى اللعب تنصب على الممثلين للذين كان فنهم — مع أنه لا خبرة لى به بعد — أول ما تعلق به قلبى من لذات الفنون وأشكالها التى لا تحصى . وكانت تموجات الصوت وانثناءاته فى نظرى أهم الفروق بين أداء وآخر ، وعلى حسب ما روى لى عنهم كنت أرتب مواهبهم فى قوائم كنت أغمغم بها لنفسى طول النهار ، « هى قوائم تحجرت فى نهاية الأمر فى ذهنى وصارت مصدراً لضيقى ، لأننى لم أتمكن من محوها منه » .

وفيما بعد ، فى أيامى الدراسية ، إذا ما التفت المعلم برأسه ناحية أخرى ، كنت أغامر بالكلام مع صديق جديد ، فأبدأ دائماً بسؤاله هل بدأ أم لا فى التردد على المسارح ، وهل يوافقنى على أن أعظم ممثلينا هو « جو » Got وأن الثانى فى الترتيب هو ديلونى Delaunay ، وهلم جرا ، وإذا كان من رأيه أن فيبفر Febvre يأتى فى المنزلة دون تيرون Thiron ، أو أن ديلونى تأتى منزلته دون كوكلان Coquelin فإن هذا الترتيب الذى يجعل ديلونى الرابع فى القائمة يثير عواطفى ، وأشعر فى ذهنى بجيشان شديد الحيوية .

ولكن إذا كان التفكير فى الممثلين يشتد ويبهظ كاهلى ، وكان منظر موبان وهو خارج بعد ظهر ذات يوم من المسرح الفرنسى قد غمرنى بلواعج الحب اليائس ، فكم كانت عذاباتى أشد من هـذا وجيشان مشاعرى لرؤية اسم « نجمة » يتألق خارج أبواب مسرح ، وكم تغمرنى اللواعج والوله إذا رأيت رأسها من نافذة عربة مقفلة تمر بى فى الشارع ، والشعر على رأسها مزين بالورود ، وأتساءل هل يكفى أن أرى وجه امرأة ، لعلها ممثلة ، لكى يتركنى نهباً للاضطراب وأنا أحاول فى جهد عقيم أن أتصور حياتها الخاصة :

وكنت أرتب أعظم ممثلاتنا ، طبقاً لمواهبهن ، على هذا النحو : سارة برنار Sarah Bernardt ، وبرما Berma ، وبارتيه Bartet ومدلين بروهان Madeleine Brohan ، وجان سامارى Geanne Samary ، ولكنى كنت مهتماً بهن جميعاً . وكان عمى يعرف

الكثيرات منهن شخصياً ، كما يعرف أيضاً سيدات من طبقة أخرى ، لا يتميزن عن الممثلات فى ذهنى . وكان يستقبلهن ويستضيفهن فى بيته ، وإذا كنا نذهب لزيارته فى أيام محددة دون سواها ، فذلك لأنه فى الأيام الأخرى ربما حضرت سيدات لم تكن أسرته تحب لقاءهن كثيراً . وهذا على الأقل كان تفكيرنا ونظرتنا للأمر : أما عمى فكان على أتم الاستعداد لإبداء المجاملة والتكريم لأرامل حسناوات (لعلهن لم يتزوجن قط !) ولكونتسات (و لعل ألقابهن البراقة لم تكن إلا أسماء مستعارة !) بتقديمهن بكل الحفاوة إلى جدتى ، أو بإهدائهن بعض مجوهرات الأسرة الموروثة ، فكان ذلك سبباً فى خصام شديد بينه وبين جدى أكثر من مرة : وكثيراً ما كنت أسمع أبى – إن ورد ذكر ممثلة فى الحديث – يقول لأمى وهو يبتسم :

– إنها إحدى صديقات عمك !

وكنت عندئذ أتخيل السنوات الطوال التى ربما قضاها هاو فى مضمار الفن – حتى ولو كان مكتمل الرجولة ، أو كان ذا مكانة بارزة – على أعتاب مثل هذه الغادة ، وهى ترفض الرد على رسائله وتأمر بوابها أن يطرده ، ثم يخطر لى أن عمى هذا يمكن أن يوفر على غر مثلى كل هذا العناء بتقديمه فى بيته الخاص إلى الممثلة التى يعز قربها على الناس جميعاً ، ولكنها صديقته الحميمة .

وذات يوم تذرعت بأن موعد أحد الدروس قد تغير ، بحيث إنه حال أكثر من مرة دون ذهابى لزيارة عمى ، وربما استمرت

هذه الحيلولة ، فاخترت يوماً ليس من الأيام التى حددها عمى لزياراتنا ، وانتهزت فرصة تناول والدى الغداء قبل المعتاد ، وتسللت لا إلى قراءة إعلانات المسرح فوق عمودها المعتاد ، وهو المقصد الوحيد الذى كان مصرحاً لى بالخروج إليه بدون صحبة أحد ، وقطعت الطريق ركضاً إلى بيت عمى : ولاحظت أمام بابه عربة يجرها زوج من الخيول المزدانة بالقرنفل ، كما كانت عروة سترة الحوذى مزينة بالقرنفل أيضاً : وفيما أنا أصعد السلم سمعت ضحكاً وصوت امرأة ، وما رن جرس الباب استجابة ليدى حتى ساد الصمت وسمعت صوت أبواب تغلق : وفتح الباب خادم عمى الذى قال لى بكل ارتباك إن عمى مشغول للغاية ، وقد لا يتمكن من مقابلتى : ودخل الخادم مع هذا وأعلنه بوصولى : وسمعت نفس الصوت النسائى الذى كنت قد سمعته من قبل يقول :

— أوه ! نعم ! دعه يدخل ، للحظة واحدة ، فكم سيكون هذا مسلياً : أهذه صورته التى أراها هناك ، فوق مكتبك ؟ وبجوارها صورة أمه (بنت أخيك فيما أعتقد . أليس كذلك ؟) إنه نسخة منها ، أليس كذلك ؟ أحب أن أرى الفتى الصغير ، ثانية واحدة !

وسمعت صوت عمى يزمجر ويبدو فيه الغضب : وأخيراً طلب منى الخادم أن أدخل :

وعلى المائدة وجدت نفس طبق المرزبانية الذى كنت أراه دائماً هناك ، وعمى كان مرتدياً نفس سترة الألباكا مثل سائر الأيام :

ولكن قبالته جلست شابة فى ثوب وردى وحول عنقها عقد كبير من اللآلىء وهى على وشك الانتهاء من تناول ثمرة يوسفى . وشعرت بالحيرة ، أأقول لها يا آنسة أو يا سيدة (مدام) فاحمر وجهى بشدة ، ولم أجسر على النظر كثيراً نحوها حتى لا أضطر لتوجيه الخطاب إليها ، لذا أسرعت باجتياز الحجرة كى أقبل عمى ، فنظرت نحوى وابتسمت ، وقال عمى :

— ابن بنت أخى !

من غير أن يذكر لها اسمى ، أو يذكر لى اسمها . ولا شك فى أن ذلك راجع إلى ما بينه وبين جدى من سوء تفاهم جعله يتحاشى اتصال أسرتى بهذه الفئة الأخرى من معارفه قدر الإمكان .

وقالت السيدة :

— ما أشبهه بوالدته .

فقال عمى بسرعة ، وبنبرة غضب :

— ولكنك لم ترى بنت أخى إلا فى الصور :

— أستميحك العفو يا صديقى العزيز . لقد مررت بها على السلم فى السنة الماضية عندما كنت أنت مريضاً جداً . أجل إنى لم أرها إلا لحظة واحدة ، وسلمك معتم ، ولكنى رأيتها بما يكفى لإدراك كم هى جميلة : وهذا الشاب له عيناها الجميلتان ، وهذا أيضاً :..

ورسمت بإصبعها خطاً عبر الجزء الأدنى من جبهتها ، وسألت عمى :

– قل لى ، هل ابنة أخيك مدام ::: لها نفس اسمك العائلى ؟

فغمغم عمى الذى لم يكن ميالا لذكر اسم عائلتى ، كما لم يكن ميالا للاتصال الشخصى بينها وبيننا :

– إنه يشبه أباه بالأكثر ، بل هو نسخة من أبيه ، ويشبه أيضاً أمى الراحلة :

فقالت السيدة ذات الثوب الوردى ، وهى تحنى رأسها :

– أنا لم أقابل والده يا عزيزى : ولم أر المرحومة والدتك ، ولعلك تذكر أن تعارفنا تم على أثر مصابك الفادح فيها :

وشعرت بشىء من خيبة الأمل ، لأن هذه الشابة لم تكن مختلفة من أى وجه من الوجوه عن النساء الحسناوات اللواتى كنت أراهن بين الحين والحين فى البيت ، ولا سيما ابنة أحد أبناء عمومتنا التى كنت أذهب إلى بيتها فى يوم بداية العام كل سنة للتهنئة : وكل الفرق أن هذه الشابة أحسن منها ملبساً ، وفيما عدا هذا كانت لصاحبة عمى هذه نفس النظرة السريعة الحانية ، ونفس الطريقة الصريحة الودية فى الكلام : ولم أستطع أن أجد فيها أى أثر للمظهر المسرحى الذى كنت أعجب به فى صور الممثلات ، ولا أثر لذلك التعبير الشيطانى الذى ينسجم مع الحياة التى لابد أنها عاشتها ، ووجدت مشقة فى تصديق أنها كانت واحدة من هاتيك النساء ، بل وما كنت لأصدق أنهـا امرأة « متهتكة » أو « متبرجة » ، لولا أننى رأيت العربة وزوج الخيل ، والثوب الوردى ، وعقد اللآلىء ، ولولا أننى أعرف أن

عمى لا يعرف إلا أرقى نوع منهن . ولكنى سألت نفسى كيف يمكن للمليونير الذى وهبها هذه العربة ، وشقتها ، ومجوهراتها ، أن يجد أى متعة فى بذل أمواله وإغراقها على امرأة لها مثل هذا المظهر البسيط المحترم ؟ مع هذا ، عندما فكرت فى حياتها وكيف لابد أن تكون ، زاد اضطرابى لما يشيع فيها من تبذل مناف للأخلاق ، وأزعجنى هذا التخيل أكثر مما لو كنت لمست هذا الواقع بما فيه من خفاء ، وتصورت — كما فى الروايات — الحقيقة المكتومة وراء الفضيحة التى أفضت إلى طردها من بيت أسرتها المتوسطة ، لتكرس نفسها لخدمة البشرية كلها ، وكيف أن جمالها الأخاذ هو الذى كفل لها الشهرة العريضة ، وساعدها على هـذا موهبة طبيعية فى استخدام ملامحها وصوتها للتعبير عن أدق وأصعب المشاعر . كل هذا جعلنى أنظر إليها على أنها سيدة شابة من أسرة طيبة ، مع أنها لم تعد تنتمى إلى أى أسرة .

وكنا قد انتقلنا إلى « مكتب » عمى ، الذى بدا عليه بعض الحرج لوجودى ، وقدم لها سيجارة ، ولكنها قالت :

– لا ، وشكراً لك يا صديقى العزيز ؛ فأنت تعرف أننى لا أدخن إلا تلك السجائر التى يرسلها لى الغراندوق ؛ وأقول له إن سجائره تجعلك تشعر بالغيرة ؛

ثم أخرجت صندوق سجائر مغطاة بكتابة مذهبة بلغة أجنبية ؛ وقالت فجأة :



وكنا قد انتقلنا إلى « مكتب » عمى ، الذى بدا عليه بعض الحرج لوجودى ، وقدم لها سيجارة ..

— آه . نعم : أنا طبعاً قابلت والد هذا الشاب معك . أليس زوج بنت أخيك ؟ كيف أمكننى أن أنسى ذلك ؟ فلقد كان شديد اللطف بالغ الرقة معى !

وقالت هذا التعليق الأخير فى حياء وتأثر ، ولكنى تعجبت فى نفسى وتصورت فظاظة أو برود تحيته لها (وهى ما زعمته لطفاً ورقة !) لأنى أعرف أبى وبروده وتحفظه ، وانتابنى شعور بالحرج كأنى أرى ذلك بعينى ، ولما لمسته عندها من تباين بين عرفانها وما فى أبى من نقصان فى الدماثة والمجاملة .

وقد ثبت فى ذهنى منذ هذه اللحظة إحساس غريب بما تتكبده هذه الفئة من النساء من مشاق ، وما يقمن به من دور فى الحياة بما يخصصنه من سخائهن بأنفسهن ، وما يبذلنه من مواهبهن ومن أحلامهن الذهبية بالفتنة والجمال الذى يستحيل أن يتحقق فى حياة الناس اليومية العادية ، بل وما ينفقنه من مالهن القليل أو الكثير لا لشىء إلا لتوفير إطار ساحر يرفه عن الرجال ويجمل حياتهم الجافية : وها هى الصورة ماثلة أمامى لتلك الغادة فى حجرة التدخين ، حيث يستضيفها عمى وهو فى سترته من صوف الألباكا ، وقد أبرز حسنها ثوبها الوردى الأنيق ، ولآلئها ، وما توحيه من حياة الترف بما أشارت إليه من صلتها بالغراندوق ، وها هى بنفس الطريقة العابرة قد أشارت إلى أبى ، وهى ترنو بعينين كأنهما جوهرتان نفيستان ،

وقرنت إشارتها إليه بمزيج من اللطف والرقة ، فبدت لى آية لا نظير لها فى الفتنة والرهافة .

وقال لى عمى عندئذ :

— اسمع يا فتاى ! آن لك أن تنصرف !

ونهضت ، ولم أكد أتمالك نفسى من تحقيق رغبتى الطاغية فى تقبيل يد السيدة ذات الثوب الوردى ، لولا أنى أحسست أن ذلك يحتاج منى إلى جسارة بالغة ، وإلى تنازل عظيم من جانبها . وجعل قلبى يخفق خفقاناً شديداً ، وأنا أراود نفسى :

— هل أقدم ؟ هل أحجم ؟

وأخيراً كففت عن سؤال نفسى ماذا ينبغى أن أصنع كى أصنع على الأقل شيئاً ما ، وهكذا اندفعت بتهور ، وحماسة ، وجنون ، ونحيت جانباً كل تبرير وتفكير ، وتناولت يدها التى مدتها إلى ورفعتها إلى شفتى . فقالت وهى تفتعل لهجة إنجليزية فى النطق :

— أليس هذا جميلا وبديعاً ؟ ها هو منذ الآن « خدن نساء » : ما أشبهه بعمه ! وسيكون بلا ريب « جنتلماناً » حقيقياً ! .. أفلا يمكنه أن يأتى يوماً لزيارتى لتناول « فنجان من الشاى » كما يقول أصدقاؤنا على الضفة الأخرى للمانش . لن يكلفه الأمر إلا أن يرسل لى « زرقاء » فى الصباح !

ولم أفهم أن كلمة « زرقاء » تعنى رسالة مستعجلة ، بل إننى لم أفهم نصف ما استخدمته هذه السيدة من الكلمات . ولكن خشيتى

أن يكون كلامها منطوياً على أسئلة من سوء الأدب ألا أجيب عنها منعتنى من تحويل انتباهى عنها ، وبدأت أشعر بالإرهاق . وأسعفنى عمى بقوله وهو يهز كتفيه :

— لا . لا . هذا مستحيل . فهو مشغول فى بيته طول اليوم ؛ ولديه عمل كثير يؤديه ، لأنه تعود الفوز بكل الجوائز فى مدرسته .

وقال هذه العبارة الأخيرة بصوت خفيض ، حتى لا أسمع هذه الأكذوبة وأنقضها ، واستطرد هو يقول :

— من يدرى ؟ ربما صار يوماً ما مثل فكتور هيجو Hugo ، أو مثل فولابل Vaulabelle .

فأجابت ذات الثوب الوردى :

— أوه ! كم أحب ذوى الميول الفنية ؛ فلا نظير لهم فى فهم النساء ، هم وظرفاء الرجال من أمثالك . ولكن اغفر لى جهلى ، فمن هو « فولابل » الذى ذكرت اسمه الآن ؟ أهو مؤلف تلك الكتب المذهبة فى الخزانة الزجاجية الصغيرة فى حجرة استقبالك ؟ لقد وعدتنى أن تعيرنى إياها ، وثق بأننى سوف أعنى بها عناية كبيرة .

وكان عمى يكره إقراض كتبه للناس ؛ لذلك سكت ، وتقدمنى إلى البهو كى أنصرف . ولفرط جنونى بغرام ذات الثوب الوردى رحت أغمر وجنتى عمى الملطختين بالطباق بقبلات حارة . وأخذ هو يقول لى — فى شىء من الارتباك — ما فهمت منه أنه (بدون أن يقول ذلك صراحة) يفضل ألا أخبر والدى بشىء عن هذه الزيارة .

ورحت أنا أقول له ، والدموع فى عينى : إن رقته تركت فى نفسى انطباعاً عميقاً جداً ، لا أشك فى أننى سأجد مناسبة فى المستقبل للإعراب له عنه بكل العرفان .

وكان هذا الانطباع من العمق بحيث إننى بعد ساعتين لا أكثر ، وبعد سلسلة من العبارات التى لم أشعر أنها قدمت لوالدى فكرة واضحة جداً عن الأهمية الجديدة التى أضفيت على شخصى ، وجدت من الأبسط أن أروى لهما ، من غير أن أغفل أى تفصيل من التفصيلات ، بياناً كاملا عن الزيارة التى قمت بها بعد الظهر . ولم يخطر ببالى أننى تسببت لعمى فى أى إحراج أو تعكير صفو . وكيف كان من الممكن أن أفكر فى شىء هذا وأنا لا رغبة لى فيه ؟ كذلك لم يخطر ببالى أن والدى يمكن أن يريا أى ضرر فى زيارة لم أر فيها أنا نفسى أى ضرر .

ألا يحدث فى كل يوم من أيام حياتنا أن يطلب منا هذا الصديق أو ذاك أن نقدم اعتذاره إلى امرأة حالت الحوائل دون كتابته إليها ، وألسنا ننسى هذا شاعرين أن هذه المرأة لا يمكن أن تعلق أهمية كبيرة لصمت ليست له أهمية بالنسبة لنا ؟ لقد تخيلت ، مثل أى شخص آخر ، أن أذهان الناس إنما هى أجهزة تلق سلبية خالية من كل قدرة على رد الفعل لأى إثارة أو تنبيه يوجه إليها ، فلم يخامرنى أى شك فى أننى عندما نقلت إلى ذهن والدى أنباء التعارف الجديد الذى حظيت به فى بيت عمى أننى نقلت إليهما أيضاً عين رأيى فى هذا التعارف .

ولكن والدى للأسف كانت لهما مبادئ تختلف تماماً عن تلك المبادئ التى ظننت أنهما يدينان بها عندما يحكمان على سلوك عمى : وقد عرفت بطريق غير مباشر أن جدى ووالدى وجها إليه « ألفاظاً » عنيفة : فبعد بضعة أيام مر عمى بطريقى فى عربة مفتوحة ، فشعرت على الفور بكل الأسى ، وعرفان الجميل والندم ، ووددت لو عبرت له عن هذا . ولكن نظراً لجسامة مشاعرى هذه اعتقدت أن اكتفائى برفع قبعتى له سيكون غير ملائم ، وخشيت أن يظن من هذا التصرف أننى غير مطالب نحوه بأكثر من المجاملة العادية . ولذا قررت أن أمتنع عن هذه الحركة ، وفضلت أن أشيح بوجهى عنه : فاستقر فى ذهن عمى أنى فعلت ذلك إطاعة لأوامر صادرة من والدى . ولم يغفر لهما ذلك قط ، ومع أنه لم يمت إلا بعد ذلك بسنوات طويلة ، إلا أن أحداً منا لم تقع عينه عليه منذ ذلك اليوم .

وهكذا لم يعد من عادتى دخول حجرة جلوس عمى أدولف الصغيرة (التى صارت الآن مغلقة) ، وبدلا من هذا كنت أتلكأ قرب المطبخ الخلفى إلى أن تظهر فرنسواز على عتبته وتقول :

— سأترك خادمة المطبخ تقدم القهوة الآن وأصعد أنا بالماء الساخن ، فقد حان وقت صعودى إلى مدام أوكتاف .

وعندئذ أقرر دخول البيت ، وأصعد مباشرة إلى حجرتى لأطالع : وكانت خادمة المطبخ شخصية « تجريدية » ، أو كيان له مجموعة ثابتة لا تتغير من الصفات تكفل له الاستمرار والهوية على

امتداد السلسلة المتعاقبة من الأشكال البشرية التى تتجسد فيها هـذه الشخصية ؛ لأننا لم نكن نجد قط نفس الفتاة فى ذلك العمل سنتين متتاليتين . وفى السنة التى أكلنا فيها هذه الكميات الهائلة من الإسبرجس كانت خادمة المطبخ التى تتبلها مخلوقة مسكينة عليلة المنظر ، وقد قطعت شوطاً فى «الحمل» عندما وصلنا فى أسبوع الفصح إلى كمبراى: وعجبنا لأن فرنسواز كانت ترسلها فى كل هذه المهام إلى البلـدة وتجعلها تقوم بكل هذه الأعمال فى البيت ، لأنها كانت قد بدأت تجد عناء فى حمل بطنها المتضخم تحت ثنايا ثوبها الفضفاض . وكانت هذه الثياب أشبه بالثياب التى يلبسها جيوتو Giotto بعض شخصياته الأسطورية فى لوحاته التى أهدانى المسيو سوان صوراً فوتوغرافية لها . وكان هو الذى نبهنى إلى هـذا التشابه . وعندما كان يسأل عن خادمة المطبخ كان يقول :

— كيف حال « رحمة » جيوتو !

والحق أن الفتاة المسكينة التى تضخم حملها وضخم كل أعضائها ، حتى وجهها وشكل خديها ، كانت تذكر المرء بأولئك العذارى القـويات الأبدان فى استرجال اللواتى جسد فيهن الرسام نماذج الفضائل فى كنيسة أرينا Arena . وإنى لأتبين الآن أن هذه الفضائل والرذائل المصـورة فى بدوا Padua يشبهها من ناحية أخرى أيضاً . فكما أن قامة هـذه الفتـاة قد تضخمت بفعل الرمز الإضافى الذى تحمله فى جسدها ، من غير أن يبدو عليها أنها تفهم معناه ،

وبدون أن يعبر محياها عن جمال هـذا الرمز ومغزاه الروحى ، بل تحمله كما لو كان حملا عادياً بالغ الثقل تكاد تنوء به : وهكذا أيضاً كانت ربة البيت القوية البنية لا يبدو عليها أى إدراك لما هى بسبيله ، أعنى تلك السيدة بالذات المصورة فى كنيسة أرينا تحت عنوان « الرحمة » ، وهناك صورة منها معلقة على حائط قاعة درسى فى كمبراى ، ممثلة للفضيلة ، لأنه يبدو مستحيلا أن أى فكرة عن الرحمة يمكن أن تجد التعبير عنها فى محياها السوقى المفعم بالنشاط ، إلا أن إبداع الرسام جعلها تطأ كل كنوز الأرض تحت قدميها . وكأنها بالضبط تدوس عناقيد العنب فى عصارة للنبيذ كى تستخرج منها عصيرها . أو كأنها قد تسلقت كومة من الأكياس ، لتعرض على الأنظار قلبها الإلهى الملتهب ، أو فلنقل إنها تقدمه « إليه » مثلما تقدم الطباخة بريمة من منور مطبخها تحت الأرض إلى شخص ناداها من الطابق الأرضى وطلبها منها ... ولكن فى هذه اللوحة يحتل فيها الرمز مكاناً كبيراً وبواقعية عظيمة ، حيث تبدو المرأة التى تمثل الحسد ؛ والثعبان يفح من بين شفتيها مجسماً ضخماً بحيث يملأ فجوة فمها المفتوح إلى حد يجعل عضلات وجهها تتوتر وتتقلص ، كفم الطفل الذى ينفخ بكل جهده « بالونة » . وعندما ننظر إليها نجدها كما نجد أنفسنا وقد تركزت اهتماماتنا واهتمامها على حركة شفتيها ،حتى أننا لا نكاد نجد متسعاً من الوقت لأفكار الحسد ومشاعره .

وبرغم كل الإعجاب الذى قد يكنه المسيو سوان لأشكال

جيوتو هذه ، فقد مر زمن طويل قبل أن أجد أى لذة فى رؤية صورة هذه الرحمة الخالية من الرحمة معلقة على حجرة درسى (حيث علقت كل صور اللوحات التى أهدانيها المسيو سوان) أو رؤية صورة الحسد التى تبدو أشبه بلوحة توضيحية فى كتاب طبى ، تبين تأثر اللهاة بورم فى اللسان ، أو بسبب إقحام أداة طبية ، أو رؤية « العدالة » التى تشبه ملامحها الرمادية المنتظمة نفس الملامح التى تتمثل فى وجوه بعض سيدات كمبراى التقيات الذابلات شيئاً ما ، اللواتى كنت أرى الكثيرات منهن فى القداس، وقد انضممن منذ سنوات إلى قوات « الجور والظلم » الاحتياطية : ولكنى فى السنوات التالية فهمت أن الجمال الخاص لهذه الصور الحائطية كامن فى ما ترمز له كل امرأة منهن ، فى حين أن المصور لم يجعلهن رموزاً بل نساء واقعيات (فليس فى اللوحة أى فكرة رمزية فى حد ذاتها) ، كل ذلك أضاف شيئاً محددا إلى المعنى المجازى ، شيئاً ملموساً محسوساً يزيد الدرس المقصود منهن قوة .

وحتى فى حالة خادمة المطبخ المسكينة هذه ، أليس اهتمامنا كله موجهاً باستمرار نحو بطنها وما تحمله فيه من عبء ثقيل ، وأليس — على نفس النحو — ما يهتم به النساء والرجال فى ساعة الاحتضار وسكرات الموت هو فى الغالب الجانب العملى المؤلم الغامض ، الباطنى ، وهو الجانب المظهرى للموت الذى يتجلى فيه الموت للمحتضر بحيث يجبره على الشعور به كعبء باهظ ساحق ، ومشقة

فى التنفس ، وظمأ شديد ، أكثر مما يبدو فكرة مجردة تعودنا أن نطلق عليها — ونحن لا نعانيها — اسم الموت ؟

لابد أنه كانت فى هذه الفضائل والرذائل فى بدوا عناصر واقعية ، ما دامت قد بدت لى حية مثل الخادمة الحبلى ، فى حين أنها شخصياً بدت أقل رمزية وأسطورية منها : ومن الممكن جداً أن هذا الافتقار (أو ما يبدو وكأنه افتقار) فى مشاركة الشخص لفضيلته الخاصة بتعبير واضح المعالم ، له — إلى جانب معناه الجمالى — واقعية إن لم تكن نفسية فهى ذات دلالة فى علم الفراسة . ففيما بعد ، فى مسار حياتى ، عندما أتيح لى أن أقابل — فى الأديرة مثلا — نماذج حقيقية حرفية قدسية للرحمة العملية ، وجدت فيهن سيما الحزم ، وسرعة الحركة والتصرف ، والصرامة التى يتميز بها الجراح الكثير المهام ، ووجدت لهن وجوهاً لا يميز فيها المرء إشفاقاً أو حناناً عند رؤية آلام الناس ، ولا خوفاً من إيلامهم ؛ رأيت وجوهاً خالية من الرقة ، والتعاطف . وتلك هى الوجوه المثلى للطيبة الحقيقية ...

وبعدئذ كانت خادمة المطبخ — التى كانت وهى لا تدرى تبرز مزايا فرنسواز بمزيد من البهاء ، مثلما يبرز الخطأ قيمة الصواب — تقدم القهوة التى كانت فى رأى ماما لا تعدو أن تكون ماء ساخناً ، ثم تصعد إلى حجراتنا بالماء الساخن الذى كان فى الواقع فاتراً ، وأكون عندئذ مستلقياً فى فراشى ، وفى يدى كتاب ، وقد أغلقت مصاريع النافذة نصف إغلاق لحماية جو الحجرة من حرارة شمس

ما بعد الظهر ، ولكن شعاعاً ذهبياً ينفذ وينعكس على الزجاج كأجنحة ذهبية ، أو كفراشة واقفة فوق زهرة . ولا يكاد هذا الضوء الضئيل يسمح لى بالقراءة : وكل شعورى بوهج النهار وبهائه مستمد من الضربات التى تتوالى من أسفل ، فى شارع الشفاء ، من يد كامى (الذى أكدت له فرنسواز أن عمتى ليست « مخلدة للراحة » ولذا فنى وسعه أن يحدث ضوضاء) على بعض صناديق التعبئة ولا يتطاير منها إلا التراب ، وإن كان الدوى فى تلك الساعة الحارة يوحى بتطاير الشرر الأحمر منها ، ومستمد من طنين الذباب فى ركن الحجرة كأنه يعزف لى موسيقى الصيف . فما أشد التصاق هذا الطنين بحرارة الصيف ، بحيث لا تسمعه فى أى مكان وزمان إلا وتمثلت لك حرارة هذا الفصل من السنة ...

لقد كانت الخلوة الندية فى حجرتى فى مقابل ضجة الشارع ووهجه ، أشبه بتقابل الظل وشعاع الشمس ، بحيث استطاعت حواسى أن تتمثل متعة السير فى الخارج وأنا قابع فى الظل ، وأن ترتسم أمام عينى لوحة الصيف المترامية الآفاق بكل مناظر النزهة على الأقدام وشذا عبيرها . وكان هذا هو المثل الأعلى عندى للاسترخاء والراحة ، مع التنعم بطيبات الإحساس بالحركة فى آن واحد . وبفضل المغامرات التى أطالعها فى كتبى كنت كمن يغمس يده فى تيار ماء جار فتنقل إليه يده كل جيشان الحياة !

ولكن جدتى ، حتى ولو انقلب الجو ، وبعد الحر الشديد هبت

عاصفة ، أو انهمر المطر . كانت تصعد إلى حجرتى وترجونى أن أخرج . ولما كنت لا أريد مفارقة كتابى ، لذا كنت آخذه معى إلى الحديقة ، تحت شجرة الكستناء ، وأكمن داخل خلوة من القماش السميك أحسبنى فيها بمنجاة من عيون أى زائر يمكن أن يدخل الحديقة لزيارة أسرتى .

ولكن أما كانت أفكارى أيضاً تهيئ لى مكمناً مماثلا أشعر فى داخله أننى دفنت نفسى وصرت متوارياً عن الجميع ، حتى وأنا أنظر إلى مايجرى فى الخارج ؟ فعندما كنت أرى أى شىء خارجى ، يظل شعورى بأنى أراه سراً بينى وبينه ، بحيث أكتنى بهذا الشعور ولا يجرى اتصال بينى وبين مادة هذا الشىء ، حتى كأنه تبخر قبل أن ألمسه . فيكون هناك نوع من الشاشة التى تتجمع فوقها صور الحالات والانطباعات المختلفة ، التى يبسطها شعورى أمامى وأنا أقرأ ، وتتراوح ما بين أشد طموحات قلبى خفاء والمنظر الخارجى تماماً للأفق الممتد أمام عينى عند أسفل الحديقة ، وقد صار ذلك كله جزءاً لا يتجزأ من سريرتى ، وكان المقصود الذى يحرك كل ما يدور فى حناياى على هذه الصورة هو اعتقادى بالثراء الفلسنى والجمال الفذ للكتاب الذى أطالعه ، ورغبتى فى تملك هذه الكنوز ونسبتها لنفسى ، كائناً ما كان هذا الكتاب ، فحتى لو كنت اشتريته من كمبراى ، عندما رأيته خارج محل بوارنج Bourange ، الذى يبعد متجر بقالته كثيراً عنا فلا تتعامل معه فرنسواز كما تتعامل مع كامى ،

إلا أنه يتميز عنه بأنه يبيع أيضاً الأدوات الكتابية والكتب — حتى لو كنت رأيته هناك مربوطاً بخيط ليبقى فى مكانه وسط المجلات الشهرية والكتيبات التى تزين جانبى مدخل المحل — وهو مدخل أشد غموضاً وإيحاء من مدخل كاتدرائية — فإنى كنت ألاحظ وجوده على الفور وأشتريه لأنى عرفت فيه كتاباً سمعت ثناء عليه من معلم المدرسة ، أو زميل الدراسة الذى كنت فى ذلك الوقت أومن بأنه حاز أسرار الحقيقة والجمال ، وهما شيئان كنت أشعر بهما شعوراً غامضاً ، ولا أدركهما كل الإدراك ، إلا أن فهمهما كان الهدف الدائم الذى تدور حول محوره أفكارى جميعاً .

ويتلو هذا الاعتقاد المحورى فى الأهمية ، وهو الاعتقاد الذى كان يظل جياشاً وأنا أقرأ ومتنقلا من دخيلة نفسى إلى العالم الخارجى ، صوب اكتشاف الحقيقة ، تأتى المشاعر التى توقظها فى نفسى الأعمال التى قد أكون مشاركاً فيها ، لأن فترات ما بعد الظهر هذه كانت مكتظة بأحداث أكثر درامية وإثارة مما يجرى عادة فى عمر بأكمله : وتلك هى الأحداث التى كانت تجرى فى الكتاب الذى أطالعه . أجل إن الناس الذين تتعلق بهم هذه الأحداث ليسوا ممن قد تسميهم فرنسواز « أشخاصاً حقيقيين » . ولكن ما من شىء من المشاعر التى توقظها فينا أفراح أو مصائب الأشخاص « الحقيقيين » يمكن أن تتيقظ إلا عن طريق صورة ذهنية لتلك الأفراح أو المصائب : وبراعة الروائى تكمن فى إدراكه ذلك ، لأن الصورة هى العنصر الأساسى

فى بناء مشاعرنا المعقد ، بحيث يكون تبسيطها عن طريق استبعاد تام للناس « الحقيقيين » بمثابة تحسين فى الفن الروائى . فالشخص « الحقيقى » مهما بلغ من تعاطفنا معه ليس موضوع إدراك لدينا إلا عن طريق الحواس . أى أنه يظل صلباً كثيفاً ثقيلا بحيث لا تستطيع حساسيتنا أن ترفعه . فإذا منى بمصيبة فإننا لا نستطيع أن نشعر بأى عاطفة نحوه إلا فى نطاق واحد صغير من الفكرة الكاملة التى لدينا عنه ، بل إنه لا يشعر بأى عاطفة أيضاً فى الواقع إلا فى قطاع واحد صغير من فكرته الكاملة عن نفسه ، واكتشاف الروائى الموفق هو تفكيره فى أن يستبدل بهذه القطاعات الكثيفة التى لا ينفذ إليها الفكر الإنسانى ما يعادلها من قطاعات لامادية وأشياء يتسنى للفكر أن يتمثلها فى نفسه : وبعد هذا ليس مهماً أن تبدو لنا أفعال ومشاعر هذا النمط الجديد من المخلوقات فى ثوب الحقيقة ، لأننا جعلنا هذه المشاعر والأفعال مملوكة لنا ومنتمية إلينا ، فهى تحدث فى داخلنا ، بحيث يتوقف تنفسنا ونحن نقلب محمومين صفحات الكتاب . ومتى أوصلنا الروائى إلى هذه الحالة ، التى تتضاعف فيها المشاعر ، وكل الحالات النفسية والعقلية عشر مرات ، ويستولى علينا الكتاب كأننا فى حلم ، ولكنه حلم رقيق مرهف ، له انطباع أبقى وأدوم من كل تلك الأحلام التى توافينا فى المنام : فإذا بالكتاب عن هذا الطريق وقد أطلق فى أعماقنا — على مدى ساعة واحدة — كل الأفراح والأحزان التى يحفل بها العالم ، ويقتضى البعض منها سنوات من

حياتنا الفعلية كى نكابدها أو نعيشها ، بل إن أشدها وأعمقها قد لا يتاح لنا فى الحياة الواقعية أبداً ، لأن بطء إيقاع الحياة يفوت علينا إدراكها . وكذلك الحال فى الحياة ! فالقلب يتغير ، وهذه أفدح مصائبنا ، ولكننا لا نعلمها إلا من القراءة أو من التخيل ، لأن تغير القلب شأنه شأن الظواهر الطبيعية يحدث ببطء شديد جداً وبالتدريج ، وحتى لو استطعنا تمييز كل مرحلة من هذا التغير على التوالى ، فإننا نظل بمعزل عن الإحساس الفعلى بالتغير (أو الصيرورة) .

ويتلو ذلك فى الأهمية ، ولكنه أقل التصاقاً واندماجاً بدخيلة نفسى من هذا العنصر البشرى ، يأتى المنظر ، الذى يتفاوت انطباعه أمام بصرى ممثلا البلد الذى تجرى فيه أحداث القصة . وهذا المنظر المتخيل أقوى انطباعاً فى ذهنى من المنظر الواقعى الذى قد تقع عليه عيناى إذا مارفعتهما عن كتابى :

وعلى هذه الوتيرة على مدى صيفين متتاليين ، كنت متعوداً أن أجلس فى حرارة حديقتنا فى كمبراى ، شاعراً بكل الحنين إلى الجبال والأنهار الذى يلهمنى إياه الكتاب الذى أطالعه حينئذ ، حيث يتسنى لى أن أرى أعمال نشر الخشب ، والجداول الشفافة التى تحفل بقطع من الأخشاب عالقة بالنبات المائى ، وعلى الأرض هنا وهناك تنبثق أزاهير حمراء وقرمزية . ولما كانت الأحلام تراودنى فى هذين الصيفين طليقة ، كنت أتخيل فيما أتخيل امرأة حسناء ، ولكن أياً ما كانت هذه الحسناء ، فإن الأزاهير القرمزية كانت تتمايل على جانبيها

فى موكب رائع الحسن . فالصور التى يطبعها الكتاب فى نفسى تظل عالقة بذهنى بحيث تبرز فى كل التخيلات الأخرى التى أبتدعها من تلقاء نفسى ، وتكون فى جميع الأحوال أعمق وأثبت من المناظر التى أراها حولى فى كمبراى ، وتظل كالخلفية الدائمة لكل ما يرد على مخيلتى أو ينبثق فيها : ذلك أن براعة المؤلف وشدة إيمانى بالكلمة المطبوعة كانا يسيطران على نفسى بحيث أعتقد أن هذه المناظر هى فعلا جزء من الطبيعة نفسها يستحق أن يكتشف ويدرس ، وهو أولى بذلك من حديقتنا التى يتحكم فى تنسيقها المصطنع ذلك البستانى الذى كانت تمقته جدتى أشد المقت لما يفرضه على الطبيعة الحية من قوالب :

ولو كان والداى سمحا لى ، كلما قرأت كتاباً ، أن أزور البلد الذى يصفه ، لأحسست أننى أتقدم تقدماً حثيثاً ضخماً نحو غزو الحقيقة . فمهما كانت قوة إحساسنا ، إلا أننا نشعر أننا كالسجناء ، ونتوق إلى لمس هذا الإحساس فى عالم الواقع والخروج به إلى الدنيا ؛ وكأن ما نسمعه حولنا من أصوات وأصداء إنما هو ذبذبات منبعثة من داخلنا ، فنحاول أن نكتشف فى الأشياء التى تبدو عزيزة لدينا على هذا الأساس ، ذلك التألق الروحى الذى أضفته عليها نفوسنا ، ونحن نحسبه أصيلا فيها ، ونصاب بخيبة الأمل ، وندرك أن الأشياء ذاتها عقيمة قاحلة جرداء من تلك الفتنة التى نخالها فيها والتى مصدرها نفوسنا واقتران بعض الأفكار ببعضها الآخر . وأحياناً نجند كل قوانا الروحية للتأثير على إنسان آخر وتملكه ، مع أننا نعلم أنه موجود

خارجنا حيث لا نستطيع الوصول إليه : وهكذا لئن تخيلت المرأة التى أحببتها وكأنها فى إطار تلك الأماكن التى كنت أتوق فى ذلك الحين لزيارتها ، ولئن تخيلت أنها هى التى جذبتنى إلى هذه الأماكن ، وفتحت لى أبواب عالم مجهول ، فليس ذلك مصادفة أو ترابط أفكار ؟ كلا ! بل لأن أحلامى بالأسفار وبالحب كانت مراحل ولحظات من سياق واحد أو تيار واحد متدفق ينتظم كل قوى حياتى ، ولكنى الآن أتصورها منفصلة على نحو ما أرسم قطاعات فى نافورة ماء ، كأنها شىء ثابت وهى كلها حركة وتوثب :

ثم حين أواصل تعقب المسار الخارجى لهذه الانطباعات من منبعها الدفين فى شعورى ، وقبل أن أصل إلى أفق الواقع الذى يحيط بها ، أكتشف متعاً من نوع آخر : متعة جلوسى مستريحاً ، ومتعة تذوق عبير الهواء ، ومتعة عدم إقلاق أى زائر لخلوتى : وعندما يجلجل صوت ساعة منارة سان إيلير ، أستمتع بالإصغاء إليها وأنا أحصى مع دقاتها ما انقضى من قطرات الزمن قطرة قطرة ، حتى أصل إلى الدقة الأخيرة فأعرف من إحصائها الوقت ، ثم يرين الصمت وكأنه يؤذننى — تحت قبة السماء الزرقاء الصافية بما تبقى لى من فسحة وقت للقراءة ، إلى أن ينتهى إعداد العشاء الطيب الذى تصنعه الآن فرنسواز ليقوينى وينعشنى بعد عناء التعقب الشاق لبطل كتابى على امتداد صفحاته : وكلما أعلنت الدقات مرور ساعة خيل إلى أنه لم تمر إلا بضع ثوان منذ الساعة السابقة ، ولا أكاد أصدق أن

ستين دقيقة قد مرت فيما بين موضعى رقمين صغيرين على قرص ساعة البرج . وأحياناً يخيل إلى أن الدقات زادت هذه المرة عن سابقتها دقتين لا دقة واحدة ، لأنى لم أسمع الساعة عندما دقت قبل ذلك : أى أن تلك الدقات التى لم أسمعها وجدت ولكنها بالنسبة لى لم توجد! فسحر كتابى طغا على سمعى وحواسى ومحا من القبة الزرقاء هذا الرنين وأغرقه فى الصمت . وما أحلى ساعات ما بعد ظهر أيام الأحد هذه تحت شجرة الكستناء فى حديقتنا بكمبراى ، التى كنت حريصاً على أن أزود عنها كل ما هو عادى من أحداث حياتى ، وتحل محلها مغامرات ومطامح فى بلاد ترويها جداول طبيعية حية ! ومازلت أتذكر كلما ذكرت تلك الأيام هذه المغامرات ، وقد ظلت مناظرها المطبوعة فى نفسى أوراق الكستناء ، وساعات هذه الفترات الساكنة الصامتة الرنانة الفواحة الرقراقة فى آن واحد :

وأحياناً كنت أنتزع من كتابى انتزاعاً ، فى منتصف فترة العصر ، لقدوم ابنة البستانى التى كانت تقبل وهى تجرى كالمجنونة ، فتقلب برميلا به شجرة برتقال ، وتقع فتجرح أصبعها ، أو تكسر إحدى أسنانها وتصيح بأعلى صوتها :

— إنهم قادمون ! إنهم قادمون !

لكى أجرى أنا وفرنسواز ولا يفوتنا شىء من الاستعراض : وتلك كانت الأيام التى تخرج فيها الخيالة المعسكرة فى كمبراى للتدريبات العسكرية ، فيمرون من شارع سانت هيلد جارد. فبينما

خدمنا جالسون فى صف على مقاعدهم خارج سياج الحديقة يحملقون فى أهل كمبراى فى نزهتهم يوم الأحد ، ويبادلون خدمنا التحديق ، كانت ابنة البستانى تلمح من فجوة بين بيتين بعيدين فى شارع المحطة بريق الخوذات ، وعندئذ يسرع الخدم بإدخال كراسيهم ، لأن الجنود عندما يمرون فى شارع سانت هيلد جارد كانوا يملأونه من أحد جانبيه إلى الآخر ، وخيولهم تتراقص ملاصقة للجدران ، وتغرق الأرصفة ، كأنها نهر ضاقت ضفتاه بتدفق الفيضان الطامى :

وتهتف فرنسواز باكية قبل أن تصل إلى السياج لتطل منه عليهم :

— يا للصغار المساكين ! يا للفتيان المساكين ! سيحصدونهم كما يحصد العشب فى المرج : ألا ما أقسى التفكير فى هذا ! كم هو موجع !

وتضع يدها على قلبها ، الذى أحست فيه بألم الفجيعة .

ويسألها البستانى ليستدرجها للكلام :

— منظرهم بديع يا مدام فرنسواز . أليس منظر كل هؤلاء الشبان رائعاً وهم لا يبالون إطلاقاً بما قد يصيبهم ويقضى عليهم ؟

ولا تذهب محاولته هباء ، لأنها تصيح به :

— لا يبالون بحياتهم حقاً ؟ وماذا فى الدنيا نبالى به إن لم نبال بأعمارنا ، وهى المنحة التى لا يمنحها الخالق لنا مرتين أبداً ؟ رباه ! ولكنك محق على كل حال ، أجل إنهم لا يبالون ! فأنا أتذكرهم فى سنة ١٨٧٠ ، فى تلك الحروب التعسة لا يبالى الجنود ولا يخافون

الموت ، فهم كالمجانين ، وعندئذ لا يستحقون الحبل الذى يشنقون به ، لأنهم لم يعودوا بشراً ، بل هم سباع !

ففى عرفها أن تشبيه الرجال بالسباع ليس إطراء لهم ، بل قدح وذم .

ويغدو شارع سانت هيلدجارد شديد الازدحام بحيث لا نتبين من القادم فيه عن بعد ، ولكن الفجوة بين ذينك البيتين فى شارع المحطة كنا نتبين خوذات أخرى تتسابق نحونا وتسطع فى الضوء . وأراد البستانى أن يعرف هل هناك كثيرون غيرهم قادمون ، ثم إنه يشعر بالظمأ والشمس تصب أشعتها فوق رأسه ، وعندئذ تقفز ابنته كأنها استطلاع موفد من مدينة محاصرة ، وتنعطف فى شارع مجاور مجازفة بحياتها مئات المرات ، ثم تعود إلينا ومعها إبريق من نقيع العرقسوس وأنباء مؤداها أنه لم يزل هناك ألف منهم على الأقل يتدفقون بلا انقطاع من اتجاه تيبرزى وميزيجليز . ويكون الخلاف بين فرنسواز والبستانى فى الرأى قد سوى فيبحثان معاً « الخطة » التى ينبغى اتباعها فى الحرب : فيقول البستانى :

— ألا ترين يا فرنسواز أن الثورة أفضل ، لأنه فى هذه الحالة لا يجند إلا الراغبون فى ذلك ؟

— بلى . هذا صحيح . وهو أقرب للسداد ...

وكان من رأى البستانى أنهم سيوقفون القطارات متى نشبت الحرب ، فتقول فرنسواز :

— طبعاً . بالتأكيد ، لكى لا نهرب !

ويوافقها البستانى قائلا :

— أى نعم . فهم دهاة ماكرون :

لأنه كان يعتقد أن الحرب ليست إلا ضرباً من الحيلة تغرر بها الدولة بالشعب ، كما يعتقد أنه ما من رجل فى الدنيا لا يفكر فى الهرب عندئذ لو استطاع ذلك . ولكن فرنسواز سرعان ما تعود إلى عمتى ، وأعود أنا إلى كتابى ، ويحتل الخدم أماكنهم من جديد أمام السياج والبوابة ليرقبوا الغبار وهو يستقر ، كما تستقر وتهدأ الإثارة التى أحدثها مرور الجنود : وبعد استتباب النظام يغمر مد بشرى شوارع كمبراى مع هبوط العتمة ، وأمام كل بيت يقف الخدم ، بل وأحياناً يجلس السادة يحملقون وقد رقشوا حوافى للشوارع كما ترقش الأصداف وأعشاب البحر الشاطئ بعد انحسار نوبة من أشد من المعتاد ..

وفيما عدا مثل تلك الأيام كنت فى العادة أترك وادعاً مخلداً إلى القراءة فى سلام ، ما لم يقطع هذه الخلوة قدوم سوان للزيارة ذات مرة ، وما أدلى به من تعليق على مطالعاتى ، تعليقاً دفع بى إلى أعمال مؤلف جديد بالنسبة لى تماماً ، اسمه برجوت Bergotte ، بحيث تغيرت خلفية أحلامى ، ولم تعد جداراً تزخرفه وتبهجه الأزاهير القرمزية ، بل صارت مدخل كاتدرائية قوطية ، صرت أراها تحف بقامة إحدى النساء اللواتى كنت أحلم بهن :

وكنت قد سمعت كلاماً عن برجوت Bergotte لأول مرة من صديق أكبر منى سناً كنت أكن له إعجاباً شديداً ، وهو يافع نابه اسمه بلوخ Bloch . وكان عندما سمعنى أعترف بإعجابى بليلة أكتوبر قد انفجر مقهقهاً وقال لى محذراً :

— ينبغى أن تتغلب على ميلك إلى ألفريد دى ميسيه Musset ، فهو بيضة فاسدة ، بل من أسوأ الأنواع ، وعينة جديرة بالزراية ، وإن كنت أعترف مع هذا بأنه ، هو والمدعو راسين Racine قد أفلح كل منهما فى نظم بيت من الشعر ليس حسن النغمة فقط ، بل يمتاز أيضاً بأنه لا معنى له . أحدهما « ابنة مينوس Minos وباسيفاى Pasiphaé » : وقد عرض أستاذى العزيز جداً الأب ليكونت Leconte هذين النموذجين ، على أنهما يروقان لآلهة الخالدين : وهاك هذا الكتاب الذى لا يتسع وقتى الآن لقراءته ، وهو كتاب يزكيه هذا الكاتب العملاق : وهو يعد مؤلفه — كما قيل لى — واسمه برجوت كاتباً بارعاً ، بل أبرع من كل رصفائه فى الميدان : ومع أنه يبدى فيه ميلا نحو السلم ، وحنواً على المغفلين الذين يعانون ، وهذا مسلك لا أحبذه ، ولكنه فى نظرى كاتب له اعتباره ، كأنه كاهنة دلف Delphe . فأقرأ هذا النثر الموسيقى الإيقاع . وإن صدق تقدير الأستاذ الكبير الذى نظم بجافات Bhagavat وكلب صيد مجنوس Levrier de Magnus ، فلا بد أن تتذوق أنت أيضاً يا أستاذى طعام آلهة الأولمب وأفراحهم فى هذا الكتاب .

وكانت سخريته تأبى إلا أن يناديني يا أستاذى ، وأنا أيضاً كنت أناديه هكذا : ولكن الواقع أن كلا منا كان يجد متعة فى هذا التكلف، لأننا كنا فى تلك السن التى يحسب الفتى فيها أنه يمنح الوجود لكل ما يطلق عليه اسماً :

ومن سوء الطالع أنى لم أتمكن من تصفية هذه المسألة بمزيد من الأحاديث مع بلوخ ، كان من الممكن فيها أن ألح على مزيد من التفسير لما قاله لى من أن أبيات الشعر البديعة (التى لم أكن أتوقع منها ما هو أقل من اكتشاف الحقيقة) كانت تزداد جمالا إذا كانت لا تعنى شيئاً على الإطلاق ! فقد حدث بعد ذلك أن بلوخ لم يدع إلى المنزل أبداً . مع أنه فى البداية كان يحظى بأحسن استقبال . فقد اكتشف جدى أننى كلما كونت صداقة عميقة ، أو تعلقت بأى واحد من أصدقائى وأتيت به معى إلى البيت ، فلا بد أن هذا الصديق يهودى لا محالة ! وما كان ليعترض على هذا من حيث المبدأ — فصديقه القديم سوان من أصل يهودى — لو لم يكتشف أن اليهود الذين كنت أختارهم لم يكونوا عادة من أحسن نمط . ولذا لم أكن آتى معى إلى البيت بصديق جديد من غير أن يغمغم جدى :

— يا إله آبائى :

من أغنية « اليهودية » أو يغنى :

— يا إسرائيل حطم أغلالى .

وكان بطبيعة الحال يدندن الموسيقى نفسها بدون الألفاظ ،

إلا أنى كنت أخشى أن يعرف أصدقائى النغمة ويستنبطون الألفاظ على إيقاعها :

وقبل أن يراهم ، وبمجرد سماعه اسمهم الذى قد لا يكون فيه ما يشى بأصلهم العبرانى ، لا يخمن الأصل اليهودى لأصدقائى فحسب ، بل إن فى أسرتهم سراً غامضاً غير مشرف يوارونه عن الناس :

— وما اسم صديقك الذى سيحضر هذا المساء ؟

— ديمون Dumont يا جدى ...

— ديمون ! أوه ! كم أرتعد فرقاً من ديمون !

ثم يغنى :

« أيها الرماة ! كونوا على حذر ! » .

« ارقبوا بلا توقف . وبلا صوت ! » :

وبعد بضعة أسئلة بارعة عن أمور تفصيلية يصيح :

— الحذر ! الحذر !

أو إذا كان الضحية نفسه قد حضر ، واضطر إزاء امتحان جدى وتدقيقه أن يقر بأصله ، ينظر جدى إلينا ، ليرينا أنه لم يعد لديه شك ، ويدندن لنفسه بصوت غير مسموع لحن :

« ماذا ؟ أأنت ترشد خطوات

هذا الإسرائيلى الخجول ؟ » .

أو لحن :

« يا وادى حبرون الجميل ، يا حقول الآباء العزيزة » ؛

أو ربما لحن :

« نعم . أنا من الشعب المختار ! » :

ولم تكن بدوات جدى هذه تدل على سوء نية تجاه أصدقائى ؛ ولكن بلوخ كان قد أثار استياء أسرتى لأسباب أخرى ؛ وقد بدأ بمضايقة أبى الذى كان قد رآه يدخل بملابسه مبللة ، وسأله باهتمام شديد :

— لماذا أنت مبتل يا مسيو بلوخ ؟ أثمة تغيير فى الجو ؟ هل هطل المطر ؟ هذا شىء غير مفهوم ، فالبارومتر لم ينبئ بانقلاب الجو ؛

فكان جواب بلوخ لا يعدو قوله :

— لا أستطيع يا سيدى أن أقول لك هل أمطر الجو أم لا ، فأنا أعيش بمعزل تماماً عن الأحداث الطبيعية ، حتى أن حواسى لم تعد تهتم باطلاعى على أنبائها .

وبعد انصراف بلوخ قال أبى :

— يا ولدى المسكين ، صديقك مخبول ، لم يستطع أن يخبرنى كيف حال الطقس ! كأنما يمكن أن يكون هناك ما هو أولى بالاهتمام من ذلك ! إنه معتوه !

وبعد ذلك أثار بلوخ استياء جدتى ، لأنها بعد الغداء قالت إنها تشعر بوعكة ؛ فشهق ومسح دمعة عينيه ! وقالت لى جدتى :

— لا يمكن أن تتصوره مخلصاً ؛ إنه لا يعرفنى : ما لم يكن مخبولا بالطبع !

وأخيراً أزعج البيت كله عندما وصل متأخراً عن موعد الغداء ساعة ونصفاً والوحل يغطيه من رأسه إلى قدميه ، ولم يقدم أقل اعتذار ، بل قال فقط :

— أنا لا أسمح لنفسى أبداً بأن أتأثر إطلاقاً بتقلبات الطقس أو بالتقسيمات التعسفية لما يسمى الزمن . وأحبذ أن يقبل المجتمع على استخدام غليون الأفيون الصينى أو خنجر الملايو ، ولا دراية لى باستخدام هذه الأدوات الضارة التى يستخدمها البورجوازيون ويسمونها المظلة والساعة ؛

وبرغم هذا كله كان من الممكن أن يستمر استقباله فى كمبراى . وهو بالطبع ليس الصديق الذى يمكن أن يختاره لى والداى ، واستقر الرأى فى النهاية على أن دموعه التى ذرفها عند سماع جدتى تشكو الوعكة كانت حقيقية . إلا أنهم كانوا يعرفون إما بالخبرة أو بالغريزة أن انفعالاتنا الباكرة قليلة التأثير على أفعالنا التالية وسلوكنا فى الحياة ؛ وإن مراعاة الواجبات الخلقية ، والولاء لأصدقائنا ، والصبر اللازم لإنهاء أعمالنا ، والطاعة لقاعدة فى الحياة ، أساسها عاداتنا الراسخة التى ننساق فيها انسياقاً أعمى . ولذا كانوا يغفلون أن يكون لى أصدقاء أحسن من بلوخ هذا . أصدقاء لا يمنحوننى من أنفسهم أكثر مما ينبغى ؛ بمقتضى كل قوانين الطبقة الوسطى الخلقية ؛ أصدقاء لا يرسلون



وأخيرا أزعج البيت كله عندما وصل متأخرا عن موعد الغداء ساعة ونصفا والوحل يغطيه من رأسه إلى قدميه .

إلى سلة فاكهة على غير انتظار لأنهم فكروا فىّ فى هذا الصباح بالمصادفة فى إعزاز ، بل علاقتهم فى حدود العرف البورجوازى المألوف الرصين . فمثل هؤلاء الأصدقاء مأمونو الجانب من حيث التأثير على مشاعرى وتصرفاتى . فإنهم حتى لو أسأنا إليهم لا يندفعون فى الإساءة إلينا ، وتظل نفوسهم مرتبطة بنا بحكم الواجب . وكانت عمتى الكبرى تقدم نموذجاً لهذا النوع من الصداقة . فقد تشاجرت مع بنت أخ لها منذ سنوات ولم تكلمها بعدها أبداً ، ومع هذا لم تغير وصيتها التى تركت بموجبها كل ثروتها لابنة أخيها هذه ! لا لشىء إلا لأنها أقرب أقربائها من العصب. ولأن هذا هو « الشىء اللائق ! » .

ولكنى كنت مشغوفاً ببلوخ هذا . ووالداى يريدان لى السعادة . وكانت حيرتى حول جمال الأبيات الخالية من المعنى تقض مضجعى وتقلقنى أكثر من أحاديث بلوخ نفسه ، مهما بدت هذه الأحاديث ضارة فى نظر والدتى . ولذا كان من الممكن أن يستمر حضوره إلى كمبراى لولا أن شيئاً واحداً حدث . ففى نفس تلك الليلة ، بعد العشاء أخبرنى بمعلومة كان لها أكبر الأثر فى حياتى بعد ذلك ، لأنها أسعدتنى حيناً وأشقتنى حيناً آخر ، وهى أنه ما من امرأة فى الدنيا تفكر فى أى شىء اللهم إلا الحب ! وأنه ما من امرأة فى الدنيا لا يستطيع الرجل أن يقهر مقاومتها . وأكد لى أنه سمع من مصدر لا ترقى إليه الشبهات أن عمتى الكبرى نفسها كانت فى شبابها امرأة

لعوباً ، وكانت « محظية » أمرها مشهور بين الناس : ولم أتمالك نفسى من نقل هذه المعلومة الهامة إلى والدى ، فلما حضر بلوخ فى المرة التالية لم يسمح له بالدخول : ولما قابلته فى الشارع بعد ذلك حيانى بكل فتور :::

ولكنه كان صادقاً فيما قاله عن برجوت :

وفى الأيام القلائل الأولى ، لم تكن الأشياء التى سأحبها فى أسلوب برجوت قد لفتت نظرى بعد ، مثل لحن يطن فى رأس المرء وسيخلب لبه يوماً ما ، ولكنه لم يتبلور فى ذهنه بعد . أجل إنى لم أستطع أن أضع من يدى روايته التى كنت أطالعها ، ولكنى حسبت أنى كنت مهتماً بالقصة وحدها ، كما يحدث فى فجر الحب الأول أن نذهب كل يوم لنرى امرأة معينة فى حفل ونحن نحسب أن فتنة الحفل هى التى تجتذبنا . ثم لاحظت العبارات النادرة التى كان يحب أن يستخدمها فى مواضع معينة ، وأن هناك تناغماً موسيقياً خفياً ينساب فى العمل كله ، عندما يتكلم عن « حلم الحياة الباطل » ، و « طوفان الأشكال الجميلة الذى لا ينتهى » و « العذاب المجيد العقيم الذى يصاحب الفهم والحب » وعن « التماثيل المؤثرة التى تجمل على مدى الدهر واجهات الكاتدرائيات الساحرة الجليلة » . ولفتت نظرى قدرته على تلخيص مذهب فلسفى كامل فى تشبيه واحد بديع ؛ وكأنى أسمع نغمات مزهر حنون تتردد فى سمعى ، وقد أضاف لها هذا التشبيه موجة أثيرية رائعة . وكانت ثالثة فقرات برجوت التى

انتقيتها قد ملأتنى بفرح لم أشعر به فى أول فقرة : فرح كانت له نشوة لا تقدر فى أعماقى ، نشوة اكتسحت فى طريقها كل التقسيمات المصطنعة بين العقل والمشاعر . لأن ما حدث هو هذا ، فقد تذوقت فى هذه الفقرة نفس طعم العبارات غير المألوفة ، ونفس تفجرات الموسيقى ، والفلسفة المثالية التى وجهتها لى العبارات السابقة من غير أن أتنبه إلى أنها مصدر لذتى ، إلا أننى الآن لم أعد أحس أنى أطالع فقرة معينة فى عمل من تأليف برجوت ، يرسم لوحة ثنائية الأبعاد على سطح ذهنى ، بل أحسست أنى أطالع « الفقرة المثلى » لبرجوت ، الفقرة الشائعة المشتركة فى كل كتاب من كتبه ، وقد اندمجت فيها كل الفقرات السابقة المماثلة لها ، فأضاف ذلك إلى الكتاب عمقاً وضخامة اكتسب منهما إدراكى مزيداً من النماء .

ولم أكن بحال من الأحوال المعجب الوحيد ببرجوت ، لأنه كان أيضاً الكاتب الأثير لدى صديقة لوالدتى ، وهى سيدة متبحرة فى الأدب . وكذلك كان الدكتور دى بولبون Du Boulbon يبقى كل مرضاه فى حجرة الانتظار ريثما يفرغ من أحدث كتاب لبرجوت ! ومن عيادته ، ومن بيت فى بستان قرب كمبراى ، تناثرت البذور الأولى لهذا التذوق لبرجوت ، وهو ذوق كان نادراً يومئذ إلا أنه صار الآن ذائعاً فى كل أوروبا وأمريكا ، حتى أصغر القرى . وكان ما يعشقه الدكتور دى بولبون وصديقة والدتى قبل كل شيء فى جميع ما يكتبه برجوت هو [illegible] ، وهو السباب

موسيقاه ، وعباراته العتيقة الطراز ، وعبارات أخرى خاصة به يحسن وضعها بحيث تشف عن ذوقه الخاص . وكذلك هذا النوع الخاص من الحزن ، وتلك النبرة الخشنة التى تكاد تصل خشونتها إلى الحدة والجفوة . وما من شك أنه هو نفسه كان يدرك أن هذه هى مواضع قوته وجاذبيته الخاصة . ففى كتبه الأخيرة إذا تعرض لحقيقة عظيمة أو جرى ذكر كاتدرائية تاريخية ، يقطع سياق القصة وينساق فى الحديث عنها كأنما هو فى ابتهالة مطولة . وكان فى كتبه الأولى لا ينساق مع هذا التدفق ، بل يظل إحساسه كامناً كما تكمن تيارات تحت سطح الماء لا تنم عنها إلا تموجات صغيرة على وجه التيار . ولكن ذلك كان يجعل نثره أكثر موسيقية وإيحاء إلى ما يواريه عن العيون ؛ لأن القارئ لم يكن يستطيع أن يحدد أين يبدأ التيار المستتر تحت السطح ولا أين ينتهى . ولكن هذه الفقرات التى ينساق فيها مع مشاعره كانت تسحرنا أيضاً . وكنت أنا شخصياً أحفظها عن ظهر قلب ، بل إننى كنت أشعر بخيبة أمل عندما كان يستأنف سياق سرده القصصى ؛ لأنه كلما تحدث عن شىء كان جماله حتى هذا الوقت لم يتكشف لى ، مثل غابات الصنوبر أو العواصف الثلجية ، أو نوتردام باريس ، أو أتالى Athalie أو فيدر Phédre ، وبتشبيه من تشبيهاته إذا به يفجر جمال هذه الروائع المجهولة ويغمرنى بعبيرها وجوهرها الخفى . وهكذا اكتشفت أن فى الكون عناصر لا تحصى تعجز حواسى الضعيفة عن تمييزها ، لولا أنه فتح عينى

عليها ، وصرت أتمنى أن أعرف رأيه وتشبيهه لكل شىء فى هذا العالم بأسره ، ولاسيما رأيه وتصويره للأشياء التى قد يتاح لى يوماً ما أن أراها بنفسى ، ومن بينها أشهر صروح فرنسا التاريخية ، وبعض مناظر البحر ، لأن كتابته عنها أشعرتنى أنه يراها ثرية بالمعنى وبالجمال . ولكن وا أسفاه ! كل شىء فى العالم تقريباً كان رأيه فيه مجهولا لى . وكنت واثقاً أن رأيه خليق أن يختلف كثيراً عن رأيى ، لأن رأيه نابع من مستوى كنت أحاول بكل جهدى أن أرقى إليه ، وأعتقد أن آرائى لابد أن تكون هراء بالقياس إلى هذا الفكر الكامل ، ولو اتفق لى أن وجدت فى ثنايا كتبه رأياً يطابق رأيى لامتلأ قلبى حبوراً وعرفاناً وزهواً ، كأنما إله من الآلهة قال : إنى وفقت إلى الصواب وإلى الحق والجمال . وكان يحدث بين حين وآخر أن تعبر إحدى صفحات برجوت عن تلك الأفكار بالضبط التى كانت تعن لى فى الليل ، عندما أعجز عن النوم ، وأحاول الكتابة إلى جدتى وأمى ، فأجد فى هذه الصفحة ما يصلح شعاراً أقتبسه وأضعه على رأس رسالتى . وكذلك أيضاً فى السنوات التالية عندما بدأت أؤلف كتاباً ، ووجدت حصيلة عباراتى غير كافية حتى لقد فكرت فى الكف عن مواصلة الكتابة ، فكنت أجد ما يعادل عباراتى فى كتابات برجوت . ولكننى لم أكن ألتذ بعباراتى وكنت ألتذ بعباراته هو عندما أطالعها فى صفحاته ، مع أنها مطابقة تماماً لما كتبته وأنا أجتهد أن أجعل جرسها يبدو نابضاً بالحياة ، ولكنى لم أكن أسأل

نفسي أبداً هل يتسنى لكتاباتى أن تروق القراء ، وهى تحاكى برجوت : إلا أنى لم أستطع أبداً أن أتصور كتابة تخالفها ، ولم أكن أحب قط إلا هذا النمط من الأسلوب . وهكذا كانت محاولاتى تلك آيات حب لبرجوت ، وهو حب لم يسبب لى لذة أبداً ، إلا أنه مع هذا كان عميقاً حاداً . ولذا كنت إذا عثرت على عبارات مماثلة لها فى كتابات سواه ، كنت أجدها خالية من مشاعر العذاب والشغف التى أحسها وأنا أطالعه ، وأحس جمالها ، على نحو ما يفعل الطاهى الذى يجد نفسه ذات ليلة غير مطالب بإعداد العشاء لأحد ، فيقبل على ما طهاه بشهية ونهم ، لا لشيء إلا لأنه وجد متسعاً من الوقت فى هذه الليلة لذلك .. وقد حدث أنى وجدت ذات يوم فى أحد كتب برجوت مزحة عن خادمة عجوز فى أسرة ، أضاف إليها أسلوبه سخرية عظيمة ، ولكن مضمونها ولبابها ما كنت أقوله فى كثير من الأحيان لجدتى عن فرنسواز . وفى مرة أخرى اكتشفت أنه وجد ملاحظة مماثلة لما ذكرته أنا عن صديقنا المسيو لجراندان Legrandin جديرة بالذكر فى كتبه التى هى مرآة الحقيقة الأبدية فى نظرى (مع أن ملاحظاتى عن فرنسواز والمسيو لجراندان كنت مستعداً بكل صدق أن أضحى بها لأجل خاطر برجوت على اعتقاد أنه خليق أن يجدها فجة) ، عندئذ تبين لى أن وجودى المتواضع ليس منعزلا تماماً عن دنيا الحقيقة الأبدية التى يرتادها برجوت كما كنت أظن ، بل إنهما فى بعض الأحيان يتداخلان أو يتماسان على الأقل. وأكسبنى

هذا ثقة وبهجة وحبوراً ، حتى أننى بكيت وكأننى مستلق فى أحضان أب وجدته بعد طول غياب !

ومن هذا الكتاب استقر فى نفسى انطباع أن برجوت شيخ نحيل البدن مخيب الآمال ، فقد أولاده ، ولم يجد قط سبيلا إلى العزاء . ولذا كنت أطالع أو أغنى عباراته فى ذهنى ، وترن أبسط عباراته فى أذنى فى رهافة خارقة وبنبرة حب غريبة . وكنت أحب فلسفته أكثر مما أحب أى شيء فى العالم ، ونذرت نفسى لها كى أعيشها طول عمرى . وصرت متلهفاً فى صبر نافد على بلوغ السن التى أتهيأ فيها لدخول فصل فى مدرستى يسمونه فصل الفلسفة . ولم أكن أتمنى عندئذ إن أصنع شيئاً سوى أن أترك قياد نفسى لفلسفة برجوت . ولو قيل لى أن الفلاسفة الذين سأدرسهم هناك لا يشبهونه فى شيء ، لتملكنى اليأس ، كيأس العاشق الشاب الذى أقسم على الوفاء الأبدى لمحبوبته الأولى إذا ما حدثه صديق ناضج عن العشيقات الأخريات اللواتى سيحببن وينالهن فى مقبل الأيام !

وذات يوم أحد ، فيما أنا أقرأ فى الحديقة ، حضر سوان لزيارة والدى : وسألنى :

— ماذا تقرأ ؟ هل لى أن ألقى نظرة ؟ عجباً ! إنه برجوت ! من الذى حدثك عنه ؟

فأجبته : إن المسئولية فى هذا تقع على بلوخ .

فقال سوان :

— آه . نعم . ذاك الفتى الذى رأيته هنا ذات مرة ، ويبدو مثل صورة السلطان محمد الثانى من ريشة بللينى Bellini . إن وجه الشبه بينهما عجيب : نفس الحاجبين المقوسين والأنف المعقوف ، وعظام الخدين البارزة . وعندما تنبت لحيته سيغدو محمداً الثانى بلحمه ودمه . ولكن ذوقه حسن على كل حال ، لأن برجوت مخلوق ساحر !

ولما تبين سوان مبلغ إعجابى ببرجوت ، إذا به وهو الذى لا يتكلم أبداً عن الأشخاص الذين يعرفهم ، يخالف عادته هذه إكراماً لى ويقول :

— إنى أعرفه جيداً . وإن أردت أن يكتب لك بضع كلمات على صفحة عنوان الكتاب ، رجوته أن يصنع هذا من أجلك !

ولم أجسر على قبول هذا العرض ، ولكنى أمطرت سوان بالأسئلة عن صديقه :

— هلا أخبرتنى — من فضلك — من هو ممثله المفضل ؟

— الممثل ؟ لا ! لا معرفة لى بهذا ، ولكنى أعرف عنه أنه لا يعدل بالممثلة برما Berma أحداً على المسرح ، فهو يضعها فوق الجميع ، أرأيتها أنت ؟

— لا يا سيدى : والداى لا يسمحان لى بالذهاب إلى المسرح !

— هذا شيء يؤسف له : ينبغى أن تلح عليهما ، لترى برما فى

فيدر أو فى « سيد » Cid : إنها طبعاً ليست إلا ممثلة : ولكنى لا أومن كثيراً كما تعرف بالترتيب التنازلى للفنون :

وفيما هو يتكلم لاحظت ما سبق أن لفت نظرى فى محادثاته مع شقيقتى جدتى ، وهو أنه كلما تحدث عن أمور جدية ، أو استخدم تعبيراً ينطوى على رأى محدد فى موضوع هام ، حرص على تمييز هذا التعبير أو هذا اللفظ بنبرة صوتية خاصة ، كأنه يضعه بين قوسين ، ويبدى حرصه أيضاً على التبرؤ من أى مسئولية شخصية عنه ، وكأنه يقول « الترتيب التنازلى » كما يسميه الأغرار المغفلون : ومع ذلك بدا لى غريباً أن يستخدم هذا اللفظ « الترتيب التنازلى » ؟ وبعد لحظة أردف :

— إن تمثيلها سيشعرك بالنبل الذى توحيه إليك وكأنه رائعة من روائع الفن العالمى ، مثل (وسكت قليلا وبدأ يضحك) مثل ... « ملكات شارتر » :

وحتى ذلك اليوم كنت أظن فزعه من إبداء رأى جدى سمة باريسية شديدة المباينة للقطعية الريفية التى تتسم بها شقيقتا جدتى ، وكنت أظن ذلك أيضاً من سمات النظرة إلى الحياة فى الأوساط التى يرتادها سوان ، حيث يسود الاهتمام الشديد بالحقائق الصغيرة المحددة ، كرد فعل طبيعى للحماسة الغنائية العامة فى الأجيال السابقة : ولذا صارت الأحكام العامة والجمل الطنانة ممنوعة . ولكنى فى هذه اللحظة وجدت نفسى مذهولا بعض الشيء من هذا الموقف الذى

يتخذه سوان كلما واجه للعموميات . فكان يبدو عليه أنه غير مستعد لإبداء أى رأى ، ولا يكون على سجيته إلا حينما يتاح له أن يبدى — بدقة مفرطة — ملاحظة حول إحدى التفصيلات المحددة غير ذات الأهمية ، ولا يفطن إلى أنه عندئذ يبدى رأياً على كل حال ، ويدل على أن هذه التفصيلات المحددة غير الهامة لها أهميتها عنده . وفكرت مرة أخرى فى عشاء تلك الليلة حينما كنت تعساً جداً لأن ماما سوف لا تصعد إلى حجرتى ، وعندما دمغ الحفلات الراقصة التى تقيمها أميرة ليون Léon بأنها عديمة الأهمية . ومع ذلك كان يكرس حياته لمثل هذه التلهية . فلأى حياة أخرى إذن كان يخصص أداءه لواجب الكلام بكل جد عندما يبدى رأيه فى أى شىء ، ومتى إذن يكف عن الإقبال على شواغل دنيوية كان لا يخفى ازدراءه لها ؟ ولاحظت أيضاً على طريقة حديثه معى عن برجوت شيئاً أنصفه عندما أقول إنه ليس وقفاً عليه ، بل يشاركه فيه جميع المعجبين بذلك الكاتب فى ذلك الحين : أو على الأقل يشاركه فيه الدكتور بولبون وصديقة أمى . فهما أيضاً يقولان عن برجوت مثلما قال عنه سوان :

— إن له ذهناً ساحراً ، شديد التفرد ، وله طريقته الخاصة فى التعبير التى قد تكون متكلفة بعد الشىء ، ولكنها لطيفة للغاية . ولست بحاجة إلى البحث عن اسمه على صفحة العنوان ، لأنك تعرف عمله على الفور :

ولكن ما من أحد منهم ذهب إلى حد القول بأنه كاتب عظيم

ذو موهبة عظيمة ، بل ولم ينسبوا له أى موهبة على الإطلاق : لم يقولوا هذا لأنهم لم يفطنوا له . فنحن شديدو البطء فى التعرف على ملامح كاتب جديد من النوع الذى يوصف بأنه ذو موهبة عظيمة فى متحف أفكارنا العامة : ولعل السبب فى هذا أن ملامحه جديدة فى بابها ، فلا نكتشف فيها وجه شبه بما تعودنا أن نسميه موهبة . ولذا نستخدم لفظاً آخر ، كالأصالة ، والسحر ، والرقة ، والقوة . وفى يوم من الأيام نجمع حصيلة هذه الأوصاف ، ونجدها ببساطة تعنى الموهبة :

وسألت المسيو سوان :

— أثمة كتب كتب فيها برجوت عن برما ؟

— أظن ذلك . فى مقاله الصغير عن راسين ، ولكن لا بد أنه الآن قد نفدت طبعته . ولكن ربما كانت هناك طبعة ثانية منه . سأبحث عنها . وسوف أسأل برجوت نفسه على كل حال عن كل ما تريد معرفته عندما يأتى فى المرة القادمة ليتعشى معنا . وهو لا يتخلف فى أى أسبوع عن الحضور على امتداد السنة . فهو أعز أصدقاء ابنتى ، ويخرجان كثيراً معاً للتفرج على المدن القديمة والكاتدرائيات والقلاع :

ولما كنت لم أزل جاهلا تماماً بالتفاوت بين درجات الطبقات الاجتماعية ، فقد كان قرار والدى باستحالة استقبال زوجة سوان وابنته لمدة طويلة جداً ، قد ترك لدى انطباعاً مفاداً بأن فجوة هائلة

تفصلهما عنا ، فزاد ذلك كثيراً من مقامهما وأهميتهما فى نظرى ؛ وأسفت لأن أمى لم تكن تصبغ شعرها ولا تحمر شفتيها على نحو ما سمعت جارتنا مدام سازيرا تقول: إن مدام سوان تصنع ذلك، لا إرضاء لزوجها ، بل إرضاء للمسيو دى شارلى . وأحسست أننا لا بد أن نكون فى نظرها موضع ازدراء ، وقد أحزننى هذا كثيراً، ولاسيا بالنسبة للابنة ،وهى فتاة صغيرة جميلة جداً كما سمعت، وكانت ممن كنت أحلم بهن كثيراً ، وأتخيلها دائماً بنفس الملامح والمظهر اللذين كنت أخلعهما عليها بصورة عشوائية تعسفية ، ولكن لهما دائماً نوعاً من الفتنة الساحرة ، ومنذ سمعت بعد ظهر هذا اليوم أنها تعيش فى ظروف نادرة سعيدة ، وهى مغمورة فى خيالى ببحر من الامتيازات ، حتى أنها لو سألت والديها هل سيأتى الليلة أحد للعشاء معنا ؟ جاءها الجواب فى لفظ من مقطعين يحفهما ضياء سماوى ؛ وسمعت اسم ذلك الضيف الذهبى الذى لم يكن فى نظرها أكثر من صديق الأسرة القديم « برجوت » ، وأن الحديث الحميم على المائدة ـ الذى يقابل بالنسبة لى حديث جدتى ـ هو ما يخرج من فم برجوت ؛ متحدثاً عن الموضوعات التى لم يتناولها فى كتبه ، وكنت أتوق إلى سماعها منه . وكفاها حسن طالع أنها كانت تذهب لزيارة المدن العتيقة وهو سائر إلى جوارها ، مثل الأرباب الذين كانوا يهبطون فيما مضى إلى العالم من سماواتهم ليعيشوا حقبة مع البشر أبناء الفناء : عندئذ أدركت القيمة النادرة للكائنات التى من قبيل الآنسة سوان ، وفى

الوقت نفسه أدركت أيضاً إلى أى حد لا بد أن أبدو جلفاً فى نظرها وجاهلا فجاً . وشعرت بسعادة مصادقتها وإن ذلك مستحيل ، فاجتمع فى وجدانى النقيضان من الشوق ومن القنوط : وصرت بدءاً من تلك الساعة كلما فكرت فيها رأيتها واقفة أمام مدخل كاتدرائية تشرح لى معنى كل تمثال ، وتقدمنى إلى صديقها برجوت بابتسامة كانت فى نظرى أسمى تزكية وإطراء . وإذا سحر كل التخيلات التى توحى إلى بها ما يجول فى خاطرى من أفكار عن الكاتدرائيات ، وسحر جبال ووديان جزيرة فرنسا وسهول نورمانديا، وقد أشاعت البهاء والجمال على الصورة التى تكونت فى ذهنى عن الآنسة سوان : ولم يعد ينقصنى إلا أن أعرفها وأحبها . ومتى اعتقدنا أن إنساناً من البشر له مشاركة فى الحياة المجهولة لتلك المخلوقة بحيث يمكنه أن يمهد لنا لديها ، صار عزيزاً علينا . والحق أن الآنسة سوان صارت ذات أهمية عظمى فى نفسى ، وهى مقياس ما يخامرنى من اهتمام أو عدم مبالاة بسائر الناس ؛ ونلاحظ أنه حتى أولئك النسوة اللواتى يزعمن أنهن يحكمن على الرجل بمظهره الخارجى فحسب ، إنما يرين فى هذا المظهر انبعاثاً لأسلوب خاص من الحياة . وهذا هو السبب فى أنهن يقعن فى هوى جندى أو رجل مطافئ ، بحيث تغنيهن كسوته الرسمية عن الاهتمام بوجهه اهتماماً خاصاً . ويقبلن هذا المحبوب وهن يحسبن أن تحت درع صدره قلباً يختلف عن سائر القلوب ، فهو أكثر شهامة ، وحباً للمغامرة ، وأرق مشاعر ؛ وهكذا يتاح لك



والحق أن الآنسة سوان صارت ذات أهميــة عظمى فى نفسى ، وهى مقيــاس ما يخامرنى من اهتمام أو عدم مبالاة بسائر الناس .

شاب أو ولى عهـد أن يسافر إلى الأقطار الأجنبية ويحقق غزوات عاطفية هائلة ، وهو يفتقر فى الواقع إلى تلك الملامح الكلاسيكية الجميلة المنتظمة التى لا غنى عنها لواحد من غمار الناس .

وبينما أنا أطالع فى الحديقة – وهذا شىء لا يمكن أن تفهم عمتى الكبرى إقدامى عليه اللهم إلا فى يوم الأحد ، لأنه يوم لا يجوز فيه الاشتغال بأى شىء جدى ، بل إنها فى هـذا اليوم تطرح حياكتها جانباً (مع أنها فى أيام الأسبوع العادية خليقة أن تقول :

– كيف تستبيح لنفسك التلهى بقراءة كتاب ، واليوم ليس الأحد كما تعلم ! وتضغط على لفظ « التلهى » بصورة تجعله يعنى كل ما هو طفلى ومضيعة للوقت) . فى هذا الوقت من بعد ظهر يوم الأحـد تكون عمتى ليونى منصرفة إلى الثرثرة مع فرنسواز إلى أن يحين وقت وصول « إيلالى » . وقد تقول لها إنها رأت لتوها مدام جوبيل تمر تحت النافذة « بدون مظلة ، لابسة ثوباً من الحـريـر فصلته منـذ أيام فى شـاتودان Chateaudan . فإن كانت تنـوى الذهاب بعيداً قبل صلاة المساء فقد يغرقها المطر » .

وكانت فرنسواز عندئذ تقول لها : « ربمـا » .. (وهـذا اللفظ قد يعنى فى لغة فرنسواز أيضاً « ربمـا لا ») لأن فرنسواز لا تحب أن تنفى إمكان البديل الحسن أو الاحتمال الأفضل ، بطبيعتها المتفائلة .

وتمضى عمتى فى الكلام وهى تدق بأصبعها على جبهتها :

– وهذا يذكرنى بأنى لم أسمع من الحد إن كانت قد وصلت

إلى الكنيسة هذا الصباح قبل رفع القربان أم لا ؟ ويجب أن أتذكر كى أسأل إيلالى عن ذلك ... يا فرنسواز ! انظرى إلى هذه السحابة السوداء خلف البرج ، وكيف أن الضوء هزيل جداً على رقائق سقفه . تأكدى أن المطر سينهمر قبل انقضاء هذا النهار ... فلا يمكن أن يدوم الحال على هذا النحو ، فقد كان الحر شديداً : وكلما عجل المطر كان هذا أفضل. فماء فيشى لن يهبط من معدتى إلا إذا انفجرت العاصفة !

وكانت رغبتها فى سرعة هضم ماء فيشى أهم لديها من الخوف على ثوب مدام جوبيل من أن يفسده المطر !

ــ جائز جداً :

ــ وتعرفين يا فرنسواز أنه لا عاصم من المطر ولا وقاية منه فى الميدان المكشوف :

وفجأة يكفهر وجه عمتى وتقول :

ــ ماذا ؟ الساعة الثالثة ! ولكن صلاة المساء لا بد أنها بدأت الآن ، وأنا قد نسيت تناول الببسين ! الآن عرفت لماذا ظل ماء فيشى جاثماً على معدتى :

وانقضت يدها بسرعة على كتاب للصلوات مغلف بالمخمل القرمزى ، وله أقفال مذهبة ، ولشدة عجلتها أوقعت منه نثاراً من الصور الصغيرة التى اصفر ورقها ، تستخدمها علامات تبين لها أماكن أيام الأعياد الكنسية . وبينما عمتى تزدرد حبات الببسين راحت

تتمتم بأقصى سرعة كلمات النص المقدس ، وقد اكتنفت معانيه فى ذهنها سحابة من الشك فى جدوى تعاطى الببسين وقد تناولته بعد ماء فيشى بفترة طويلة :

ــ الساعة الثالثة ! الوقت يطير بسرعة لا يصدقها العقل .

وسمعت طرقة صغيرة على النافذة ، كأنما أصابتها قذيفة ، ثم أعقب هذا صوت تساقط خفيف ، كأنما هو تساقط حبات من الرمل تناثرت من النافذة العليا مباشرة . ثم انتشر التساقط ، وانتظم فى إيقاع سريع ، إنه المطر !

ــ هاك يا فرنسواز ! ماذا قلت لك ؟ ما أشد انهماره ! ولكن إخالنى سمعت جرس بوابة الحديقة . اذهبى لترى من الذى خرج فى هذا الطقس ...

وذهبت فرنسواز ثم عادت :

ــ إنها مدام أميديه Amédée (جدتى) . قالت : إنها ذاهبة لتتمشى . والمطر شديد على كل حال .

فقالت عمتى وهى تنظر إلى السماء :

ــ هذا لا يدهشنى . وقد كنت أقول دائماً إنها ليست على الإطلاق مثل سائر الناس . وإنى لسعيدة أنها هى التى فى الخارج تحت هذا المطر المنهمر ، لا أنا !

فقالت فرنسواز ، مستبقية إبداء رأيها فى اختلال عقل جدتى بصراحة إلى أن تصير وحدها مع بقية الخدم

— مدام أميديه دائماً على نقيض سائر الناس !

وتنهدت عمتي وقالت :

— لقد انتهى توزيع البركة! ولن تحضر الآن إيلالى . ولا بد أن الطقس هو الذى روعها وحال دون حضورها .

— ولكن الساعة لم تدق الخامسة بعد يا مدام أكتاف : إنها الرابعة والنصف فقط .

— الرابعة والنصف فقط . وها أنا مضطرة لإزاحة الستائر الصغيرة لأحظى بشعاع صغير من الضوء : فى الرابعة والنصف ! آه يا عزيزتى فرنسواز. لا بد أن الله غاضب علينا . فالناس أسرفوا فى الشر هذه الأيام . وكما كان يقول المرحوم أكتاف إننا نسينا الرب ، ولذا ينتقم منا .

وعلت وجه عمتي حمرة : لقد أقبلت إيلالى : ومن سوء الطالع أنها ما كادت تدخل إلى حجرة عمتي حتى جاءت فرنسواز مرة أخرى ، وبابتسامة ذات معنى كانت تشارك بها فى فرحة عمتي بالنبأ الذى ستسوقه إليها . قالت لها ، مرددة كلمات الزائر الجديد كما قالها لها بالحرف :

— إن سيادة الخورى يسعده ألا تكون مدام أكتاف مخلدة الآن للراحة ، ويمكنها استقباله : فسيادته لا يريد إزعاج مدام أكتاف : وسيادته منتظر بالطابق السفلى ، وقد طلبت منه دخول حجرة الجلوس .

ولو أردنا الحقيقة ، لم تكن زيارات الخورى تسبب لعمتي كل هذه السعادة الغامرة التى تظنها فرنسواز . وما كانت ترى فرنسواز من واجبها إظهاره من الفرح بقدومه لم يكن مطابقاً لشعور عمتي العليلة . وهذا الخورى (وهو رجل ممتاز آسف الآن لأننى لم أكن أكثر من التحدث معه . ولئن لم يكن على دراية بالفن إطلاقاً ، إلا أنه كان واسع المعرفة بأصول الألفاظ وتاريخها) كان يضجرها بشروحه المتكررة دائماً عن تاريخ كنيسته وأبروشيته ، وهو موضوع كان يعد لتدوين كتاب عنه . أما إذا تصادف حضوره فى نفس وقت حضور إيلالى ، فقد كان ذلك يسخط عمتي جداً . فقد كانت تحب أن تستبقى إيلالى أطول مدة ممكنة ، ولكنها لم تكن لتجرؤ على صرف الخورى عن الزيارة ، وتكتفى بالإيماء إلى إيلالى بالبقاء بعد انصرافه ، كى تحظى بحديثها وحدها بعض الوقت .

وقالت عمتي للقس :

— ما هذا الذى سمعته يا أبانا من أن رساماً نصب لوحة الرسم فى كنيستنا لينقل رسم إحدى نوافذها ؟ إنى — على تقدمى فى العمر — لم أسمع قط بشىء مثل هذا من قبل ! ما الذى سيحدث فى العالم بعد هذا يا ترى ؟ وسينقل أقبح ما فى رسوم كنيستنا أيضاً !

— أنا لا أستطيع أن أجزم بأن هذه النافذة هى أقبح النوافذ . أجل هناك أشياء معينة فى سانت إيلير تستحق الزيارة ، ولكن هناك أيضاً فى بيعتى الفقيرة أشياء أخرى صارت الآن قديمة جداً . وهى

البيعة الوحيدة التى لم يتم ترميمها قط . والله يعلم أن مدخلنا قديم الطراز قذر ، ولكنه ذو طابع مهيب . خذى مثلا صورتى إستر Esther – مع أنى غير مستعد لشرائهما بصلديين ! – ولكن الخبراء يجعلونهما تاليتين فى القيمة لصور سنس Sens . وقد لاحظت أن بعض تفصيلاتهما واقعية جداً وتدلان على قوة ملاحظة أصيلة . ولكن لا تحدثيني عن النوافذ . أمن سداد الرأى أن تكون النوافذ بحيث تصد عن الداخل كل ضوء النهار ، بل وتزيغ العيون بما تلقيه من بقع الألوان على أرضية ليس فيها لوحان على مستوى واحد ! ومع هذا يرفضون إجابتى إلى تجديد الأرضية ، لأنها – من فضلك – أحجار قبور رؤساء دير كمبراى ودوقات جيرمنت guermantes والكونتات القدماء لبرابان Brabant ، وهم الأجداد المباشرون لدوق جيرمنت الحالى ، ولزوجته الدوقة أيضاً ، لأنها كانت قبل زواجها سيدة من آل جيرمنت ، وقد تزوجت ابن عمها .

وكانت جدتى ترفض دائماً وبإصرار الاهتمام بالأشخاص ، مما أدى بها إلى الخلط بين أسمائهم وألقابهم . فإذا ذكر أحد أمامها الدوقة دى جيرمنت خطر لها أنها قطعاً قريبة مدام دى فيلباريسى Villeparisis ، وعندئذ تنفجر الأسرة كلها ضاحكة ، وتحاول هى تبرير كلامها فتشير إلى دعوة إلى عماد أو جنازة وتقول :

– أنا متأكدة أن هذا الحفل كان به أحد من آل جيرمنت .

وعندئذ أنضم إلى الآخرين ضدها وأرفض الموافقة على أنه

يمكن أن توجد أى علاقة بين زميلتها بالمدرسة وبين سليلة جنيفييف دى برابان .

ويواصل الخورى كلامه :

– انظرى إلى روسانفيل Roussainville . إنها لا تعدو الآن أن تكون أكثر من أبروشية للفلاحين : مع أن هذا المكان كانت له حتماً فى الزمان الخالى أهمية كبيرة ، لأنه كان مركز تجارة قبعات اللباد والعباءات . وكنيسة هذا المكان لها نوافذ بديعة ، تكاد كلها أن تكون عصرية ، بما فيها النافذة التى عليها رسم دخول لوى فيليب Louis - Philippe إلى كمبراى . وهى لوحة كانت كمبراى أولى بها ، وهذه النوافذ لا تقل فى القيمة عن نوافذ شارتر الشهيرة : وبالأمس فقط قابلت شقيق الدكتور برسبييه Percepied الذى يهتم بهذه الأمور ، وقال لى إنه يعدها من أجمل الأعمال . وقد قلت لذلك الفنان ، الذى وجدته مهذباً جداً ، ما الذى وجدته خارقاً للمعتاد فى هذه النافذة ، التى لا تتميز فى نظرى إلا بأنها أدكن وأقتم من بقية النوافذ ؟

وقالت عمتى فى نبرة مجهدة ، لأنها شعرت باقتراب « التعب » :

– لو أنك كلمت الدوق فى هذا الموضوع ، فلن يضن عليك بنافذة جديدة .

فأجابها الخورى :

– ولكن فخامته شخصياً هو الذى احتج بشدة على التعرض

لهذه النافذة ، مؤكداً أنها تمثل جيلبير الشرير Gilbert ، سيد جيرمنت والسليل المباشر لجنيفييف دى برابان ، التى كانت ابنة لآل جيرمنت ، وتمثله الصورة وهو يتلقى الغفران من سانت إيلير :

— ولكن ما صلة سانت إيلير بذلك ؟

— آه . أنت إذن لم تلاحظى قط ، فى ركن النافذة سيدة فى ثوب أصفر ؟ إنها سانت إيلير ! وفى أنحاء أخرى من الإقليم يحرفون اسمه تحريفات مختلفة . وهذه عادتهم هنا فى الأسماء : خذى مثلا اسمك يا عزيزتى إيلالى . إن قديستك وسميتك اسمها باللاتينية «سانكتا إيلاليا» . أتعرفين ماذا صار اسمها فى برغنديا ؟ سانت إلوا Eloi : وهو اسم رجل ، وهكذا تحولت السيدة إلى رجل : وهكذا يا عزيزتى إيلالى سيجعلون منك رجلا بعد موتك !

— إن أبانا يحب المزاح !

— أما شقيق جيلبير ، شارل المتلعثم ، فكان أميراً تقياً ، إلا أنه فقد فى باكورة حياته أباه بيبان المجنون Pepin الذى مات متأثراً بمرضه العقلى ، فمارس جيلبير سلطته العليا بكل غطرسة من لم يعرف التأديب والانضباط فى حداثته ، حتى أنه كلما رأى فى البلدة رجلا لا يتذكر وجهه ، أمر بقتل كل من فى هذا المكان عن آخرهم ؛ فأحرق كنيسة كمبراى الأولى ، ولم يتبق منها أى أثر الآن سوى السرداب ، وحارب شارل وهزمه بمساعدة وليم الفاتح . وتحية لسانت إيلير بعد النصر شيد هذه الكنيسة القائمة الآن . إلا أن أهل

كمبراى لم يغفروا له سيئاته ، وقطعوا رأسه عند خروجه من القداس ؛ ولعل أبدع شىء فى كنيستنا هو المنظر الرائع من أعلى برج الناقوس ؛ وأنا طبعاً نظراً لحالتك الصحية لا أنصحك بالصعود إلى قمته على تلك الدرجات السبع والتسعين ، وهو بالضبط نصف عدد درجات كاتدرائية ميلانو الشهيرة . وصعودها مجهد للشخص القوى النشط ، ولا سيما أن الصاعد لا بد أن يحبو على يديه وركبتيه ، حتى لا يحطم جمجمته ، ولا بد له أن يجمع كل عناكب السلم على ثيابه . وعلى كل حال لابد لك أن تلتفى جيداً بالدثار لشدة تيار الهواء عندما تصلين إلى القمة .

ولم يلاحظ ضيق عمتى لمجرد تفكيره فى إمكان صعودها هذا البرج ، وهى التى لا تبرح حجرتها . واستطرد :

— بل إن بعض الناس أكدوا لى أنهم شعروا ببرودة الموت فى هذا الموضع . ومع هذا يحضر فى كل يوم أحد عدد من وفود النوادى والجمعيات من أماكن بعيدة لكى يعجبوا بهذه البانوراما الجميلة ، ويعودون دائماً إلى بيوتهم مسرورين بما رأوا . ويوم الأحد القادم ، إذا كان الطقس ملائماً سيأتى حتماً عدد كبير من الناس لقضاء أيام الابتهال الثلاثة . ولا بد لك أن تعترفى بأن المنظر من هناك أشبه بقصة خرافية . وفى الأيام الصافية السماء يمكن أن يرى الناظر من فوق البرج كل المساحة الممتدة حتى فرنى Verneuil . ويمكنك أيضاً أن ترى فى نفس الوقت أماكن من المألوف أن ترى أحدها دون

الآخر . مثل فيفون Vivonue وخنادق سانت أسيز ، اللذين يفصلهما ساتر من الأشجار العالية . فالإقليم كله منبسط أمامك من هذا الارتفاع كأنه خريطة . وكل ما هناك أنك لا تستطيعين من هذا الارتفاع تبين المياه ، وتحسبين المجرى شقاً ، كأنه شق فى رغيف لم يزل متماسكاً بعد قطعه بالسكين :

وكان القس بإفاضته فى الكلام قد أجهد عمتى ، حتى أنها اضطرت بمجرد انصرافه أن تصرف إيلالى أيضاً . وقالت لها وهى تخرج قطعة نقود من كيس بقربها :

ـ هاك يا إيلالى المسكينة . هذا شىء يسير حتى لا تنسينى فى صلواتك !

وتجيبها إيلالى بنفس التردد والحرج المتكررين كل يوم أحد ، كأن هذه هى الغواية الأولى من نوعها ، ويبدو عليها الاستياء الذى يسر عمتى أن تراه على وجهها :

ـ ولكن لا أحسبه يجوز لى أن آخذه منك يا مدام أكتاف :

وإذا حدث أن عمتى لم تر علائم الاستياء بنفس الشدة على وجه إيلالى فى يوم من أيام الأحد وهى تعطيها قطعة النقود ، قالت بعد انصرافها :

ـ لا أدرى ماذا جرى لإيلالى : فقد أعطيتها المبلغ المعتاد ، ولكنها هذه المرة لم تبد مسرورة كالعادة !

فتتنهد فرنسواز وتقول :

ـ لا أظن أنه يحق لها أن تتذمر :

فقد كانت فرنسواز ميالة إلى اعتبار أى مبلغ ـ مهما كان كبيراً ؟ ـ تعطيه عمتى إياه لها أو لأولادها شيئاً تافهاً ، وتعتبر أى مبلغ ـ مهما كان تافهاً ـ تعطيه عمتى لإيلالى كنزاً ثميناً تبعثره على هذه المدللة التى لا تستحقه . وليس معنى هذا أنها كانت تطمع فيما تأخذه إيلالى ، لأنها كانت ترتع فى بحبوحة من كل ما تمتلكه عمتى ، وكانت تعتقد أن ثروة سيدتها ترفع من قدرها هى شخصياً فى أنظار الناس : وأن وضعها كخادمة لها يجعلها موضع اعتبار الناس واحترامهم فى كمبراى وجوى لى فيكونت وغيرهما من البلدان ، بسبب ضياع ومزارع عمتى الكثيرة ، وزيارات القس الطويلة والكثيرة لها ، وكثرة زجاجات مياه فيشى التى تستهلكها . ولو كانت لها حرية التصرف فى ثروة عمتى لصانتها من سطو الغرباء بضراوة كضراوة الأم التى تدافع عن بنيها . وما كانت لتمانع فى أن تعطى عمتى بسخاء ، بشرط أن تعطى من هم أغنياء فعلا ! ولعلها كانت تعتقد أن ثراء هؤلاء الناس يجعلهم غير مرائين فى إعزازهم لعمتى بسبب عطاياها فحسب . ثم إن هداياها لذوى الثروة الكبيرة والمكانة الرفيعة مثل مدام سازيرا والمسيو سوان والمسيو لجراندان ، ومدام جوبيل ، أى لأشخاص من « نفس طبقتها » ، كانت فى نظر فرنسواز نوعاً من الحلية اللازمة لهذا النوع من حياة الطبقة الراقية . كانت شيئاً لائقاً ومحترماً بمقتضى عادات هذه الطبقة التى تقيم

حفلات الصيد وحفلات الرقص وتبادل الزيارات : وهى حياة كانت ترمقها فرنسواز بعين الإعجاب وابتسامة الانبهار : أما العطاء لمجرد الصدقة لأناس تقول عنهم فرنسواز : « إنهم من أمثالى » ، أو « ليسوا أفضل حالا منى » وهم قوم تمقتهم ، ولا سيما إذا لم يخاطبوها بقولهم : « يا مدام فرنسواز » ، إشعاراً لها بهذا أنهم ليسوا دونها فى المقام : ومع استمرار عمتى فى هذه العادة رغم تحذيرات فرنسواز ، صارت فرنسواز تعتقد أنها تغدق على إيلالى ثروة طائلة وأن ما تناله هى تافه زهيد : ولذا لم تكن هناك ضيعة فى جيرة كمبراى لم تكن تعتقد أن إيلالى قادرة على شرائها لو شاءت من حصيلة ما نالته من يد عمتى خلسة كل يوم أحد : ولا بد أن نضيف إلى هذا أن إيلالى كانت تقدر مدخرات فرنسواز على هذا النحو بعينه : ولذا كانت فرنسواز كل يوم أحد بعد انصراف إيلالى تغلى حسداً وحقداً عليها ، فهى تكرهها وتخشاها فى الوقت نفسه ؛ ولذا كانت تجد لزاماً عليها أن تبدى لها البشاشة عندما تكون هنا ؛ إلا أنها تعوض ذلك بعد خروجها ، وإن كانت لا تذكرها بالاسم ، بل بالتلميح والتعريض ، مستخدمة آيات من سفر الجامعة ، بحيث لا يفوت عمتى إدراك مرادها : فبعد أن تنظر من خلال الستار لتتأكد من أن إيلالى أغلقت الباب الأمامى وراءها ، تقول وهى تنظر شزراً :

— المتملقون يعرفون كيف يجعلون الناس يرحبون بهم ،

وكيف يجمعون الفتات ، ولكن صبراً صبراً . فالله غيور ، ويوماً ما سيصب انتقامه عليهم :

ولكن فى عصر ذلك اليوم المشهود ، الذى حضر فيه الخورى أيضاً واستنزف قوة عمتى بحديثه المسهب ، تبعت فرنسواز إيلالى وهى خارجة قائلة :

— سأتركك يا مدام أكتاف لتستريحى : فأنت تبدين مجهدة جداً.

ولم تجبها عمتى بكلمة واحدة ، وصعدت زفرة واهنة كأنما هى نفسها الأخير ، ورقدت مغمضة العينين ، وكأنها قد ماتت فعلا. ولكن ما كادت فرنسواز تصل إلى الطابق السفلى ، حتى دوت فى البيت أربعة دقات للجرس بكل عنف ، وجلست عمتى فى فراشها صائحة :

— هل انصرفت إيلالى ؟ تصورى أنى نسيت أن أسألها هل مدام جوبيل وصلت إلى الكنيسة قبل رفع القربان أم لا ؟ اجرى وراءها : بسرعة !

ولكن فرنسواز عادت بمفردها ، وفشلت فى إدراك إيلالى ؛ فقالت عمتى وهى تهز رأسها فى حسرة :

— كم هذا مؤسف ! نسيت أن أسألها عن الشىء الوحيد الذى كان ينبغى أن أسألها عنه !

وعلى هذا النحو مضت حياة عمتى ليونى ؛ على نفس الوتيرة ؛ وكانت محترمة من الجميع على اختلافهم ، لا فى بيتها فحسب — حيث

أدركنا كلنا عدم جدوى نصحها بحياة أكثر ملاءمة للصحة ، فرضخنا لأسلوبها — بل فى البلدة أيضاً ، حيث يوجد على بعد ثلاثة شوارع من بيتها تاجر قد يهم بدق مسامير فى صناديق البضائع ، فيسأل فرنسواز أولا هل سيدتى مخلدة للراحة كى يمتنع إلى أن تصحو من غفوتها . ولم يحدث أن تجاسر أحد على تعكير صفو راحتها وهدوئها إلا حادث واحد مفاجئ ، ذلك أن المخاض فاجأ فى جوف الليل خادمة المطبخ الحبلى ، وكانت آلامها لا تطاق : ولما كانت لا توجد قابلة (داية) فى كمبراى ، لذا كان على فرنسواز أن تنطلق قبل الفجر لإحضار قابلة من تيبرزى . ولذا لم يتسن لعمتى أن « تستريح » بسبب صرخات الفتاة : وتأخرت فرنسواز فى العودة رغم قرب المسافة ، لذا لم يقم أحد بخدمة عمتى كالمعتاد : ولذا قالت لى أمى فى الصباح :

— اصعد بسرعة وانظر هل عمتك بحاجة إلى شيء ؟

وذهبت إلى أول حجرة من حجرتيها ، ومن الباب المفتوح على الحجرة الأخرى رأيت عمتى راقدة على جنبها نائمة : وسمعت تنفسها الذى يكاد يكون شخيراً ، وكنت على وشك أن أتسلل عائداً من حيث أتيت : عندما أيقظها من نعاسها شيء ما ، لعله صوت دخولى ، فانقطع صوت شخيرها مقدار ثانية ، ثم انتظم ثانية بطبقة أقل ، ثم استيقظت تماماً ، وأدارت وجهها فاستطعت أن أراه لأول مرة ، وقد انطبع عليه الرعب : ولا شك فى أنها نجت لتوها من حلم

مروع : ولم تستطع أن ترانى من حيث كانت راقدة ، ووقفت أنا لا أدرى هل ينبغى أن أخرج أو أتقدم نحوها . ولكن يبدو أنها عادت على الفور إلى الإحساس بالواقع وأدركت بطلان ما كان قد أفزعها من الرؤى ، فشاع فى وجهها ابتسام الشكر لله ، لأنه يجعل حياتنا أقل قسوة من أحلامنا ، وعلى مألوف عادتها فى حديثها إلى نفسها تمتمت :

— الشكر لله ! فليس هنا ما يزعجنا إلا طفل خادمة المطبخ : ولكنى حلمت أن المرحوم أكتاف عاد للحياة ، وكان يحاول أن يحملنى على السير فى الحديقة كل يوم !

ومدت يدها إلى مسبحتها ، التى كانت فوق المنضدة الصغيرة ، إلا أن النوم كانت له الغلبة مرة أخرى ، فلم يمكنها من الوصول إليها ، ونامت هادئة راضية ، وانسحبت أنا من الحجرة على أطراف أصابعى ، من غير أن تدرى هى أو يدرى أى أحد بما سمعت ورأيت ، حتى يومنا هذا .

وفيما عدا هذا المخاض لم يتغير نمط حياة عمتى قط . ولست أعنى بهذا تلك التنويعات التى كانت تطرأ وتتكرر بصفة دورية على نفس الصورة : فمثلا فى كل يوم سبت ، كان البيت كله — بسبب توجه فرنسواز إلى السوق بعد الظهر فى روسانفيل لى بان R - le - Pin - يتناول طعام الغداء قبل الموعد المعتاد بساعة . وقد تعودت عمتى هذا الاستثناء الأسبوعى من عاداتها العامة ، حتى أنها صارت تتمسك به

تمسكها ببقيـة عاداتها ، ولو حـدث فى يوم سبت أن انتظرت إلى الوقت المعتـاد فى بقية الأسبوع كى تتنـاول الغـداء ، لشعرت باضطراب كما لو كانت فى يوم عادى فوجئت بغدائها متقدماً ساعة مثل يوم السبت . أما نحن فقد جعلت هذه السمة ليوم السبت جاذبية خاصة لدينا .. ويؤدى هذا إلى ازدياد حيوية الأحاديث على المـائدة وكثرة رواية النوادر والملح : وصار من عادتنا كل يوم سبت منـذ طلوع النهار ، قبل أن نرتدى ثيابنا أن ينادى كل منا الآخر فى مرح ومودة وتضامن :

— أسرع ! لا وقت نضيعه ! لا تنس أن اليوم هو السبت !

فى حين تكون عمتى منصرفة إلى الثرثرة مع فرنسواز ، وهى تفكر فى أن النهار سوف يكون أطول من المعتاد ، وتقول لها :

— اطبخى لهم قطعة ممتازة من لحم البتلو ، فاليوم هو السبت !

وإذا حدث فى الساعة العاشرة والنصف أن أحدهم أخرج ساعته وقال سهواً :

— بقيت ساعة ونصف حتى الغداء :

ضحك الآخرون جميعاً ، وأجابوه على الفور :

— أين ذهب عقلك ؟ أنسيت أن اليوم السبت ؟

وبعد ربع ساعة نكون ما زلنا نضحك منه ، ويطلب كل منا إلى الآخر أن يصعد إلى عمتى ليونى ويخبرها بهذه السهوة المضحكة ، كى يدخل عليها السرور ، بل إن صفحة السماء فى هذا اليوم تبـدو

وكأنها تغيرت : فبعد الغـداء تشعر الشمس أن اليوم السبت فتتلكأ ساعة أخرى عند سمت الرأس ، وإذا ظن أحدنا أننا تأخرنا فى الخروج للمشى كالعادة ، لا يلبث أن يقول متعجباً :

— الساعة الثانية فقط ؟

ذلك أن ساعة برج سانت إيلير تكون قد أطلقت دقتيها ، فى الوقت الذى تكون الطرق الخلوية فيه خاوية لانشغال الناس بطعام الغداء أو القيلولة ، وبذلك لا يلتفت إلى هاتين الدقتين اللهم إلا قطع متناثرة من السحب فى صفحة السماء الخالية . وعندئذ تقول الأسرة كلها فى نفس واحد :

— أنسيت ؟ لقد تغدينا قبل الموعد بساعة . فاليوم هو السبت !

وأما إذا أقبل أحد البرابرة (أى الذين لا يعرفون عاداتنا الخاصة فى يوم السبت) ليزور أبى فى الساعة الحادية عشرة ، ووجـدنا جالسين إلى المـائدة ، فذلك حدث يثير مرح فرنسواز إلى أقصى حد : وأما أبى فيقول للزائر المرتبك :

— ها أنت ترى أن اليوم هو السبت !

وما إن تسمع فرنسواز هذه العبارة حتى تمسح الدمع المنهمر من عينيها من شدة الضحك : وتروح تروى النادرة لكل من تصادفه ، وهى تضيف إليها حواشى جديدة :

وعمتى الكبرى نفسها تضع أشغال إبرتها بجوارها ، وترفع رأسها وتنظر إلينا من فوق نظارتها

وهذا اليوم سمة أخرى مميزة ، وهى أننا على امتداد شهر مايو كنا نذهب فى أمسيات السبت بعد العشاء إلى صلاة « شهر مريم » ؛ وكنا نقابل غالباً المسيو فانتى الذى كانت له آراء صارمة عن « عدم أناقة الشباب فى هذه الأيام » وعندئذ تنظر لى أمى لتتأكد أولا من أن هندامى لا غبار عليه ، ثم نمضى جميعاً إلى الكنيسة ، وأتذكر أننى فى قداسات شهر مريم هذه وقعت لأول مرة فى غرام زهرة الزعرور البرى التى لم تكن فى الكنيسة فقط ، بل كانت أيضاً تملأ المذبح نفسه وتندمج فى أسرار خدمة القداس وتشارك فيها : وتندس فروعها بين الشموع والأوانى المقدسة فى نسق بديع : ويزيد من جمالها ذلك الشكل المروحى لأوراقها الداكنة التى تتناثر بينها البراعم البيضاء كأنها أذيال العروس. فالطبيعة نفسها قد صنعت الأوراق بهذا الشكل وتوجتها بهذه الأزاهير والبراعم الثلجية ، فجعلت هذه الزينة جديرة بالفرح العام وبالأسرار المهيبة فى آن واحد : وفى أعلى المذبح ، فوق الأغصان التى تزينه تفتح برعم هنا وهناك فى رشاقة عفوية ، كنت أتابعها بعينى ، وأنا أحاول أن أحاكى تفتحها وازدهارها فى أعماق سريرتى : ويخيل إلى أن هذه الغصون والأزاهير لها إيماءة كإيماء فتاة برأسها وهى ترنو من بين أجفانها نصف المطبقة ، وقد انتشحت بالبياض فى حيوية ، وبلا تعمد ...

وكان مسيو فنتى قد جاء مع ابنته وجلس بجوارنا : وهو ينتمى إلى أسرة طيبة ، وكان يوماً ما معلم موسيقى لشقيقتى جدتى : وبعد

أن فقد زوجته وورث شيئاً من العقار ، تقاعد فى ضواحى كمبراى : وصرنا ندعوه إلى بيتنا . إلا أنه لفرط احتشامه وتزمته كف عن الحضور ، حتى لا يضطر إلى لقاء سوان الذى تورط — على حد تعبيره — « فى زواج غير متكافئ » ، على النحو الذى يبدو أنه صار موضة هذه الأيام » . ولما سمعت أمى أنه يؤلف الموسيقى ، قالت له على سبيل المجاملة إنها تتمنى — عندما تذهب لزيارته — أن يعزف لها شيئاً من موسيقاه . ولم يكن شىء أحب إلى مسيو فنتى من هذا ، ولكنه كان شديد التحسب من مضايقة الناس ، إذا هو لبى مثل هذه الرغبة من تلقاء نفسه . وفى اليوم الذى ذهب فيه والداى لزيارته صحبتهما ، إلا أنهما سمحا لى أن أبقى خارج البيت : ولما كان بيت مسيو فنتى — المسمى مونجوفان Montjouvain — فى مكان منحوت فى تل مرتفع مغطى بالأشجار ، فقد كمنت بينها بحيث لا يرانى أحد ، وأرى أنا ما يدور فى حجرة استقباله التى كنت فى مستواها بالطابق العلوى ، وعلى بعد خطوات قليلة من نافذتها : ولما جاء خادم وقال له : إن والدى وصلا ، رأيت مسيو فنتى يجرى إلى البيانو ويضع عليه صفحة من النوتة الموسيقية بحيث تلفت النظر : ولكن بمجرد دخولهما اختطفها من مكانها وأخفاها فى ركن : فقد كان خائفاً ولا شك من أن يظناه مسروراً لزيارتهما لا لشىء إلا لأن هذه فرصة لكى يعزف لهما شيئاً من ألحانه : وفى كل مرة



فهو دائما مستعد بعدد من الشيلان لكى يلفها حول كتفيها .

تعود أمى فيها أثناء الزيارة إلى موضوع عزفه ، كان يسرع بالاحتجاج قائلا :

— لا أدرى من الذى وضع هذه الورقة على البيانو : إنه ليس مكانها الملائم :

ويحول مجرى الحديث إلى موضوع آخر ، لا لشيء إلا لأن الموضوع الجديد أقل أهمية فى نظره !

وكانت ابنته موضوع شغفه الوحيد . أما هى فكانت غلامية المظهر قوية البنية حتى أن المرء كان لا يتمالك نفسه من الابتسام عندما يرى مبالغته فى الاحتياط خوفاً على صحتها . فهو دائماً مستعد بعدد من الشيلان لكى يلفها حول كتفيها : وكانت جدتى قد لفتت أنظارنا إلى ذلك التعبير الرقيق الحيى الذى كثيراً ما يشاهد على محيا هذه الطفلة الذى يغطيه النمش . وعندما تتكلم تنزعج جداً إذا أساء السامعون فهمها ، وعندئذ تشف ملامحها المرجلية عن طيبة قلبها وما تنطوى عليه من رقة تكاد تصل إلى حد البكاء .

وعندما ركعت أمام المذبح قبل مغادرة الكنيسة ، شعرت فجأة وأنا أنهض بعبير مستطاب لرائحة اللوز تتسلل إلى خياشيمى من زهور الزعرور البرى . وعندئذ لاحظت فوق الأزهار نفسها بقعاً من اللون المصفر ، تخيلت أن رائحة اللوز تفوح منها وتكمن فيها ، مثلما يكمن طعم كعكة اللوز فى الأجزاء المحترقة منها ، أو كما تكمن عذوبة وجنتى الآنسة فنتى تحت نمشهما ... وبرغم سكون أزهار الزعرور البرى

العميق كانت هذه النسمات من العبير تصل إلى وكأنها همهمة أو تمتمة شديدة الحيوية ، يموج بها المذبح بأسره ...

وخارج الكنيسة نقف لحظة مع المسيو فنتى فى المدخل . وفى هذه الأثناء يناجز الغلمان بعضهم بعضاً فى الميدان ، فيتدخل المسيو فنتى بينهم ويأخذ جانب الصغير ، ويلقى محاضرة على الكبار . وإذا قالت ابنته بصوتها الغليظ المريح كم هى مسرورة لرؤيتنا ، بدا لنا على الفور أن أختاً أكبر منها وأشد منها حساسية كامنة بداخلها قد احمر وجهها للتفوه بهذه العبارة التى تشبه كلام صبيان المدارس . وكان كلامها يوحى إلينا أنها تستحثنا لكى ندعوها إلى البيت . وعندئذ يلف والدها عباءة حول كتفيها ، ويركبان معاً دوكاراً تتولى هى قيادته ، ويعود الاثنان إلى بيتهما فى مونجوفان . أما نحن ، فلأن الغد يوم أحد ، ولا حاجة بنا إلى اليقظة قبل موعد القداس الكبير ، وبما أن الليلة مقمرة ودافئة ، فبدلا من العودة إلى البيت فوراً ، يقودنا والدى فى مسيرة تعجز فيها أمى عن التعرف على الطريق ، ويعد أبى ذلك انتصاراً له يدل على عبقريته الاستراتيجية . وأحياناً يتوغل بنا إلى موضع الجسر الذى بدأ يرتفع فوق قوائمه الطويلة الحجرية عند محطة سكة الحديد التى كانت فى نظرى خارج حدود المدينة . لأننا فى كل سنة عند قدومنا من باريس تصدر إلينا التحذيرات بأن نتنبه جيداً ونستعد قبل وقوف القطار ، لأنه سيستأنف السير مرة أخرى بعد دقيقتين اثنتين وينطلق عبر هذا الجسر إلى خارج نطاق العالم

المسيحى ، الذى كانت كبراى تمثل لى آخر حدوده ! ونعود من مسيرتنا من طريق شارع المحطة الذى يضم على جانبيه أبهى فيلات البلدة . وينعكس ضوء القمر على كل حديقة من حدائقها ، محاكياً فن هيبير روبير Hubert Robert ، وعلى سلالمها الرخامية البيضاء ونوافير الماء وبواباتها المواربة ... وفى هذه الأثناء أجر قدمى جراً ، وأنا أكاد أسقط من شدة الميل إلى النعاس . ورائحة أشجار الليمون هى عزائى الوحيد عن هذا العذاب والإعياء ، ولكنه عزاء لا يستحق كل هذا العناء . ومن البوابات المواربة تترامى إلينا أصوات نباح كلاب الحراسة التى أيقظتها وقع خطانا .

وفجأة يوقفنا أبى ويسأل أمى :

— أين نحن الآن ؟

فتعترف بأنها لا فكرة لديها على الإطلاق عن هذا . تقول ذلك وقد بلغ بها التعب مداه ، ولكنها فخور بعلم زوجها الواسع الذى يحيط بما لا علم لها به ! ويهز كتفيه ويضحك ، وعندئذ يشير لنا إلى بوابة حديقتنا الخلفية التى فى مواجهتنا تماماً ، وكأنما هى قد خفت للقائنا بعد جولتنا فى هذه المجاهل إلى أن وصلنا إلى ناصية شارع الروح القدس . وتهمهم أمى فى تعجب :

— أنت مدهش حقاً !

وبعدها ينتهى عذاب قدمى المكدودتين . وكأن أرض الحديقة صارت تطوى تحتهما من غير مجهود أبذله ، وبغير حاجة إلى توجيه

من الإرادة : لأن العادة المألوفة قد تلقفتني بين ذراعيها ، وحملتني حملا إلى فراشي ، وأرقدتني فيه كالطفل :

* * *

ومع أن ابتداء يوم السبت قبل الموعد المألوف بساعة ، مع حرمانها من خدمات فرنسواز ، يجعل الوقت أشد بطئاً بالنسبة لعمتي ليونى من سائر الأيام . إلا أن انقضاءه وابتداء أسبوع جديد يجعلانها تتطلع إلى عودته ، وكأنه يجسد كل الطرافة التي يمكن أن يتحملها جسدها الواهن . وليس معنى هذا أنها لا تتوق أحياناً إلى تنويع أو تغيير أكبر من هذا ، أو أنها لا تشتاق مثلنا جميعاً إلى أمور تختلف عما ألفته ، وتتعطش إلى ما يباين رتابة حياتها ، وعندئذ يصبح تلهفها إلى الأنباء شديداً بحيث قد تصبح منفعلة إذا ما جاء ساعي البريد ، حتى ولو كانت هذه الأنباء سيئة . على نحو ما تتلهف أوتار المعزف المشدودة إلى من يهزها ، حتى ولو كانت اليد التي تهزها جافية فظة ، بحيث يمكن أن تمزقها ! وبما أن قوى عمتي تستنفد بأى مجهود مهما كان هيناً ، ولا تعود إلى حالتها الأولى إلا كما يعود الماء قطرة قطرة إلى المستودع الناضب ، أثناء أوقات راحتها ، وببطء شديد للغاية ، لذا لم يكن فيض الحيوية الذى يتوق إلى متنفس يتجمع لديها إلا بعد شهور طويلة . ذلك الفيض الحاضر عند الأصحاء دوماً من الناس ، ولابد لهم من استهلاكه فى نشاطهم اليومى : وأحياناً لا يدرون ماذا يصنعون به .

ومن تجمع فيض الحيوية على امتداد شهور من الرتابة ، نجدها تطلب أحياناً صنفاً كالبطاطس بالبشامل على سبيل تغيير روتينها الغذائى ، وقد يكمن بداخلها ترقب لحدوث أى أمر خارق فى محيط البيت ، حتى ولو كان مصيبة تحل على غير توقع ! فكم يسعدها أن تبكى بحرقة لو مات أحدنا فجأة ، بشرط أن يحدث هذا وهى غير منهكة القوى . ولابد أن أحلامها راودتها فى تلك الأوقات المتلهفة على الجديد والطريف ، أن الحريق شب فى البيت وقضى علينا جميعاً ولم يبق فيه حجر على حجر ، بشرط أن يتسع لها الوقت للنهوض والنجاة بغير عجلة : وبعد ذلك يتسنى لها أن تظهر مشاعرها المخزونة نحونا بالحداد الطويل – كحدادها على زوجها – ويتاح لها أن تذهل القرية كلها بخروجها على رأس جنازتنا فى شجاعة وتماسك . متداعية ولكنها منتصبة القامة : ثم تذهب لتقضى الصيف فى ضيعتها الفاخرة بميروجران Mirougrain حيث يوجد شلال ماء بديع :

وبما أنه لم يحدث قط شىء من هذا القبيل ، مع أنها ولا ريب كثيراً ما جالت هذه الاحتمالات برأسها وهى خالية طول الوقت بنفسها تلعب لعبة الصبر التى لا تنتهى : ولكنها لا تيأس من حدوث شىء ما ، وتشرع فى تخيل مصائب من نوع أهون من هذه الوفيات بالجملة ، وتروح تتعقبها باهتمام تام ، كى تبعث فى حياتها شيئاً من حيوية الانفعال وسط هذا الهمود الواقعى التام : فتتصور مثلا أن فرنسواز تسرقها ، ويستولى عليها هذا الشك المفاجئ : وتتخيل

كيف أعدت لها كميناً لكى تتأكد من خيانتها ، وكيف ضبطتها متلبسة !

و لما كان من عادتها عندما تلعب الورق ، أن تلعب لعبتهاولعبة خصمها ، كذلك تفعل فى تخيلاتها هذه ، فتغمغم متلعثمة اعتذارات فرنسواز المرتبكة ، ثم ترد عليها بغضب شديد واستنكار فظيع ، حتى أنه لو حدث أن دخل عليها أحدنا فى إحدى تلك اللحظات لوجدها غارقة فى العرق الذى يتصبب منها ، ووجد عينيها تتقدان كالجمر ، وشعرها المستعار منزلقاً إلى الخلف كاشفاً عن صلعتها : ولابد أن فرنسواز سمعتها كثيراً من الحجرة الأخرى وهى تصب عليها تأنيبها القاسى لأنها لا تتخيل أبداً أو تحلم وهى صامتة ، بل بصوت مسموع أو نصف مسموع على الأقل :

وأحياناً لا تكفى هذه الدراما التى تدور وهى تحت اللحاف لإشباع رغبة عمتى ليونى ، ولابد لها فى هذه الحالة من أن تراها مجسمة كما لو كانت على المسرح . وعندئذ تنتهز فرصة يوم الأحد ، والأبواب مغلقة بصورة توحى بأن هناك سراً غامضاً ، لتفضى إلى إيلالى بارتيابها فى أمانة فرنسواز وتصميمها على التخلص منها . وفى يوم آخر قد تنعكس الأدوار وتفضى عمتى إلى فرنسواز بشكوكها فى إيلالى وعدم ولائها ، وأنها عما قريب ستقطع رجلها من البيت . وبعد بضعة أيام أخرى ينتاب عمتى التقزز من موضع سرها ، وتنقلب

إلى مصافاة الخائنة وتجعل الأخرى هى الأثيمة المريبة ! وهكذا دواليك !

ولكن الشكوك التى قد تثيرها لديها إيلالى أحياناً لا تعدو أن تكون مثل نار القش ، سريعة الاشتعال سريعة الخمود ... فالنار لابد لها من وقود متجدد ، بينما إيلالى لا تعيش معها تحت سقف واحد . ولكن الحال مختلف جداً فيما يتعلق بفرنسواز التى تعى عمتى وجودها معها فى كل ساعة . ولولا خشية عمتى من أن تصاب بالبرد إن هى غادرت فراشها ، لفاجأتها بالنزول إلى المطبخ لتتأكد أن لارتيابها أساساً من الواقع الملموس : ولا بديل لهذا إلا أن تراقب بإمعان ملامح وجه فرنسواز باستمرار ، لتتسقط أى تغير يرتسم عليها ، وإلا أن تدقق فى فحص كلامها ، عسى أن تكتشف أى تناقض فيه . وتتخيل فى ذهنها أنها ضبطتها من زلة لسان واحدة ، وواجهتها بأنها افتضحت ، وتتصور امتقاع وجه فرنسواز عندئذ بصورة تسعد قلب عمتى القاسى . وفى يوم الأحد التالى تكشف لعمتى كلمة أفضت بها إيلالى أن أسوأ ظنونها بفرنسواز دون الحقيقة بكثير : وكأنما هذه الكلمة قد فتحت درباً جديداً أمام علم عويص كان من قبل لا يسير إلا فى السبل المطروقة . فقد قالت لها إيلالى :

— وماذا تنتظرين من فرنسواز بعد أن أعطيتها عربة ؟

فشهقت عمتى وصاحت :

— عربة ؟

— أوه ! ولكنى لم أكن أعرف ذلك من قبل ، بل خطر ببالى عندما رأيتها أمس تمر أمامى فى عربتها المكشوفة ، وهى مزهوة ، فى طريقها إلى سوق روسانفيل . فأدركت أن مدام أكتاف لا بد أن تكون أهدتها إياها !

وهكذا تستمر هذه اللعبة بين فرنسواز الفريسة وبين عمتى الصياد المثابر ، وكل منهما تحاول أن تحبط حيل الأخرى .. وكانت أمى تخشى أن تسفر هذه الأمور عن كراهية فرنسواز لعمتى كراهية حقيقية ، لأن عمتى كانت لا تدخر وسعاً فى مضايقتها . إلا أن ذلك لم يزد فرنسواز إلا تفانياً فى الاهتمام بخدمة ورعاية عمتى . وعندما تريد أن تتوجه إليها بطلب ، كانت تتردد أولا ، وتفكر كيف تبديه ، وكانت تستهل الكلام ، ثم تبدى طلبها وتنظر إلى عمتى خلسة لتحاول قراءة أفكارها وكيف عسى أن يكون جوابها ، مستدلة على ذلك بتعبيرات وجهها . فما أشبه هذه العلاقة بما كان يسود رجال بلاط لويس الرابع عشر عندما يتعاملون معه . وما أشبه عمتى المستبدة بهذا الملك . فهى سيدة فى منتصف العمر ، تعيش فى بلدة صغيرة بالريف ، ولا مشغلة لها إلا الاستسلام وإرخاء العنان لغرابة أطوارها ونزواتها ، وقد ضربت فى أعماقها جذور حب الأذى والتسلط فى جو من الكسل التام والفراغ المطلق ، فهى مغلقة على هواجسها ، لا تفكير لها إلا فى نظام حياتها اليومى التافه ، وزينتها الصباحية ، وغدائها ، وقيلولتها ، فى استبداد طاغية مطلق الأهواء والسلطان ،

حتى أن مجرد صمتها العابس كان يكفى لارتعاد فرائص فرنسواز ، مثلما كانت ترتعد فرائص رجال البلاط وهم يقدمون الالتماسات إلى لويس الرابع عشر فى أحد دهاليز فرساى ؟ !

وذات يوم أحد ، بعد أن كانت عمتى قد استقبلت فى آن واحد الخورى وإيلالى ، وصارت وحدها لكى تستريح ، صعدت الأسرة بكامل هيئتها إلى حجرتها لتتمنى لها ليلة سعيدة . وغامرت ماما بمواساتها على هذه المصادفة السيئة التى تأبى دائماً إلا حضور كلا الزائرين إلى بابها فى نفس الوقت ، وقالت لها بحنان ورقة :

— سمعت أن الأمور مضت على غير ما يرام مرة أخرى هذا اليوم : فقد اجتمع عندك أصدقاؤك جميعهم فى آن واحد .

وقاطعتها عمتى الكبرى قائلة :

— هناك أشياء طيبة أكثر من اللازم ...

فمنذ مرض ابنتها صارت تجد من واجبها أن تنعش معنوياتها بقدر الإمكان ، بأن تلفت نظرها إلى الجانب المشرق من الأمور ، ولكن والدى كان قد بدأ يتكلم ، فقال :

— أود أن أنتهز فرصة وجود كل الأسرة مجتمعة ها هنا الآن ، كى أحكى لكم حكاية : حتى لا أضطر لإعادة سردها لكل فرد منكم على حدة . فأنا أخشى أن يكون المسيو لجراندان ساخطاً علينا هذه الأيام ، فإنه أوشك ألا يقول لى هذا الصباح كيف حالك !

ولم أنتظر كى أسمع بقية حكاية [illegible] ، كنت معه شخصياً

بعد القداس عندما مر بالمسيو لجراندان ، ونزلت إلى المطبخ لكى أسأل عن قائمة طعام اليوم ، الذى سيقدم على مائدة العشاء ، وهـذه مسألة أهتم بها كل يوم ، مثلما أهتم بالأنباء التى تنشرها الصحف ، وتثير اهتمامى كما يثيره برنامج احتفال مقبل ، أو عيد على الأبواب :

ولما كان المسيو لجراندان قد مر بقربنا ونحن فى طريق عودتنا من الكنيسة ، وتمشى إلى جواره سيدة تمتلك بيتاً ريفياً فى ضواحى البلدة ، ولا يعرفها أبى إلا بالنظر ، لذا حياه أبى فى مودة وتحفظ معاً ، من غير أن يتوقف عن السير . ولم يكد المسيو لجراندان يرد المجاملة بمثلها ، بل بدت على حركة تحيته المقتضبة علائم الدهشة ، كأنه لم يعرف من نحن ، وهو ينظر إلى بعيد ، شأن من لا يريد أن يكون ودوداً ، كأنما لم يرك إلا على مسافة بعيـدة جداً على امتداد الطريق ، ولذا يكتفى بتحريك رأسه حركة يسيرة تتناسب مع صغر حجمك وأنت على هذا البعد السحيق :

وكانت السيدة التى تسير بجواره نموذجاً للفضيلة ، معروفـة القدر ، موفورة الاحترام : فلم يكن هناك أى احتمال لشروعه معها فى مغامرة غرامية ، فيستاء لاكتشاف أمره معها . وراح أبى يتساءل فيم عساه أثار استياء صديقنا :

— وإنه ليسوءنى جداً أن نكون أغضبناه ، فإنه يتميز من بين كل من يرتدون ملابس يوم الأحـد بالبساطة والبعد عن التأنق المتكلف ، فهو نموذج للبراءة التى لا تخلو من جاذبية .

ولكن أصوات الأسرة كلها أجمعت على أن أبى خال أو تخيل ما حدث ، أو أن المسيو لجراندان كان فى هذه اللحظة بالذات مشغول الذهن فى شىء آخر : وعلى كل حال تبددت شكوك ومخاوف أبى من هذه الناحية فى الأمسية التالية مباشرة . فعند عودتنا من مسيرتنا الطويلة ، قرب الجسر القـديم « بون فييه » Pont - Vieux رأينا المسيو لجراندان الذى كان يقضى بمناسبة عطلة العيد بضعة أيام إضافية فى كمبراى ، فأقبل نحونا ممدود اليد ، وسألنى :

— أتعرف يا صـديقى عاشـق الكتب هـذا البيت من شـعر ديجردان Desjardins .

الغابة الآن سوداء تماماً ، ولكن السماء لم تزل زرقاء ؟

ألا ترى أن هذا البيت يصف تماماً مثل هذه اللحظة ؟ لعلك لم تقرأ قط بول ديجردان . اقرأه يا فتاى . اقرأه . لقد قيل لى إنه تحول أخيراً إلى راهب واعظ ، ولكنه فيما مضى كان أمهر من يرسم بالألوان المائية ، مثل بيته هذا :

الغابة الآن سوداء تماماً ، ولكن السماء لم تزل زرقاء !

ولكم أتمنى لك أن ترى السماء دائمة الزرقة من فوقك يا صديقى اليافع ، ولكن حتى حين يأتى الوقت — كما سيأتى قريباً بالنسبة لى — الذى ترى فيه الغابات سوداء تماماً ، وترى الليل يوشك أن يطبق على الأرض ، ففى وسعك دائماً أن تتعزى — كما أتعزى أنا الآن — بأن ترفع عينيك إلى السماء .

وأخرج من علبته سيجارة ، ووقف برهة طويلة وعيناه مثبتتان على الأفق البعيد . وفجأة قال :

— إلى اللقاء أيها الأصدقاء !

وغادرنا منصرفاً :

* * *

وفى الوقت الذى كنت فيه أنزل عادة إلى المطبخ لأكتشف ماذا يعد كى يقدم لنا فى العشاء ، ويكون الاستعداد لهذه الوجبة قد بدأ ، وأجد فرنسواز وكأنها عقيد يقود كتيبة مسلحة ، وجنودها هم كل قوى الطبيعة ، كما هو الحال فى الحكايات الخرافية حيث يعمل العمالقة مرمطونات ! فهى تحرك الفحم فى الأتون ، وتضع البطاطس فوق البخار . وفى الوقت المناسب تتم فوق الموقد إنضاج تلك الروائع من الأطعمة التى توضع أولا فى أوان متعددة الأشكال والأغراض ؛ ابتداء من القدور إلى قوالب الحلوى والأكواب . وأقف إلى جوار المنضدة التى صفت فوقها خادمة المطبخ هذه الأوانى بعد غسلها وتلميعها ، وأستمتع بمنظر الأصناف المرتبة فى نظام دقيق ، وكان أشد ما يفتننى هو الإسبرجس برءوسه الوردية وعروقه المتدرجة الألوان. وأحس أن هذه الظلال ودرجات الألوان إن هى إلا مخلوقات خرافية اتخذت صوراً نباتية ، ولكنى لم أزل قادراً على تبين ألوان الفجر وقوس قزح تحت أشكالها الظاهرية . فكأنها جنيات حلم ليلة صيف لشكسبير . ويلازمنى هذا الاستمتاع بمنظرها ورائحتها ،

ويعاودنى حين أخلو بنفسى ؛ فيملأ على حجرتى المتواضعة ويضمخها بعطر خيالى .

وكانت خادمة المطبخ ، التى أطلق سوان عليها اسم « الرحمة » فى لوحة جيوتو Giotto الشهيرة ، مكلفة من قبل فرنسواز بإعداد هذا الإسبرجس للمائدة ، فتجلس فى حزن وأسى ، كأنما أحزان الأرض جميعاً قد تكومت فوق رأسها ، وفى هذا الوقت تكون فرنسواز منصرفة إلى تقليب سيخ على النار ، به دجاجة من هذا النوع الذى لا يعرف أحد سواها سر شوائها بحيث تكون تامة النكهة ؛ غضة طرية تحت الأسنان ، زلقة مستطابة فى الحلق واللهاة .

ولكن فى اليوم الذى كان أبى يتشاور مع الأسرة حول لقائه الغريب مع مسيو لجراندان ، ونزلت أنا إلى المطبخ ، كانت « رحمة » جيوتو ما تزال ضعيفة جداً ومريضة بعد أن وضعت طفلها ، فلم تستطع مبارحة فراشها . ولأن فرنسواز كانت تعمل وحدها تأخر إعداد الطعام . ووجدتها عند نزولى فى المطبخ الخلفى المفتوح على الفناء ، وهى بسبيل ذبح دجاجة ، وقد ثار غيظها وهى تحاول قطع رقبتها من تحت أذنيها ، وراحت تصيح بها :

— يا لك من مخلوقة قذرة ! مخلوقة قذرة ؟ !

فأفزعنى أن أراها بهذه الصورة التى تخالف ما انطبع لها فى نفسى من صور الدقة والحنان وما إلى هذا من الفضائل التى تتجلى بها وهى تقدم الطعام على المائدة فى ثياب بيضاء ناصعة كملابس الكهنة عند

الصلاة ... وكيف تبدو الدجاجة عندئذ زاهية الجلد بلونها الذهبي؟

ولما انتهت فرنسواز من ذبح الدجاجة مسحت السكين من الدم، ولكن غضبها على الدجاجة القتيل لم يهدأ ؛ بل راحت فرنسواز تنفس عنه بقولها مرة أخرى :

— سحقاً لك من مخلوقة قذرة !

وتسللت خارجاً من المطبخ وصعدت السلم وأنا أرتجف من قمة الرأس إلى أخمص القدم . وكنت خليقاً في هذه اللحظة أن ألتمس طرد فرنسواز ، ولكن من غيرها يمكن أن يخبز لي هذه الأنواع من الكعك والفطائر ، ويحضر لي تلك القهوة الممتازة ، بل ويشوى لي مثل هذا الدجاج ؟ وقد وصل سائر أفراد أسرتنا إلى مثل هذه الموقف من فرنسواز ، وإنه لموقف يتسم بالجبن ! فحتى عمتي ليوني كانت تعرف (وإن كنت أنا شخصياً لم أزل أجهل هذا) أن فرنسواز التي كانت مستعدة أن تبذل نفسها فداء ابنتها وأبناء أخيها بلا تردد ، كانت تبدى قسوة بالغة في تعاملها مع بقية الناس . ولكن عمتي — برغم هذا — كانت تستبقيها في خدمتها ، لأنها — وإن كانت تعرف قسوة قلبها — تعرف أيضاً قيمة خدماتها الممتازة .

وبدأت أدرك شيئاً فشيئاً أن رقة وحنان فرنسواز وبقية مزاياها في مجموعها الكلى ستاراً تخفى وراءه مآسيها التي ترتكبها في المطبخ الخلفي ، تماماً على نحو ما يكشف لنا التاريخ أن عهود حكم الملوك والملكات الذين نرى صورهم راكعين معقودي الأيدي بضراعة

على نوافذ الكنائس كانت عهوداً ملطخة بالطغيان الأسود ومخضبة بالدماء المسفوكة ظلماً . وبدأت ألاحظ أنها — فيما عدا أفراد أسرتها الأقربين — لم تكن تشعر بالشفقة على مصائب الناس إلا بمقدار يتوقف على المسافة التي تفصلهم عنها شخصياً . والدموع التي كانت تنهمر مدراراً من عينيها عندما تقرأ في إحدى الصحف أنباء الكوارث التي حاقت بأشخاص لا تعرفهم سرعان ما تجف عندما يتسنى لها أن ترسم في ذهنها صورة دقيقة لهؤلاء الضحايا .

وقد حدث ذات ليلة أن أحست خادمة المطبخ — بعد وضعها بمدة وجيزة — آلاماً حادة جداً ، وسمعت ماما تأوهاتها فنهضت وأيقظت فرنسواز ، التي لم يظهر عليها أدنى تأثر ، وأعلنت أن هذا الصراخ والبكاء إنما هو من قبيل الخبث الوضيع ، لأن الفتاة تريد بذلك أن تمثل دور « السيدة » ذات الأهمية في البيت . وكان الطبيب الذي أشرف على علاجها قبل هذا قد ترك علامة مميزة في قاموس طبي كان لدينا ، لأنه توقع هذه النوبة من الألم ، وقال إننا سنجد في هذا الموضع وصف الأعراض والإسعافات الأولية التي يجب المبادرة باتخاذها عندئذ . وأرسلت أمي فرنسواز لتأتي بالكتاب المذكور ، وحذرتها من إسقاط العلامة الورقية من الكتاب الضخم ، ومضت ساعة من غير أن تعود فرنسواز ، فظنت أمي أنها عادت إلى فراشها ، فاغتاظت منها وأمرتني أن أذهب بنفسي إلى رف الكتب كي أحضر الكتاب ، وذهبت ، فوجدت فرنسواز هناك ، وقد استبد بها

الفضول لمعرفة ما هو مكتوب فى تلك الصفحة ، وراحت تطالع باستغراق شديد الوصف الطبى لهذه الآلام ، وما قد يترتب عليها ، وانخرطت فى البكاء ، وقد تأكدت أنه نوع من الآلام التى لا علم لها به ؛ وكلما قرأت وصف أحد الأعراض التى ذكرها المؤلف صاحت :

– أوه ! يا سيدتنا العذراء المقدسة ! أمن الممكن أن الله يسمح لأى بشر أن يقاسى كل هذا العذاب ؟ يا للفتاة المسكينة !

ولكن عندما ناديتها ، وعادت إلى سرير المريضة ، كفت دموعها عن الانهمار على الفور ، ولم تجد أى باعث على ذلك الإحساس بالحنان والشفقة الذى كثيراً ما وجدته وهى تقرأ أنباء الكوارث فى الصحف ، بل كان كل ما استولى عليها هو الإحساس بالتعب والغضب لإيقاظها وإخراجها من فراشها فى منتصف الليل لأجل خادمة المطبخ . وهكذا لم تثر فيها الآلام التى أبكتها مطالعتها فى الكتاب إلا الضيق والتذمر ، فراحت تزمجر ، وقالت وهى تحسب أننا ابتعدنا ولم نعد نسمع ما تتفوه به :

– وما الذى دفعها إلى أن تجلب هذا كله على نفسها بما فعلته منذ البداية ؟ بل إخالها وجدت فى ذلك لذة عظيمة فى حينه ! وأولى بها أن تخجل من نفسها الآن ولا تصرخ ! فهى الجانية على نفسها ! ثم لا بد أنه كان صعلوكاً من نفاية الرجال ، حتى أنه نظر إلى مخلوقة

مثلها لا تساوى شروى نقير ! ما أصدق قولهم فى قرية المرحومة أمى :

« الأقذار ، والأوحال ، وذيول الكلاب » :

والعاهرات القذرات :

رائحتهن تبدو جميلة فى أنوف الشبان

عندما يكون القلب فى الحادى والعشرين ! » :

ومع هذا عندما أصيب حفيدها ببرد هين وزكام ، خرجت فى الليل ، مع أنها هى نفسها كانت مريضة ، لتتأكد من عدم حاجته لشىء ، وتعود قاطعة أكثر من عشرة كيلومترات على قدميها ، لتصل قبل الفجر وتبدأ عملها اليومى . وقد تجلى حبها لأهلها ، وحرصها الشديد على عملها فى سياستها مع بقية الخدم ، فهى لا تسمح لأى منهم أن تضع قدمها فى حجرة عمتى ، وكانت تجد من دواعى زهوها ألا تسمح لغيرها أن تقترب من عمتى ، مفضلة عندما تكون مريضة أن تصعد إليها لتقدم لها ماء فيشى بنفسها ، على أن تسمح لخادمة المطبخ بحق المثول بين يدى عمتى ليونى . ويذكرنى هذا بنوع من الحشرات الغشائية الأجنحة راقبها العلامة فابر Fabre وهى تصر على تقديم فرائسها من العناكب وما إليها حتى عندما تكون مريضة إلى صغارها ، وهى بالغة القسوة فى قتل الفرائس ، ودقيقة فى عملها غاية الدقة ، ورقيقة فى معاملتها لفقس بيضها الضعيف غاية الرقة . وبنفس الأسلوب أفلحت فرنسواز فى أن تجعل البيت لا يطاق لأى خادمة غيرها ، بحيل وأساليب بالغة المكر والقسوة .

وعرفت بعد سنوات كثيرة أننا إذا كنا قد أكلنا الإسبرجس يومياً طوال ذلك الموسم ، فلأن فرنسواز كانت قد اكتشفت أن رائحة هذا النبات تسبب لخادمة المطبخ الحبلى المسكينة — التى تتولى إعداده بنفسها — نوبات رهيبة من الربو ، حتى اضطرت المسكينة فى النهاية إلى ترك خدمة عمتى .



وا أسفاه ! كان لابد لنا أن نغير رأينا بصورة نهائية حاسمة فى المسيو لجراندان ؛ ففى أحد أيام الأحد التى تلت ذلك المساء الذى قابلناه فيه عند « بون فييه » ، وهى تلك المرة التى تبين لوالدى أنه كان مخطئاً فى ظنونه ؛ وحينما كان القداس على وشك الانتهاء فى الصباح ، إذا بشىء آخر غير ضوء الشمس وصخب العالم الخارجى يقتحم الكنيسة ، فصار الجو العام أبعد ما يكون عن روح القداسة التى تسود الصلاة ، حتى أن مدام جوبيل ، ومدام برسبييه (وجميع من كانوا قبل لحظة واحدة ، عندما وصلت متأخراً بعض الشىء ، جالسين فى سكون وبلا حراك ، وعيونهم مسلطة على كتب الصلاة ، وكنت خليقاً أن أحسبهم لم يرونى عند دخولى ، لولا أن أقدامهم تزحزحت قليلا لتدفع مركعاً كان يسد طريقى إلى مقعدى) شرعتا تناقشان معنا بصوت مرتفع أموراً كثيرة دنيوية ، كأننا صرنا فعلا فى الميدان أمام الكنيسة ، فقد رأينا فوق درجات مدخل الكنيسة التى تتركز عليها أشعة الشمس المسيو لجراندان نفسه الذى كان زوج

السيدة التى كنا قد رأيناها معه فى المرة السابقة يهم بتقديمه لزوجة أحد كبار الملاك الزراعيين فى المنطقة . وبدت على وجه لجراندان علائم الاهتمام والحيوية بصورة غير عادية ، وانحنى انحناءة كبيرة مع حركة جانبية تخلف لا بد أن زوج شقيقته — مدام كمبرميه Cambermer — دربه عليها ، وتدل على خنوع غريب ، فأذهلنى أن أتبين فيه هذا الجانب ، وتنبه ذهنى إلى أن من الممكن أن يكون لجرندان جانب آخر مختلف تماماً عن الذى نعهده فيه ، جانب بعيد كل البعد عن الرهافة الذهنية والروحانية واحتقار المظاهر الدنيوية . وطلبت منه السيدة أن يبلغ رسالة شفوية منها لحوذيها ، فرأيته يتجه إلى حيث العربة وعلى محياه إمارات الرهبة ، والولاء ، والتزلف التى طبعتها عليه فرحته بهذا التعارف . كان يبتسم كالحالم ، ثم أسرع بالعودة إلى السيدة ، بخطوة أسرع من المعتاد ، وكتفاه تهتزان إلى الأمام وإلى الخلف ، وإلى اليمين وإلى اليسار ، بطريقة بالغة السخف ، وقد نسى كل ما حوله ، فكأنه دمية تتحرك بخيوط فى ملعب للعرائس للتعبير عن الحبور والسعادة !

وفى هذه الأثناء كنا بسبيلنا إلى الخروج من مدخل الكنيسة ، فمررنا بقربه ، وبلغ من حسن تهذيبه أنه أشاح بوجهه ، وشخص بنظره إلى الأفق أمامه بحيث لا يرانا ، وبذلك يتحاشى التعرف على وجودنا ! واحتفظ وجهه مع ذلك بكل سمات البراءة . وكان رباط

رقبته المنقط يرفرف أمامه مع هبات النسيم فى الميدان ، وكأنه راية تعلن للعالم عزلته المتعالية ، واستقلاله النبيل ».

وعند وصولنا إلى البيت اكتشفت أمى أننا نسينا « سانت أونوريه » وطلبت من أبى أن يعود معى ويطلب إرساله على الفور . وقرب الكنيسة قابلنا المسيو لجراندان قادماً نحونا ومعه تلك السيدة بعينها ، ليوصلها إلى عربتها . واحتك ذراعه بنا ولكنه لم يقطع ما كان يقوله لها ، إلا أنه منحنا من ركن عينه الزرقاء إشارة يسيرة جداً ، بحيث بدأت وانتهت — كما يقولون — داخل أجفانه . وبما أنها لم تكن مصحوبة بأى حركة من عضلات وجهه ، لذا لم تفطن إليها السيدة التى فى صحبته ، إلا أنه عوض ضآلة هذه الإشارة أو الغمزة الزرقاء التى خصنا بها دون سوانا بشدة وميضها المعبر عن أحر المودة ، وكأنها شفرة سرية أشبه بالتواطؤ بين جماعة من المتآمرين . وهكذا وفق بين تأكيد صداقته لنا بهذه الومضة غير المرئية للسيدة العظيمة التى إلى جانبه ، وبين إشعارها بأن كيانه كله وانتباهه وقف عليها دون سواها :

وكان فى اليوم السابق قد طلب من والدى أن يبعثا بى كى أتعشى معه فى عين مساء يوم الأحد هذا ، قائلا لى :

— تعال وتحمل صحبة صديقك القديم . تعال بشبابك إلى كى أشم عبيره ، مثلما يرسل إلينا صديق مسافر باقة زهر صغيرة من بلاد لن نراها مرة أخرى : تعال كى تمتعنى بهذا الشذى الذى كنت فى

صباى منذ سنوات طويلة أنعم به . واحمل إلى باقة من الأزهار البرية التى يزهو بها الربيع ، أو من ذلك النوع الذى ينمو فى حديقة عمتك الكبرى متى بدأت ثلوج الشتاء فى الذوبان . تعال فى تألق زنابق الحقل التى لم يكن سليمان بكل ملكه وهيلمانه يرفل فى مثلها . تعال بنسيم الربيع الذى لم تزل تنعشه ذيول برودة الشتاء .

ولما عدت مع أبى إلى البيت طرح على بساط البحث مدى ملاءمة ذهابى للعشاء تلك الأمسية لدى جراندان بعد هذا الذى حدث. ولكن جدتى أبت أن تصدق أن المسيو لجراندان يمكن أن يكون « قليل الأدب » ... وأردفت قائلة :

— أنتم أنفسكم تشهدون أنه يذهب إلى الكنيسة فى ثياب بسيطة ، ولا يبدو عليه الاهتمام بالتأنق ... وعلى كل حال ، وعلى فرض أنه كان فظاً عن غير قصد ، فمن الخير لكم أن تتظاهروا بأنكم لم تلاحظوا شيئاً .

والواقع أن أبى — مع أنه كان أشدنا ضيقاً بمسلك المسيو لجراندان — كان مستعداً ألا يجزم بسوء أدب لجراندان ، وأن يظل على تشككه فى المعنى الحقيقى لهذا التصرف .

والواقع أن هذا المسلك ، شأنه شأن كل مسلك أو فعل ينم على طبع الشخص الدفين المتوارى عن الأنظار ، لا علاقة بينه وبين ما سبق له أن قاله ، وليس فى وسعنا أن نستوثق من شكوكنا الجديدة بالرجوع إلى سوابقه ، أو إلى الاستفسار منه ، لأنه لن يعترف بشىء .

فليس لنا أن نعتمد على شيء اللهم إلا مداركنا . وعلينا أن نسأل أنفسنا لا أن نسأله ونحن فى مواجهة هذه الشذرات من الأحداث والذكريات ، وقد ينتابنا الشك فيما رأينا ونحسب أننا كنا فريسة وهم : وهكذا قد تكون هذه المواقف الدالة على خفايا الطباع والسرائر مدعاة للحيرة :

وذهبت فتعشيت مع لجراندان فى شرفة بيته ، فى ضوء القمر : وقال لى :

— فى هذا الصمت مزية فريدة ، أليس كذلك ؟ بلى ! إن فى هذا الصمت للقلوب الجريحة مثل قلبى ، دواء ليس مثله دواء ، كما قال روائى ستقرأه فى أعوامك المقبلة . فهو يقول إنه لا علاج لجراح القلوب إلا الصمت والظل . واعلم يا فتاى أن فى العمر فترة — لم يزل أمامك الكثير كى تصل إليها — لا تطيق العين فيها إلا نوعاً واحداً من الضوء ، وهو الضوء الذى يهيئه لنا مساء بديع كهذا المساء فى سكون الظلام ، حيث لا تستطيع الأذن أن تسمع موسيقى اللهم إلا تلك الموسيقى التى ينفثها ضوء القمر فى ناى الصمت !

وكان فى وسعى أن أسمع ما كان يقوله المسيو لجراندان . فما كان يقوله — كان مثل كلامه كله — جذاباً . ولكنى كنت قلقاً مضطرباً بذكرى سيدة كنت قد رأيتها أخيراً لأول مرة . ولما كنت أعرف أن لجراندان على صلات ودية بكثير من أفراد الأرستقراطية المحلية ،

فقد خطر لى أنها ربما كانت ممن يعرفهن . ولذا استجمعت كل شجاعتى ، وقلت له :

— قل لى يا سيدى : هل تعرف بالمصادفة السيدة .... أعنى سيدات جيرمنت ؟

وشعرت بفرح غامر ، لأننى حين تفوهت بالاسم قد استحوذت على نوع من السيطرة عليه ، بمجرد إخراجه من دائرة أحلامى ومنحه وجوداً موضوعياً فى دنيا الأشياء المنطوقة :

ولكن عند سماع كلمة « جيرمنت » رأيت فى وسط كل من عينى صديقنا الزرقاوين غمازة صغيرة بنية اللون ، وكأنما طعن أحد عينيه بسن دبوس غير منظور ، فى حين كان سائر إنسانى عينيه يفيضان بلون اللازورد ، واشتد سواد جفنيه وغض منهما . ولكن فمه الذى كان متغضناً كان أول ما أفاق من الصدمة ، فافتر عن ابتسامة ، فى حين بقيت عيناه طافحتين بالألم ، مثل عينى شهيد جميل الصورة اخترقت بدنه السهام !

وقال لى بعد برهة :

— لا : لست أعرفهن !

ولكن بدلا من النطق بهذه المعلومة البسيطة الخالية من كل ما يمكن أن يدهشنى ، بنبرة طبيعية وعادية تلائمها ، تفوه بها وكأنه يتلوها تلاوة من نص محفوظ ، وهو يضغط على كل كلمة من كلماتها ، وقد مال للأمام ، وأحنى رأسه ، على نحو ما يفعل شخص

يريد أن يصدقه السامع وهو يقول له شيئاً بعيد الاحتمال جداً . (وكأنما كونه لا يعرف آل جيرمنت مسألة غريبة نجمت عن حادث غير عادى) . كان حاله وهو يقولها حال من لا يستطيع السكوت على وضع شديد الإيلام له ، ولذا يؤثر أن يعلنه بصوت مرتفع ، عسى أن يوقع فى روع السامعين أن هذا الاعتراف الذى يدلى به لا يسبب له ضيقاً ولا حرجاً ، بل هو اعتراف يسير سهل لطيف وتلقائى : أو أن عدم معرفته بآل جيرمنت أمر لم يفرض عليه رغم إرادته ، بل هو الذى أراد ذلك ورتبه ، أو ربما كان ناجماً عن تقاليد عائلية أو بناء على مبدأ خلقى أو نذر أو عهد قطعه على نفسه ألا يتصل بهذه الأسرة :

وأردف ، وكأنه يفسر لى اللهجة التى تكلم بها :

ــ لا . أنا لا أعرفهن . ولم أحبب قط أن أعرف هذه الأسرة ؛ فقد كنت دائماً حريصاً جداً على المحافظة على استقلالى التام : وأنا فى أعماق قلبى ــ كما تعلم ــ راديكالى متطرف بعض الشىء . والناس لا يكفون فى كل وقت عن مفاتحتى فى هذا الموضوع ، ويقولون لى إنى مخطئ لعدم ذهابى لدى آل جيرمنت : وإننى أتعرض بذلك لسمعة سوء الأدب وقلة التهذيب ، كالدب المسن . ولكن هذا النوع من سوء السمعة لا يخيفنى ، لأنه غير صحيح ! والواقع أننى فى دخيلة نفسى لا أهتم الآن بشىء فى هذا العالم كله إلا ببضع كنائس قديمة ، وبالكتب القديمة ... وصورتين أو ثلاث ، وربما أكثر

قليلا ، وبضوء القمر عندما تضخم أننى مع نسمات روائح الشباب (كشبابك أنت) وهى تهب من حدائق مزهرة لم تعد عيناى قادرتين فى سنى هذه على تبينها !

ولم أستطع أن أفهم بوضوح تام لماذا ــ كى يمتنع المرء عن الذهاب إلى بيوت أناس لا يعرفهم ــ يتحتم عليه أن يتشبث باستقلاله التام ، ولا لماذا يجعله هذا المسلك يبدو كالمتوحش أو كالدب ؛ ولكن ما فهمته هو هذا : إن لجراندان لم يكن صادقاً تمام الصدق عندما قال إنه لا يكترث إلا بالكنائس القديمة وضوء القمر والشباب ؛ لأنى أعرف أنه يكترث ــ ويكترث بشدة ــ بالناس الذين يعيشون فى البيوت الريفية من كبار الأعيان ، إلى درجة أنه كان يخاف جداً وهو فى صحبتهم أن يكدرهم إن تجاسر على إشعارهم بأن من بين أصدقائه أناساً من الطبقة الوسطى ، وأسر المحامين وسماسرة الأوراق المالية ؛ ويفضل ــ إن كان ولا بد من أن يعرفوا عنه هذه المعلومات ــ أن تصلهم فى غيابه ، وعن غير طريقه . وبذلك يصدر حكم هؤلاء الأسياد بإدانته غيابياً . أى أنه بإيجاز : متعاظم « قنزوح » !

وهو بطبيعة الحال ما كان ليعترف بشىء من هذا بتلك اللغة الشاعرية التى كنا ــ أسرتى وأنا ــ شديدى الإعجاب بها : ولو أنى سألته :

ــ أتعرف آل جيرمنت ؟

لقال لجراندان المتكلم المتعاظم :

ـ لا : فأنا لم أهتم يوماً بمعرفتهم ...

ولكن سوء طالعه أن لجراندان المتكلم حل الآن محله لجراندان آخر ، كان حريصاً على إخفائه داخل صدره ، ولا يمكن أن يسمح له بالظهور علناً ، لأن هذا الآخر المتوارى يمكن أن يروى عن صديقنا القديم لجراندان حكايات تفضح تعاظمه الكاذب وتدمر سمعته إلى الأبد . وهذا الشخص الآخر ـ لجراندان الخفى ـ قد قام بالرد على سؤالى عن طريق عينيه الجريحتى الأعماق ، وهذه الابتسامة المتصلبة ، وإفراط لهجته فى الجد والحزم وهو يتفوه بكلماته المعدودة تلك فى وقار لا لزوم له ، وعن طريق مئات الأسهم التى رأيتها مرشوقة فى جسد صديقنا لجراندان ، كأنه القديس سباستيان ... لأنه شهيد التشامخ الكاذب . وكأنه يقول لى فى الواقع :

ـ أوه ! كم يؤلمنى سؤالك هذا ! كلا ! أنا لا أعرف آل جيرمنت . فلا تذكرنى بهذا الحزن من أنكى أحزان حياتى !

والحقيقة أن لجراندان الخفى تعوزه زلاقة لسان لجراندان المعهودة لنا ، وبلاغته وشاعريته ، ولكنه أصرح منه وأقوى ، ولذا لم يفلح لجراندان الظاهرى المنظرانى فى إسكاته هذه المرة عندما فاجأه سؤالى ، ونطق بلغته الجسدية الخاصة معبراً عن حقيقة وجوده الباطن . هذه اللغة التى هى الأفعال المنعكسة اللاإرادية . ولم يكن لصديقنا لجراندان المنظرانى حيلة فى منعها ، ولم يعد أمامه من سبيل

إلا أن يحاول تلطيف أثرها ما استطاع إلى ذلك سبيلا . أما التحسر على ما ند عنه فلا جدوى منه .

وليس معنى هذا أن لجراندان لم يكن مخلصاً حينما كان يهاجم المتعاظمين بعنف ، إذ لم يكن فى استطاعته (من واقع معرفته على الأقل) أن يدرك أنه واحد منهم ، لأننا لا نتعرف حقاً إلا على انفعالات الآخرين ، أما انفعالاتنا وأهواؤنا فلا يمكن أن نكتشفها إلا عن طريق ما يطلعنا عليه الناس منها . فانفعالاتنا لا تنعكس علينا إلا بصورة غير مباشرة ، عن طريق مخيلتنا ، التى تختلق بديلا من دوافعنا الفعلية الأولية دوافع أخرى ثانوية ، أقل عراء ، ولذا فهى بالتالى أكثر لياقة واحتشاماً ! وهكذا لم يحدث لتعاظم (قنزحة) لجراندان أن فرضت عليه عادة زيارة دوقة من حيث هى دوقة ، أو لأنها دوقة ، وبدلا من هذا تجتهد مخيلته فى جعل هذه الدوقة تبدو فى عينى لجراندان حائزة لكل المواهب الفنية والذهنية . وبذلك يتسنى له أن ينجذب إلى هذه الدوقة وهو يؤكد لنفسه طول الوقت أنه إنما ينقاد لجاذبية عقلها وسائر فضائلها ومزاياها التى لا يمكن أن يفهمها أبداً « المتعاظمون » الأوغاد! ولكن رفاقه من المتعاظمين (القنازيح) الأوغاد هم الذين يعرفون أنه واحد منهم ، لأنهم يجهلون وبالتالى يعجزون عن تقدير الجهود التى قامت بها مخيلته لتبرير سلوكه . لذا تبينوا فى نشاطه الاجتماعى نظير ما لديهم من دوافع أولية .

وصرنا فى بيتنا على بينة لا خفاء فيها من حقيقة النبيل لجراندان .

فصارت علاقاتنا به أشد تباعداً من ذى قبل . وكانت ماما تجد سعادة كبيرة كلما ضبطته متلبساً بهذا الإثم ، الذى استمر هو شخصياً يسميه الإثم الذى لا يغتفر ، إثم التعاظم (القنزحة) . أما أبى فوجد من العسير النظر إلى مسلك لجراندان بهذا الاستخفاف وعدم المبالاة ؛ فلما جرى الحديث فى إحدى السنوات عن إرسالى لتمضية عطلة الصيف الطويلة فى بلبيك Balbec مع جدتى ، قال أبى :

ـ يجب قطعاً أن أخبر لجراندان بنية ذهابك إلى بلبيك لأرى هل يعرض علينا تزويدك بخطاب يقدمك فيه إلى أخته أم لا : ولعله لا يتذكر أنه سبق أن أخبرنا أنها تعيش على قيد كيلومترين من هذا المكان .

أما جدتى التى كانت تعتقد أن على المرء حين يذهب إلى ساحل البحر أن يقضى النهار كله من الصباح حتى الليل على الشاطئ ، كى يتذوق النسيم المالح ، وعليه ألا يتصل بأى أحد من ساكنى هذا المكان ، لأن الزيارات والحفلات والرحلات تسرق الوقت المخصص أصلا لهواء البحر ، ولذا رجت والدى ألا يخبر لجراندان بأى حال من الأحوال بخطتنا . ذلك أنها تصورت ـ بعين بصيرتها ـ أخته مدام دى كمبرميه وهى تهبط من عربتها أمام باب فندقنا فى نفس اللحظة التى نهم فيها بالخروج لصيد السمك ، وبذلك تضطرنا للبقاء داخل الفندق طيلة ما بعد الظهر لكى نسليها ونضيفها . إلا أن ماما ضحكت من مخاوفها وهزأت بها ، لأنها شخصياً شعرت بأن هذا

الخطر لا يتهددنا ، وأن لجراندان لن يتلهف على تعريفنا بأخته .

وفعلا لم نكن نحن بحاجة إلى إثارة موضوع بلبيك بأنفسنا ، لأن لجراندان نفسه هو الذى وقع فى الفخ من تلقاء نفسه ذات مساء عندما قابلناه وهو يتمشى على ضفاف نهر فيفون Vivonne ، وهو خالى الذهن تماماً من وجود أى نية لدينا لزيارة بلبيك ، إذ قال لأبى :

ـ إنى أرى هذا المساء فى السحب ألواناً بنفسجية وزرقاء فى غاية الجمال ، ألست تراها كذلك يا صديقى العزيز ؟ ولا سيما هذا النوع من اللون الأزرق غير المألوفة رؤيته فى السماء . أشبه بزرقة الأزاهير . زرقة رمادية من الغريب أن نراها فى السماء . ثم هذه السحابة الصغيرة الوردية التى هناك ، أليست لها بالضبط ألوان بعض الأزهار ، من القرنفل ؟ لم يسبق لى أن رأيت شيئاً لمثل هذه الألوان النباتية فى السماء منطبعة على السحب ، اللهم إلا على شواطئ المانش ، حيث تمتزج نرمانديا ببريتانى . فهناك ، بالقرب من بلبيك ، وسط كل تلك المواضع التى لم تزل بعيداً عن المدينة ، يوجد خليج صغير ، ساحر الهدوء . لا ترى أشكال الغروب المعهودة بلونيها الأحمر والذهبى (وإن كنت شخصياً لا أزدريها) بل تفاجأ هناك بكل أزاهير المملكة النباتية وقد تفتحت وسط السحب ساعة الغروب ، بضع لحظات أحياناً ، وقد يمتد وجودها ساعات أحياناً أخرى قبل أن تشحب وتتلاشى . وفى ذلك الخليج الذى يسمونه الخليج البيضاوى

تبدو الرمال الذهبية فاتنة ساحرة ، لالتصاقها بتلك الصخور الرهيبة المتناثرة على الساحل، الذى يسمونه الساحل الجنائزى لكثرة ما ارتطمت به السفن وتحطمت عليه . فلا يمر شتاء من غير أن تذهب ضحيته إحدى السفن : بلبيك ! إنها أقدم قطعة عظام فى الهيكل العظمى الجيولوجى تحت ثرانا الفرنسى . إنها المنطقة الملعونة التى أحسن أناتول فرانس وصفها (وبالمناسبة : أناتول فرانس كاتب ينبغى على صديقنا الصغير أن يقرأه يوماً ما) فوصفه لها رائع وهى غارقة فى الضباب ، وكأنها قطعة من الأوديسية . بلبيك ! إنهم يشيدون الآن الفنادق ، فوق ثراها العتيق الساحر : فما أبدع أن يطأ الإنسان هناك الأرض وتمضى به قدماه إلى مناطق منها ، لم تزل محتفظة بطابعها البدائى !

وعندئذ سأله أبى :

ــ حقاً ؟ وهل تعرف أحداً فى بلبيك ؟ إن هذا الفتى مزمع أن يذهب لتمضية شهرين هناك مع جدته ، وربما صحبتهما زوجتى أيضاً .

وفوجئ لجراندان بهذا السؤال، فى لحظة كان فيها ينظر مباشرة إلى وجه أبى ، فلم يستطع أن يحول نظره إلى بعيد أو يشيح بوجهه عنه ، ولذا زاد تركيز نظرته على عينى من وجه إليه هذا السؤال وهو يبتسم فى مودة وصراحة ، كأنما تخترق نظراته جمجمة أبى وكأنها كرة من الزجاج ، ليرى من ورائها ومن خلالها على مسافة

بعيدة سحابة زاهية الألوان ، عسى أن يجد فيها عذراً ينتحله لعدم سماعه السؤال ، لأنه كان مشغول الذهن بشىء آخر . ومثل هذا التكتيك يدفع السائل عادة إلى أن يتعجب ويقول له ، مثلا :

ــ عجباً لك ! فيم تفكر ؟

إلا أن أبى لم يقل له هذا ، بل واصل كلامه بفضول وقسوة وضيق قائلا :

ــ ألك أصدقاء إذن فى تلك المنطقة ، ما دمت تعرف بلبيك إلى هذا الحد ؟

وبجهد أخير مستميت ناضلت ابتسامة لجراندان الباسمة حتى وصلت إلى أقصى حدود رقتها ، وغموضها، وسذاجتها ، وشرودها، ثم شعر ولا شك أنه لم يعد له مفر الآن من الإجابة فقال :

ــ لى أصدقاء فى جميع أنحاء العالم ، حيثما وجدت مجموعات من الأشجار ، مهما قست عليها يد البشر المخربة ، فهى لم تزل صامدة ترفع قاماتها فى ضراعة وعناد إلى السماء كى تشملها برحمتها .

فقاطعه أبى ، فى عناد تلك الأشجار ، وقسوة يد البشر ، وقال :

ــ ليس هذا ما عنيته بسؤالى ؛ فقد سألتك لأن حماتى ربما احتاجت لظرف طارئ إلى أن تشعر بأنها ليست وحيدة هناك ، فى أقصى الأرض ، هل تعرف أحداً من أهل تلك المنطقة ؟

فأجابه لجراندان الذى لم يكن مستعداً بعد للاستسلام :

ــ أعرف هناك ، كما أعرف فى أى مكان آخر ، كل أحد ،

ولا أحد ! لأنى أعرف الأماكن جداً ، ولا أعرف الناس فيها إلا فى أضيق الحدود ، إلا أن الأماكن هناك تبدو لى مثل الناس تماماً . الناس هناك قليلو العدد ولكنهم رائعون ! فيهم رهافة . ما أشبه المكان بقلعة تصادفها على حافة ساحل صخرى ، قائمة هناك بجوار الطريق الخلوى ، كأنها وقفت فى ذلك الموضع لتتأمل أحزانها أمام سماء الغروب التى لم تزل وردية اللون ، وقد أطل منها قمر ذهبى يصعد فى مداره ، بينما قوارب الصيد تشق بأشرعتها صفحة المانش الناعمة كالحرير ، وقد انعكست على الأشرعة ألوان السماء . ولكن هذه القلعة ليست فى الواقع إلا بيتاً منعزلا قبيح الشكل ، إلا أنه حافل بالرومانسية ، يخفى عن العيون الفضولية سر سعادته أو إحباطه المكنون . فتلك الأرض لا تعرف صدق الواقع . لأنها أرض الخيال الذى ليست له حدود . وهذا نوع ردىء من القراءة لصديقى اليافع ، وما كنت لأختار له ، وهو الميال بطبعه إلى الحزن والشرود : فالقلب البشرى مهيأ بطبعه لنوع الانطباعات التى يتلقاها . والأجواء التى تتنفس أسرار الغرام والأسى العقيم قد تلائم رجلا مسناً محبط الآمال مثلى ، ولكنها ضارة جداً ، بل قاضية ، على مزاج غض لم يتم تكوينه . صدقنى ...

ومضى فى كلامه بحرارة ، ومراوغة مكيافيلية :

ـ إنه مياه ذلك الخليج (وهو أقرب إلى بريتانيا منه إلى نرمنديا) قد يكون لها تأثير مهدئ ، وإن كان هذا أيضاً موضع

شك ، على قلب مثل قلبى ممتلئ بالجراح وليس يملك عوضاً عن حسراته . ولكن فى مثل سنك يا فتاى العزيز ، لا تصلح لك هذه المياه . والآن طابت ليلتكم أيها الأصدقاء !

ثم أسرع بالانصراف عنا رائغاً منا بطريقة لم نتعودها منه ، ثم التفت بعد خطوات وقد رفع سبابته محذراً ، كأنما ليلخص لى نصيحته :

ـ لا تذهب إلى بلبيك قبل سن الخمسين ! وحتى فى تلك السن يتوقف الأمر كله على حالة القلب !

وواظب أبى على التحدث إليه عن بلبيك كلما التقينا به ، وثابر على تعذيبه بأسئلته . ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح . فكان مثل لجراندان فى ذلك مثل من أنفق معظم ثروته فى صنع ألواح ممسوحة مزيفة ، وبذل فى ذلك معظم طاقته الذهنية ومهارته ، مع أنه لو كان أنفق واحداً على مائة من ذلك كله فى سبيل آخر لجنى ربحاً جزيلا ، وصارت له تجارة رابحة وحرفة شريفة . ذلك أن مسيو لجراندان كان مستعداً فى نهاية تلك الأحاديث أن يمطرنا بمعلومات مستفيضة عن الجغرافيا الطبيعية والفلكية لأدانى نورمانديا ، من غير أن يصارحنا بأن شقيقته تقيم فى بيتها الفخم على مسافة أقل من كيلومترين من بلبيك ، حتى لا يقدم لنا خطاب توصية وتعريف ، وما كان لينتابه كل هذا الرعب ، لو أنه تذكر أن جدتى ما كانت يقيناً ، مهما كانت الظروف ، لتفكر فى استخدام هذا الخطاب بالفعل .

* * *





مختارات كتابى
إصـــدار جـــديد

عزيزى القارى ..

فى العدد الأول من الإصدار الجديد لسلاسل (كتابى) ، وهو كتاب (وجوه الحب السبعة) ، حدثك الأديب العالمى « أندريه موروا » عن الوجه السابع من وجوه الحب ، الذى اختار ـ كنموذج له ـ رائعة « مارسيل بروست » (غرام سوان) ، وهى الجزء الأول من ملحمته الخالدة (البحث عن الزمن المفقود) .. وبطل القصة رجل مثقف مترف مرهف الإحساس يدعى « سوان » يقضى أكثر وقته مع الطبقات الارستقراطية ويحظى بأجمل نسائها كخليلات .. لكنه يلتقى ذات يوم فى المسرح بامرأة تدعى « أوديت دى كريسى » ، لا تثير فيه أية رغبة أو اهتمام ، بل إنها على العكس توحى إليه بشعور من « النفور الجسمانى » !.. غير أنه مع مرور الأيام يلحظ تشابهاً صارخاً بين وجه « أوديت » وبين لوحة مشهورة للفنان الإيطالى العظيم « بوتيتشيللى » ، فيتغير شعوره نحوها من « النفور » إلى « الإعجاب » بشبيهة المرأة التى أوحت إلى الرسام العظيم بلوحته المشهورة !.. وهكذا نتابع فى رواية (غرام سوان) تحليل الروائى الكبير « بروست » لمراحل تحول مشاعر البطل نحو البطلة « أوديت » .. وتصويره الرائع لأطوار « مرض الحب » ، وأعراضه ، وعلاجه ، بدقة وبراعة منقطعتى النظير !



والكتاب الذى بين يديك هو الجزء الأول من ثلاثة أجزاء يتألف منها النص الكامل لرواية (غرام سوان) ، التى بدأ بها « مارسيل بروست » ملحمته الخالدة (البحث عن الزمن المفقود) !

حلمى مراد